

التبصير
في
أحاديث النفس

من أملاء
ساحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الثالث



الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الغرب الإسلامي

ص.ب. ٥٧٨٧/١١٣
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّيْسِيَّةُ
فِي
أَجَادِيَةِ النَّفْسِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَستَندُونَكَ وَهُمْ أَعْيَاءٌ رَضُوا بِأَن
يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْمُونَ ﴿١٦﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنُؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أخبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَمَنْ
تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبئِكُمْ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ
فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِرِجْسٍ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جزاء بما
كانوا يكسبون ﴿١٨﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ الْأَعْرَابُ
أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ

مَغْرَمًا وَيَتَرَيَّضُ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيدٌ خَلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ اِعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِأَمْرِ
 اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٦﴾
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ
 إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٧﴾
 لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
 أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ
 يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٥٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ
 اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ
 هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ
 إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٠﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

في نهاية الربع الماضي تحدث كتاب الله عن الأعدار التي يسمح الإسلام من أجلها بالتخلف عن الجهاد، لأنه ينظر إليها بعين الاعتبار، وفي بداية هذا الربع الذي هو حصة اليوم تسلط الآيات الكريمة أضواءها على المعتذرين بأعدار واهية، حرصاً على السلامة والعافية، ومن بينهم طائفة من أغنياء المنافقين فضلت القعود والركود على الجهاد والجلاد، تأميناً لمتعتهما، وضمناً لراحتها، وبخلاً بالتنازل ولو مؤقتاً عن مآلوفاتها.

ولتعتمد هذه الطائفة المنحلّة على مبرر لعملها حتى لا يستنكره الناس، حاولت أن تحصل من رسول الله في شأن قعودها

المريب على إذن خاص، ورضيت في سبيل إرضاء شهواتها بالتنازل عن خصال الرجال الأقوياء، وبالبقاء قعيدة البيت بجانب العجزة من الأطفال والعواجز من النساء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ أي إنما الحرج والإثم على الذين لم يبادروا للخروج معك إلى غزوة تبوك لغزو الروم، كما بادر إلى ذلك المخلصون، أغنياء وغير أغنياء، بل توقفوا وثاقلوا وجعلوا يطلبون منك الإذن لهم في التخلف، بالرغم من أن عندهم جميع الوسائل التي تمكنهم من المساهمة في الجهاد مساهمة فعّالة، لكنهم لم يجاهدوا بأنفسهم، ولم يساعدوا غيرهم من الفقراء على تكاليف الجهاد بأموالهم: ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع العواجز، بعيدين عن جبهة القتال ومتاعبه، آمنين على أنفسهم من مفاجآت الجهاد. ولا ينبغي أن يفهم من هذا السياق أن النساء المسلمات جميعاً كنَّ محرومات من شرف الجهاد والوقوف بجانب المجاهدين، بل إنهن على العكس من ذلك، فقد كان القادرات منهن على التطوع يتطوعن بالجهاد، وإن لم يُفرض عليهن، ويشاركن فيه مشاركة فعالة إلى جانب الرجال، وكان نصيبهن من الغنائم يقدم لهن في صورة هدايا وعطايا تعطى لهن تشجيعاً على التطوع للجهاد، وتقديراً لتضحياتهن في سبيل إعلاء كلمة الله.

ثم بين كتاب الله السر في موقف هذا النوع من الأغنياء: الأغنياء مادة، والفقراء روحاً، فقال تعالى: ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. ففي هذه الآية تنبيه إلى أن قلوبهم قد

ماتت، ولم تعد تنبض بأي احساس كريم أو شعور نبيل، فكيف يهبون لنصرة المثل الأعلى الذي يمثله الإسلام، وقد (طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ).

وفي نفس الآية تنبيه إلى أن عقولهم قد أناخ عليها كابوس الجهل، وعشش فيها بوم الوهم، فكيف يقدرّون الرسالة السامية التي جاء بها الإسلام، وكيف يقدمون أنفسهم وأموالهم قرباناً لها وفداءً في سبيلها (وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

وقبل أن يعود كتاب الله إلى الحديث عما ينتظر أن يفعله أولئك الأغنياء المتخلفون، عندما يعود رسول الله سالماً من غزوة تبوك، ويعود معه المومنون أخبر الله رسوله بذلك، فقال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾. فقد كانوا يظنون بالله ورسوله الظنون، وكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن غزوة تبوك مغامرة كبرى مآلها المحقق في نظرهم القاصر أن ينتصر الروم وينهزم المسلمون، وإذ ذاك يستريحون منهم، ويستأنفون حياة الشرك والنفاق، لكن الله سلم، وألقى الرعب في صفوف العدو، فانسحب إلى حصونه الخلفية، وتفادى كل اشتباك مع القوات الإسلامية، رغماً عن مرابطتها في «تبوك» على أهبة الاستعداد حوالي شهر كامل، وبذلك انقلب الوضع رأساً على عقب، وأصبح المتخلفون عن الجهاد الظانون بالله الظنون في مركز حرج، وتيقن الجميع أن رسول الله ﷺ عائد على رأس جيش الإسلام المظفر إلى قاعدته الرئيسية بالمدينة المنورة، وإلى أنه سيحاسب المقصرين على تقصيرهم.

ومن هنا أخذوا يعدُّون العدة لانتحال الأعذار، ولتقديم الإعتذار عن تخلفهم وقعودهم، فقد رد الله كيدهم في نحرهم، وعاملهم بنقيض قصدهم: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ لكن الحق سبحانه وتعالى لقن رسوله والمومنين أحسن جواب يردون به على هذا الصنف من المتخاذلين المخذولين، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدق اعتذاركم، فلم يبق مجال للاعتذار، بعد هتك الأستار.

ثم عقب كتاب الله على هذا الجواب المفحم والرد القاطع، فمضى يهدد المنافقين بمزيد الكشف عن نفاقهم، وتوجيه الأنظار إلى فضائحهم، قائلاً: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ فعن طريق الوحي اطلعنا على سرائركم وأسراركم، ومن كشف الله له السر بنور وحيه كيف يستره عنه الناس، بل كيف يقع ضحية التدليس والالتباس.

وخاطب الله المنافقين خطاب ترهيب فقال: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فمهما كتمتم وسترتم، ومهما تأمرتم وأخفيتم، ومهما تقلبتم في البلاد، فإن الله ورسوله لكم بالمرصاد. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فيطلع على نواياكم وطواياكم بواسطة مشعل الوحي الذي ينير له الطريق، ويعرفه بعناصر التخذيل والتعويق، وبذلك يرى عملكم ويعرف مرماه ومغزاه. وأما الحق سبحانه وتعالى فلا يغيب عن علمه من أمركم شيء، كبيراً كان ذلك الأمر أو صغيراً، جليلاً أو حقيراً، بل هو يراكم على حقيقتكم، منافقين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، لا عقيدة

عندكم صحيحة، ولا نية لكم صالحة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. هذا وعيد جديد من الله تعالى للمنافقين بأنهم مهما كادوا ومكروا، ودبروا من السوء ما دبروا، فإن مصيرهم في النهاية إلى الله الذي يعلم سرهم ونجواهم، وإذ ذاك سيتولى حسابهم على النقيير والقطمير، وجزاءهم على الصغير والكبير، وينظر إلى معنى هذه الآية الكريمة قوله تعالى في آية ثانية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

وقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ توكيد وتجديد لما سبق أن وصف به كتاب الله من قبل طائفة المنافقين، فهم يكثرون من الحلف باستمرار، ويلجأون إليه دون انقطاع، لتوكيد ادعاءاتهم، وإعطائها صبغة الصدق والحق، كلما أعوزهم الدليل والبرهان، وخانهم المنطق والبيان. ومن الآيات التي سبق فيها وصف المنافقين بالإكثار من الحلف الكاذب أو اليمين الغموس قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾، وقوله تعالى سابقاً في هذه السورة - سورة التوبة - ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾، وقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿مَا هُمْ

مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ اتَّخَذُوا
 أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ إلى غير
 ذلك من الآيات الناطقة بهذا الوصف، الملازم للمنافقين، الأولين
 منهم والآخرين.

وقوله تعالى هنا: ﴿لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ﴾ معناه أن أغنياء
 المنافقين إنما يرمون من وراء حلفهم هذه المرة إلى التخلص من
 تأنيب المومنين ولومهم، فهم يخافون المَعْرَةَ والتجريح لا غير،
 وهم يحاولون أن يخلعوا على عذرهم الباطل صبغة العذر
 الصحيح.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله والمومنين: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ،
 إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والأمر
 بالإعراض عن المنافقين هنا يقتضي مقاطعتهم واحتقارهم
 واعتبارهم منبوذين خارج الجماعة الإسلامية. ولخبث طويتهم،
 وفساد عقيدتهم، وصفهم كتاب الله بأنهم «رجس» أي قذر وخبث،
 كما وصف المشركين من قبل في هذه السورة نفسها بأنهم نَجَسٌ:
 ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى تحليل دافع آخر من الدوافع التي
 حملتهم على استعمال سلاح الحلف الباطل، فبيّن أنهم
 يحاولون بذلك كسب رضا المومنين والحصول على ثقتهم من
 جديد، إلا أن الحق سبحانه وتعالى حذّر المومنين من أن يقعوا
 في هذا الفخ، وذكرهم بأن الله لا يرضى عن المنافقين أبداً،

وإذن فلا يسوغ للمومنين أن يرضوا عنهم بحال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. والفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، من «الفسق» وهو لغة الخروج، ومنه سُميت الفأرة «فُؤَيْسِقَةً» لأنها تخرج من جحرها للإفساد، ويقال: فَسَقَتِ الرُّطْبَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا.

وتولى كتاب الله الحديث عما كان عليه الأعراب في فجر الإسلام قبل أن يستفحل أمره وتعم دعوته؛ والمراد «بالأعراب» سكان البادية الملازمون لسكناها، فلمَّح كتاب الله إلى أن هذا الصنف من الناس بحكم اشتغالهم بمعاشهم، وانهماكهم في تربية إبلهم ومواشيهم، وتغيب كثير منهم عن كثير من المناسبات السعيدة التي كان يشهدا غيرها من المسلمين المخالطين للرسول، والملازمين لمجلسه، والمترددين عليه لتلقي الوحي وتعلم الدين، ظلوا بعيدين عن التأثير اليومي المباشر للوحي والرسالة، ولم يتيحوا لأنفسهم الفرص الكافية لتتبع الدعوة الإسلامية في مختلف مراحلها، والتشبع بتعاليمها ومبادئها، وبقي من أجل ذلك قسم كبير منهم عرضة لدعاية المشركين، ووساوس المنافقين، وذلك هو المعنى المراد بقوله تعالى في بداية هذا الموضوع: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي لأنهم لم يكونوا يخالطونه ويلازمونه كغيرهم من المومنين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. قال ابن قتيبة: «الأعرابي لريم البادية، والعربي منسوب إلى العرب».

وقال القاضي عبد الجبار: «يحتمل أن يراد (بالأعراب) من امتنع عن المهاجرة، فقد كان يقال: مهاجر وأعرابي».

ثم شرع كتاب الله يفصل أحوال أولئك الأعراب من سكان البادية والملازمين لها غالباً، فصنّفهم صنفين: الصنف الأول منهم من خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فكانوا داخلين في عداد المومنين، عقيدة ونية، قولاً وعملاً، وفي هذا الصنف المومن الواعي ورد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي يبتغون من نفقاتهم التقرب إلى الله تعالى والحصول على رضا رسوله ودعائه الصالح، وعقب كتاب الله على وصفهم ووصف عملهم، مبشراً إياهم بحسن العاقبة وجزيل الثواب، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والصنف الثاني من الأعراب من كان داخلًا إذ ذاك في عداد المنافقين محسوباً منهم، يُقوي سواد المنافقين المندسين بين المسلمين في نفس مدينة الرسول، ويتعاون معهم ضد الدعوة الإسلامية. وفي هذا الصنف المنافق الجاهل ورد قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ، وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي منهم من صار لهم النفاق طبعاً وعادة حتى جاوزوا الحدود ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. كما ورد في وصفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي يعتبر ما

ينفقه في سبيل الله غرامة وخسارة، لا قربة إلى الله وزلفى ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ﴾ أي ينتظر حلول الآفات بساحتكم ونزول المصائب عليكم ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ هذا دعاء عليهم بالسوء والشر، جزاء وفاقاً ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «ذم الله تعالى المنافقين والمقصرين في (هذه السورة) في آيات جملة، ثم طبقهم طبقات عموماً وخصوصاً، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ [الآية: ٩٧]. وقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ [الآية: ٩٨]. وقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ﴾ [الآية: ٩٩]، وهذا مدح يتميز به الفاضل من الناقص، والمحق من المبطل».

وأخيراً عاد كتاب الله إلى الحديث عن المتخلفين الذين تخلفوا عن الجهاد والخروج مع رسول الله إلى غزوة تبوك، فبين أن من بين المتخلفين صنفاً لم يتخلف عن نفاق، وإنما تخلف عن ميل إلى الكسل، وإيثار للراحة، وحرص على الظلال والثمار، إذ كانت غزوة تبوك في فصل حر وموسم غلة.

وهذا الصنف ينقسم بدوره إلى قسمين: قسم اعترف بذنبه، وقسم لم يعترف بذنبه. فالقسم الأول من هذا الصنف تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. والقسم الثاني من هذا الصنف تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَعَاخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مؤخرون ليوم الحساب،

متركون لحكم الله فيهم ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ورغماً عن كون هاتين الآيتين وردتا في الأصل على هذا السبب الخاص وفي أناس معينين، فإن معناهما يعم كافة المذنبين من غير المنافقين .

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ يتوجه الخطاب فيه إلى هذا الصنف الخاص من المتخلفين غير المنافقين، الذين تخلفوا كسلاً لا نفاقاً، وهذا أمر يقتضي ترغيبهم في استئناف العمل الصالح والمواظبة عليه، وفيه تذكير لهم بأن الله من ورائهم محيط، وبأن رسوله سيراقيب سلوكهم باستمرار، وبأن فراسة المومنين ستلاحقهم في كل مكان، فما أطلعهم الله عليه من خير أحبوه، أو شر أبغضوه، إذ الأعمال نفسها ليست إلا علامات تكشف عن حقيقة النيات، وأمارات تدل على صميم المعتقدات «ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر» كما جاء في الأثر.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله إلى الناس كائناً ما كان» . وروى ابن القاسم عن الإمام مالك أنه كان يقال: «ابن آدم اعمل، وأغلق عليك سبعين باباً يخرج الله عملك إلى الناس»، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

إِنَّ

اللَّهِ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣١﴾
التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ
السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَّ قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٣٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه

إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا آيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ
 لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ
 مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ
 عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
 سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ
 مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾
 وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا
 أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
 اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ
 وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
 وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ

ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّئُونَ
 مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ
 لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
 وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
 وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن
 كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
 قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

بعدهما وجه كتاب الله في هذه السورة - سورة التوبة - الخطاب تلو الخطاب إلى المومنين الصادقين يستنفرهم خفافاً وثقالاً للقيام بواجب الجهاد في سبيل الله، إعلاءً لكلمة الله، ونشراً لدينه بين الناس، حتى يدخلوا في دين الله أفواجا، حملت أول آية في هذا الربع أعظم بشرى إلى المومنين، بشرى إلى من جاهد في سبيل الله، ثم قضى نجه فداءً للإسلام، وبشرى إلى من جاهد في سبيل الله ولا يزال ينتظر لقاء الله في مستقبل الأيام، وهذه بشرى تقتضي أن الله تعالى - تفضلاً منه وكرماً - قد عامل المومنين معاملة خاصة لا تخطر على قلب بشر، فيها غنم كبير، وريح عظيم، لا يعدلها غنم ولا ربح.

وتتلخص هذه المعاملة الرابعة في بيع المومن نفسه وماله لربه، مقابل عوض يتناسب مع كرم الله وسعة غناه، عوض لا يقدر بثمن، ولا يُحدُّ بزمن، يناله المومن من ربه، ألا وهو دخول الجنة والخلود في دار النعيم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. فهذه الآية الكريمة تتحدث عن اشتراء الله من عباده المومنين أنفسهم وأموالهم، وكأنهم مالكون حقيقيون لتلك الأنفس وتلك الأموال، وكأن أنفسهم وأموالهم ملك خالص لهم، وكأنه لا دخل لله لا في خلقهم ولا في رزقهم، بينما الحقيقة والواقع أن أنفس المومنين وأموالهم كغيرها من الأنفس والأموال إنما هي مجرد عطاء من الله، ومحض هبة منه لعباده، إذ لو شاء الله لأبقاهم في حيزٍ العدم ولم يخرجهم إلى حيزٍ الوجود، ولو شاء الله لأوجدتهم ثم حرمهم من الرزق، وجعلهم عائلة يتكففون الناس، فهو سبحانه المنعم عليهم بنعمة الإيجاد أولاً، وبنعمة الإمداد ثانياً، ومع ذلك ها هو الحق سبحانه وتعالى يتكرم عليهم كرمأ لا كرم فوقه، فيعاملهم أكرم معاملة، ويعاوضهم على ما أنعم به عليهم في الدنيا بنعمة أجل وأعظم، وأخلد وأبقى في الدار الآخرة، وذلك هو منتهى الكرم وغاية الاحسان، الذي يعجز عن تصويره الإنسان.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما قرأ هذه الآية قال

معجباً بكرم الله: «ثَامَنَهُمْ - وَاللَّهِ - وَأَعْلَى الثَّمَنِ» يريد أن الله تعالى أعطاهم أكثر مما يستحقون، وأن الربح لم يأتِ على مقدار الشراء، بل زاد عليه وأربى .

ومثل هذا القول يُروى عن قتادة والحسن البصري، وقال شِمْرُ بْنُ عَطِيَّةٍ: «ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة، وُقِّيَ بها أو مات عليها» ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ معناه أن الله تعالى تعهد لهم بالجنة، سواء قَتَلُوا وعادوا بالأجر والغنيمة، أو قُتِلُوا وفازوا بالأجر والشهادة، أو اجتمع لهم هذا وهذا فنالوا الحسنين ما دام ذلك كله في سبيل الله، ولإِعْلَاءِ كلمة الله .

وفيه أيضاً إشارة إلى أن المومن الذي يُقَدِّم نفسه وماله للجهاد في سبيل الله يكون معنوياً ومادياً على كامل الاستعداد للتضحية والفداء، بحيث يجود بنفسه دون أدنى تحفظ ولا حساب، كيفما كانت النتيجة المرتقبة، وهذه الروح الفدائية العليا هي التي نُوِّهَ بها كتاب الله ومدحها هنا إذ قال: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ .

ومن أجل هذا المعنى وُصِفَ المومنُ المقتول في الجهاد في سبيل الله بأنه (شهيد)، لأن إقدامه على الجود بنفسه في سبيل الله هو أقوى دليل يدل على قوة إيمانه، وصدق يقينه، وأكبر شهادة تشهد له على اعتزازه بدينه، وحماسه لمثله، ووفائه لربه

بالبيعة التي في عنقه. أضف إلى ذلك أن الله وملائكته والمومنين يشهدون له بالجنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد الإلهي الناجز، وإشارة إلى أنه وعد قديم كتبه الحق سبحانه وتعالى على نفسه تفضلاً وكرماً، وكلف النبيين والمرسلين بتبليغ بشرائه إلى كافة المومنين. والتنصيب على التوراة والانجيل والقرآن في هذا السياق إنما هو تخصيص بالذكر لأشهر الكتب المنزلة التي تضمنت هذا الوعد الإلهي الكريم.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَشِّرُوا بِبِئْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ خطاب من الله تعالى لمن بذلوا النفس والنفيس في سبيله، واعتبروا إعلاء كلمته في الأرض هو أعلى مثل يكرسون له جهودهم، ويصرفون فيه حياتهم، وفحوى هذا الخطاب تبشيرهم من جانب الحق سبحانه وتعالى بتصديقه التام على معاملتهم معه، ورضاه عنها وعنهم كامل الرضا، وتهنئتهم بما نالوه من الكسب الذي لا كسب فوقه، والربح الذي لا ربح بعده ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ومن هذا السياق انتقل كتاب الله إلى وصف المومنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، والذين أعدت لهم الأقدار ليكونوا جند الله وحزبه في كل جيل، فقال تعالى في وصفهم تمييزاً لهم عن غيرهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّخِيحُونَ الزَّكِيُّونَ

السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴿٥﴾ .

فوصف (التائبين) يقتضي أنهم متمسكون بطاعة الله لا يقربون معصيته، وأنهم إذا فرط منهم ذنب عن غفلة وجهالة ذكروا الله في الحين فاستغفروا لذنوبهم.

ووصف (العابدين) يقتضي أنهم قائمون بعبادة الله محافظون عليها قولاً وفعلاً، وأنهم لا يقصدون من ورائها إلا وجه الله وابتغاء مرضاته.

ووصف (الحامدين) يقتضي أنهم يصرفون نعمة الله التي ينعم بها عليهم في طاعته، وأنهم لا يسخطون أبداً ولا يتبرموا بقضائه كيفما كان.

ووصف (السائحين) يقتضي أنهم محافظون على فريضة الصيام، لا يهملون القيام بها، وإن تغيرت الفصول والأعوام. روي عن ابن عباس أنه قال: «كلما ذكر الله السياحة في القرآن فالمراد بها الصوم والصائمون». وقالت عائشة: «سياحة هذه الأمة الصيام». وقال الحسن البصري: «السائحون هم الصائمون شهر رمضان». وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي صائمات في قوله تعالى في سورة التحريم المدنية أيضاً: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلَّهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَاتِبَاتٍ تَلْبِسُ عِبَدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾ [الآية: ٥].

قال الحافظ ابن كثير: «وليس المراد من السياحة ما قد

يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرّد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا العمل ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خيرَ مال الرجل غنمٌ يتبع بها شَعَفَ الجبال - أي أعاليها وقممها - ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن».

وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «والسائحون هم الصائمون في هذه الملة، حتى فسد الزمان، فصارت السياحة هي الخروج من الأرض عن الخلق، لعموم الفساد، وغلبة الحرام، وظهور المنكر، ولو وسعتني الأرض لخرجت فيها، لكن الفساد قد غلب عليها، ففي كل وادٍ بنو نحس» هكذا يقول ابن العربي بالحرف الواحد.

ووصف (الراكعين الساجدين) يقتضي أنهم يقيمون الصلاة ويحافظون عليها دون أي كسل أو تهاون أو إهمال.

ووصف (الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر) يقتضي أنهم هداة مرشدون، يجهرون بالحق ولا يخافون لومة لائم، ويقفون في وجه العصاة والفاسقين، حماية للأمة والملة من انتشار المعاصي والفواحش، وهدراً مما يتبعها من غضب الله على العباد والبلاد.

ووصف (الحافظين لحدود الله) يقتضي أنهم كما قاموا بعبادة الحق، ولم يهملوا نصيحة الخلق، امتثلوا الأوامر واجتنبوا

النواهي، ولم يتعدوا حدود الله، فأدّوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق الإنسان، ولم يخلّوا بشيء منها، وهذا الوصف العام الجامع المانع هو وسام الشرف وخاتمة البيان.

وبعد ما عدد كتاب الله الأوصاف الرئيسية والمميزة للمؤمنين في أجمل صورهم، وأكمل أحوالهم، عقب على ذلك بتجديد البشرى لهم مرة أخرى، هبة من الله وإكراماً، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويا سعد من حلت بساحته البشرى من الله، وأحلّ عليه رضوان الله. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وقوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بثوابي إذا كانوا على هذه الصفة... فأما نفس لا تكون هكذا ولا تتحلّى بهذه الحلى، فلا يُبذل فيها فلس، فكيف الجنة؟».

وفي هذا الربع نفسه تولى كتاب الله الحديث عن قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا، وعن توبتهم التي سارت بذكرها الركبان، وسجّلها الوحي بأحرف من نور في سور القرآن، حتى سميت بها هذه السورة الكريمة (سورة التوبة).

وإلى هذه القصة يشير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا، حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وخلاصة هذه القصة أن رسول الله ﷺ ذهب إلى غزوة تبوك حين طابت الثمار، وبَرَدَتِ الظلال، وخرج في حر شديد، وهي

«العُسْرَةَ» التي افتضح فيها الناس، وكان ممن تخلف عنه ثلاثة: كعب بن مالك، ومُرارة بن الرِّبيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فلما قفل رسول الله من غزوة تبوك دخل إلى المسجد، فجاء من تخلف عنه يعتذرون إليه وهم ثمانون رجلاً، فقبل النبي ظاهر حالهم ووكل سرائرهم إلى الله، إلا هؤلاء الثلاثة فإنهم لم يعتذروا، وصدقوا رسول الله ﷺ حقيقة أمرهم، وكان مما قاله له أحدهم، وهو كعب بن مالك: «يا رسول الله لو جلست عند غيرك لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لكني والله لقد علمتُ لئن حدثتكَ بحديث كذب ترضى به عني لِيُوشَكَنَّ اللهُ أن يُسَخِطَكَ عليَّ، ولئن حدثتكَ بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عُقْبَى ذلك من الله عز وجل، والله يا رسول الله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك». فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». قال كعب بن مالك وهو يروي تمام القصة كما وردت في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنَّة: «فنهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشدَّ القوم وأجلدهم، فكنت أشهدُ الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني منهم أحد، وآتي رسولَ الله وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأسلم عليه وأقول في نفسي: أحرَّكَ رسول الله شفَّتيه بردَّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت

على صلاتي (وهو جالس) نظر إليّ، فإذا التفتُ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ هجرُ المسلمين.. ومضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسولِ رسولِ الله يأتيني يقول: «يأمرُك رسولُ الله أن تعتزل امرأتك» فقلت له: «أطلقها أم ماذا أفعل؟» فقال: «بل اعتزلها ولا تقربها». وأرسل رسول الله إلى صاحبي بمثل ذلك... فلبثنا على هذا الحال عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا، ثم صلّيت صلاة الصبح صباح الخميس ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى (في هذه الآية) قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: «أبشر يا كعب بن مالك، أبشر» فخررت ساجداً لله، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأعلن رسول الله ﷺ توبة الله علينا، وأعلم بها المسلمين حين صلّى الفجر، فأقبل الناس يبشروننا، ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته له ثوبيّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤمُّ رسول الله - أي أقصده - وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤني بتوبة الله، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس في المسجد والناس حوله، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره - وكان كعب لا ينساها لطلحة - فلما سلّمت على رسول الله قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». فقلت: أمين عندك

يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، حَتَّى يُعْرِفَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: «إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ». فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». فَقُلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: «إِنَّمَا نَجَانِي اللَّهُ بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صَدَقًا مَا بَقِيتُ، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كَذِبَةً مِنْذُ قُلْتَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا بَقِيَ».

فهذه هي قصة «الثلاثة الذين خُلفوا» كما حكاها كعب بن مالك أحد الثلاثة، ورواها البخاري ومسلم في الصحيحين وغيرهما من أئمة الحديث، وهي أحسن تفسير لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي خلفوا عن بقية المعتذرين الذين حلفوا واعتذروا، لأن هؤلاء الثلاثة فضلوا الصّدق على الحلف، فلم يحلفوا ولم يعتذروا وصدّقوا الله ورسوله، وقضوا خمسين ليلة مهجورين من الرسول والمؤمنين وهم صابرون ينتظرون فرج الله، وعفوه عنهم، وقبول توبتهم، إلى أن نزل بقبول توبتهم الوحي من عند الله ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي مع سعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وفيه دليل على أن للإمام أن يعاقب

المذنب بتحريم كلامه على الناس أدباً له».

وتنويهاً بصدق الثلاثة الذين خلفوا، والتزامهم للصدق دون

انحراف ولا تراجع ختم كتاب الله الحديث عن قصتهم بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ
الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۗ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنُ
يَقُولُ أَيْدِيكُمْ زَادَتْهُ هَدًىءَ إِيمَانًا فَآمَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٣٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ
وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٣٥﴾ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ
فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا
صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٧﴾

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ إِذْ جَاءَكَ الْكِتَابُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَن أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ
هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ
شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ
الْمَخْلُوقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ
بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ
نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا

خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ نَفَّصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
 إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
 وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا
 غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
 بِأَيْمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾
 دَعْوِيهِمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ
 وَءَاخِرُ دَعْوِيهِمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة التوبة المدنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله تعالى في سورة يونس المكية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَعَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

في هذا الربع تنتهي سورة التوبة المدنية، وتبتدىء سورة يونس المكية، والجزء الأخير من سورة التوبة يخص بالذكر موضوع الجهاد في سبيل الله مرة أخرى، ويتعرض بالتدقيق والتفصيل لوصف الحالة التي يكون عليها المنافقون من الانفعال والقلق والاضطراب، كلما نزلت أمامهم سورة من سور القرآن، ويلقي بالخصوص الأضواء على (الخُلُق العظيم) الذي كان عليه الرسول الكريم، مما أعطاه مكانة خاصة بين الأنبياء والرسول

- فضلاً عن دونهم - وجعله أهلاً لكل إجلال وتكريم .

أما الجزء الأول من سورة يونس فهو يتضمن تنويهاً بآيات الذكر الحكيم، وتنبيهاً إلى أن إرسال الرسل إلى الناس من نفس البشر، لا من بين الملائكة، أمر لا غرابة فيه، بل هو الأمر المعقول والمنتظر، كما يتضمن تبشيراً للمومنين بمكانتهم الخاصة عند الله، وتفصيلاً لنشأة الكون الواسع، وما يتعاقب عليه من مظاهر وأطوار، وتوجيهاً إلى التدبر في آيات الله، ومن بينها تعاقب الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار، ووصفاً لما ينتهي إليه من يرجو لقاء الله من حسن المآب، وما ينتهي إليه من لا يرجو ذلك اللقاء ولا يحسب له أي حساب .

ولنتقف الآن وقفة قصيرة عند بعض الآيات الواردة في هذا الربع بقدر ما يسمح به الوقت المخصص لهذه الحصة .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وهذه الآية سبقتها آية أخرى في نفس الموضوع، وفي نفس هذه السورة سورة التوبة، وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

غير أنه يوجد بين هاتين الآيتين فرق فهم، ذلك أن الآية السابقة أمرت بجهاد الكفار عموماً القريب منهم والبعيد، بينما الآية الواردة في هذا الربع ترشد المومنين إلى نوع خاص من الكفار الذين يجب البدء بقتالهم بالخصوص، وهؤلاء الكفار الذين

توجه إليهم الأنظار هم الذين توجد مراكز نفوذهم السياسي وقواعدهم العسكرية قريبة كل القرب من عاصمة الإسلام وقاعدته الأولى (المدينة المنورة)، ممن يتربصون بالإسلام الدوائر، إذ في وجودهم بالقرب من عاصمة الإسلام خطر مباشر لا يمكن تجاهله بحال، وفيه نوع من الحصار المضروب على الإسلام، حتى لا يتسرب إلى خارج الجزيرة العربية، وينتشر فيما وراءها. وبما أن رسالة الإسلام رسالة عامة إلى كافة البشر، كان من أوجب الواجبات عليه أن يهدم السدود، ويخترق الحدود، ليشق طريقه إلى الشعوب والأمم، آمناً من الفتنة والاضطهاد، داعياً إلى إقامة دعائم الصلاح والرشاد، عاملاً على دك حصون الظلم والفساد، وذلك ما دشّنه رسول الله ﷺ بنفسه في غزوة تبوك آخر حياته قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة ما خلاصته بإيجاز: «أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب، إلى حوزة الإسلام. ولهذا بدأ رسول الله بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام، لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك ثم رجع سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق... فوطد

القواعد، وثبت الدعائم، وردّ شارد الدين وهو راغم... ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد... وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب... أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً... ثم لما مات شهيداً، وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان... شهيد الدار، فكسى الإسلام حلّة سابعة، وأمدّ في سائر الأقاليم حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها... وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أمر للمؤمنين الذين يشتبكون مع أعدائهم بأن يواجهوا المعركة بما يلزم لها من قوة القلب، وضبط النفس، وتقدير المصلحة العليا، وأن يقوموا بواجب الجهاد كاملاً غير منقوص، حتى يُمكنوا بجهادهم للإسلام، ويفرضوا هيئته على الأنام، ويرفعوا عنه الحصار المضروب من حوله، ويشقوا له طريق العيش في سلام. وبنفس المعنى سبق قوله تعالى في هذه السورة وكما سيأتي في سورة التحريم: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ

عَلَيْهِمْ ﴿ [التوبة : ٧٣ - التحريم : ٩] .

وكلمة (الغلظة) إذن لا تعني القسوة، ومجاوزة الحدود، بقدر ما تعني الشجاعة في القتال، وضبط الأعصاب عند مواجهة العدو، فالجهاد الإسلامي كان ولا يزال هو المثل الأعلى للحرب الإنسانية في أهدافها، والأخلاقية في تصرفاتها، فلا تمثيل بالقتلى، ولا قتل للجرحى، ولا تعذيب للأسرى، ولا تحريق للزرع، ولا تضييع للضَّرْع، ولا اعتداء على الأطفال والنساء والعَجْزة، ولا إهانة للرهبان في دياراتهم وصوامعهم، ولا حرب مع البعيد عن ميدان المعركة من المدنيين، وإنما الحرب منحصرة كلها في جبهة القتال، ومع حاملي السلاح المقاتلين، وأعاونهم المساعدين، فهذا هو الجهاد الإسلامي الصحيح.

وقوله تعالى في نفس هذا السياق ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى أن جهاد المسلمين لا يؤتي ثمرته المرجوة إلا إذا كان القائمون به من الجند، والمشرفون عليه من القادة، معتصمين بتقوى الله قولاً وعملاً، سراً وجهراً. أما العصاة المذنبون فإنهم يفقدون أهم سلاح في المعركة، وهو سلاح التقوى المنبثقة من الإيمان، وما تستتبعه من رضا الله ومدده القوي ولطفه الخفي. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسب ذلك، وبقدر ما فيه من ولاية لله».

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

مَا عَيْتُمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ امتنان من الله تعالى على عباده المومنين، وتذكير لهم بخصائص الدعوة الإسلامية التي أوحى الله بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وما جاءت به هذه الدعوة السماوية من يسر وسماحة وبُعد عن الحرج والعنت، وحرص شديد على هداية الخلق، والأخذ بيدهم إلى طريق الفوز والسعادة دنيا وأخرى، ونوّه كتاب الله بما امتلأ به قلب الرسول الأعظم من العطف على أمته والاهتمام بمصيرها، وبما تحمّله من المتاعب في سبيل تبليغ الرسالة إليها وخفض جناحه لها.

ثم عقب على ذلك بما يفيد أنه إذا ضلّ المسلمون طريقهم، وهجروا كتابهم، وأهملوا شريعتهم، وعادوا إلى الجاهلية الأولى، مُؤَلِّين الأديبار، فإن رسول الله ﷺ يتبرأ من أعمالهم، ويكلّمهم إلى أنفسهم، ولا يغني عنهم من الله شيئاً، وذلك قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ - أي أدبروا ورجعوا عن التمسك بالإسلام وشريعته - ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبُّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقوله تعالى في آية الثالثة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ، فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧].

وُخْتِمَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ بِتَمَجِيدِ اللَّهِ وَالشَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ،
تَلْقِينَا لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وهنا نقف أمام سورة يونس المكية، وأطلق عليها هذا
الاسم، بمناسبة ورود آية فيها عن قوم يونس إذ قال تعالى:
﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ - اٰمَنَتْ فَنَفَعَهَا اِيْمَانُهَا اِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوْا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنٰهُمْ اِلَى
حِيْنٍ﴾.

وسبق ذكر يونس عليه السلام في سورة النساء ﴿وَعِيسَى
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾.

وفي سورة الانعام ﴿وَاسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلًّا
فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ومن المناسبات الطريفة الموجودة بين نهاية سورة التوبة
وبداية سورة يونس أنهما يشتركان معاً في الحديث عن خاتم
الأنبياء والمرسلين، وتوجيه الأنظار إلى الرسالة التي فضله الله بها
على العالمين.

فمن قوله تعالى في خاتمة سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١٢٨]، نتقل إلى قوله تعالى في فاتحة سورة
يونس: ﴿الر، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ، أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ
أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿١٠٠﴾ . ومضى الحديث في بقية هذا الربع يقارن بين الكافرين والمومنين، وما يكونون عليه من أحوال في الدنيا، وما ينتهون إليه من مآل في الآخرة، إلى أن جاء الوحي بتفصيل هذه البشرى التي ابتدأت بها السورة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَأَخْرُجُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ .

الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

وَلَوْ
بُجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَجْمَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ
أَجَلُهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا
أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ
مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذْ أَنْبَأْنَا عَلَيْهِمْ وَءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آيَاتٍ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا
يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ وَمِن تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ

إِلَىٰ إِيَّائِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْهُ وَعَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ ۗ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ اتَّبِعُوا اللَّهَ عَالِمًا
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾
وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم
مَكْرٌ فِي سَاءِ آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا
تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ
فِي الْفُلِكِ وَجَرَبََنَّ بَيْهَمٍ يَرْبِجُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِمْ

دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ ابْجِتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿١٢٧﴾ فَلَمَّا أَبْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
 الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنبِيَهَا
 أَمْرَنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَا مَحْصِدًا كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ
 كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ﴿١٢٩﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ
 دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٠﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

من شأن الإنسان العادي وغير المهذب، إذا أصابه الضجر وأثاره الغضب، أن يدعو على نفسه وأهله وولده وماله بدعاء الشر، ومن شأنه أيضاً إذا هدأت أعصابه واطمأن قلبه أن يدعو لنفسه وأهله وولده بدعاء الخير، غير أن الله تعالى الذي هو مجيب الدعاء، والذي يرتبط بإرادته المطلقة مصير دعاء الداعين، إن شاء أجابه، وإن شاء لم يجبه، تكرم على خلقه، رحمة بهم، وإحساناً إليهم، في فترات ضعفهم، وهيجان غضبهم، بأن لا يجيب دعاءهم إذا كان ذلك الدعاء يتضمن شراً، وصادراً عن مجرد الغضب والضجر، لأن في إجابة هذا النوع من الدعاء هلاكاً لهم محققاً.

وهذه المنة الربانية التي من الله بها على عباده، بعدم إجابته دعاء الشر، هي التي تتضمنها أول آية في هذا الربع، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أي لو أن الله استجاب للناس كلما دعوا دعاء الشر لأهلكهم. قال مجاهد في تفسير هذه الآية: «دعاء الشر هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه» فلو يعجل الله لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم. قال ﷺ: «لا يدعون أحدكم على نفسه، فربما صادف ساعة لا يسأل الله فيها أحدٌ إلا أعطاه إياها». وروى البزار في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدعوا على أنفسكم. لا تدعوا على أولادكم. لا تدعوا على أموالكم. لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم» وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. [الاسراء: ١١].

أما دعوة المظلوم على ظالمه ولو كانت دعوة شر على الظالم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، كما جاء في الحديث الشريف.

وانتقل كتاب الله إلى وصف الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان عندما يصاب بمرض أو نكبة أو كربة، وما يبدو عليه من القلق والاضطراب، والضعف والاستكانة، والالتجاء إلى الله التجاء العاجز المضطر، حتى إذا ما استرجع صحته، وزالت عنه آثار النكبة، وانكشفت عن ساحته الكربة، نسي ربه نسياناً تاماً،

وعاد إلى طغيانه وإسرافه على أقوى وأشد ما يكون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ، أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي أنه يلجأ في الدعاء ويكثر منه في جميع الأحوال وجميع الأوضاع التي يكون عليها جسمه، ليلاً ونهاراً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فُذُو دُعَائِهِ عَرِضٌ﴾ [فصلت: ٥١] أي دعاء كثير لا ينتهي. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي أعرض عن الله وانصرف عن بابه، وقطع التعلق بجميع أسبابه. ﴿كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

والمراد بالإسراف هنا الإسراف في ارتكاب الذنوب، والإقبال على المعاصي بنهم وشهية وضراوة، حتى يصبح المذنب متبلداً للاحساس، فاقداً للشعور، مطبوعاً على قلبه، مغضوباً عليه من ربه.

وفي نفس هذا الربع وصف كتاب الله صورة ثانية من صور الضعف البشري والروح الانتهازية الهزيلة عند توقع النكبة أو عند حلولها، ثم ما يتلوها بعد النجاة منها من بغي وعدوان، وإعراض وطمغيان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَيْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. ومثل هذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَيَّ، فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى
الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿ [الإسراء: ٦٧].

وهذه الصور التي وصفها كتاب الله تنطبق كل الانطباق على
كثير من الناس في القديم والحديث، ولا سيما أولئك المذبذبين
الذين لا إيمان لهم، ولا صبر عندهم، من ضعفاء النفوس
الغافلين، والخياري التائهيين.

أما الذين رزقهم الله الإيمان والصبر فصَلَّتْهُمُ بِاللَّهِ قَائِمَةٌ عَلَى
الدوام، لا فرق عندهم بين السراء والضراء، والشدة والرخاء، وقد
عَبَّرَ عَنْ حَالَتِهِمْ أَصْدَقُ تَعْبِيرٍ نَصُّ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ
الْمَرْوِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ
لَهُ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ،
وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا
لِلْمُؤْمِنِ».

ومن أهم ما تناوله هذا الربع موضوع القرآن الكريم، وما
أثاره المشركون حوله من شبهات باطلة، وقاموا به من تحديات
شاملة، مما تصدى له كتاب الله بالرد والإبطال، ولم يبق بعده لقائل
أَيِّ مَقَالٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آيَاتِ بَقْرَاءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ، قُلْ مَا يَكُونُ
لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، إِنِّي
أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ
عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ، أَفَلَا

تَعْقِلُونَ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ،
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤﴾.

وهكذا بينت الآيات الكريمة أن الذكر الحكيم والقرآن الكريم إنما هو كتابُ الله المطابق لما في اللوح المحفوظ، منه بدأ وإليه يعود، وليس كتابَ رسوله حتى يكون للرسول فيه دخل من قريب أو بعيد، كما بينت الآيات الكريمة أن الرسول إنما يتلقى الوحي عن الله في الوقت الذي يريد الله أن يوحِيَ إليه، وأن الوحي الذي يتلقاه من عند الله لا يملك له الرسول تبديلاً ولا تغييراً، وأن دور الرسول الوحيد هو أن يبلغه إلى الناس كما أنزل، وأن تلاوة الرسول للقرآن على الناس إنما هي بأمر الله وتيسيره، ولولا اصطفاؤه للرسالة وتيسيره لها لما استطاع أن يتخطى المستوى الذي كان عليه قبلها، فقد قضى الرسول بين ظهرائي قومه أربعين سنة، دون أن ينبس من هذا النوع المعجز بينت شفة، حتى جاءه الله بالرسالة، وأكرمه بالوحي، وأنزل عليه القرآن، وكلفه بالتبليغ والبيان، فكان ما كان، مما تناقلته الركبان، واستدار له الزمان، ﴿ أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١، ٢، ٣، ٤، ٥]، ﴿ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمّل: ٤] .

وتحدث كتاب الله في هذا الربع عن استخلافه لخلقه في هذه الأرض، ابتلاءً لهم واختباراً، حتى يتجلى في تصرفاتهم ما

هم عليه من رُشد أو سَفَه، وحتى يبرز في أعمالهم ما هم عليه من شكر الله على نعمة الاستخلاف، أو كفر بها وتجنُّ عليها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وبين كتاب الله عاقبة الانحراف والخيانة إذا لم يحسن الإنسان التصرف فيما استُخلف فيه وخان الأمانة، وذلك في عدة آيات من هذا الربع، منبهاً إلى أن سنة الله في المستخلفين الظالمين جرت على أن يستدرجهم ويمهلهم، ويفتح أبواب نعمه على مصاريعها في وجوههم، حتى إذا ما ظنوا أن قوتهم لا تعادلها قوة، وأن قدرتهم لا تعجزها قدرة، وأنهم ليسوا بمؤاخذين ولا معذَّبين، فوجئوا بعذاب الله فأخذوا على غرّة، في الوقت الذي لم يكونوا ينتظرون العذاب بالمرّة، وهكذا يأخذهم الله بعدله أخذاً وبيلاً، ولا يظلمون فتيلاً، فقال تعالى: ﴿فَنَنْذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أنه سبحانه يقابل مكرهم بما يبطل مفعوله، ويمحو أثره ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أْتَيْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ، كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وختم هذا الربع بالدعوة إلى دار السلام، التي لا باب لها
ولا مفتاح إلا التمسك بمبادئ الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ
يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين
في المصحف الكريم

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ
 قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾
 وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ
 ذِلَّةٌ ۗ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا
 مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾
 وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ
 أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ
 إِتَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۗ إِنْ كُنَّا
 عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ
 وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾
 قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
 وَمَنْ يُدِيرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ فذالك
 اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَ تُصِرُّونَ ﴿٣٧﴾
 كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾
 قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، قُلْ اللَّهُ يَبْدُو
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
 يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
 أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٠﴾
 وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ
 اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ
 لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا
 بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٤٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَهُم تَأْوِيلُهُ
 كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ

أَعْلَمَ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ وَ
 أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا
 لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ
 أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً
 مِّنَ النَّهَارِ يَنْعَارِفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا
 كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا نُرِيَّتكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ وَأَوْنُوْفَيْتَكَ
 فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
 رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

في نهاية الربع الماضي وجه كتاب الله دعوة عامة إلى كافة الأنام، لاستقبالهم في دار السلام، وهي جنة النعيم، التي لا لغو فيها ولا تأثيم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾. والمغزى الذي يرمي إليه كتاب الله من وراء هذه الدعوة العامة الكريمة أن يكفي الناس أنفسهم مؤونة التكلف في البحث عن منهج نافع وصالح للحياة دون جدوى، وأن يتقبلوا بكلتا اليدين، منهج ربهم الذي وضعه لحياتهم، ورسمه لسعادتهم، عن علم تام بمصالحهم وحاجياتهم، وفي انسجام تام مع طاقاتهم وملكاتهم، وبذلك يختصرون الطريق إلى الحياة السعيدة في الدنيا، والحياة السعيدة في الآخرة.

وبعدما وجه كتاب الله هذه الدعوة العامة التي لم يميز فيها طائفة عن أخرى، ولا جيلاً عن جيل، ولا سلالة عن سلالة، بين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلبونها ويستجيون لها، ويلتزمون السير بمقتضى صراط الله، ومنهجه في الحياة، هم الذين يهتدون ولا يضلُّون، ويسيرون سِيراً حثيثاً إلى دار السلام، ثم يصلون إليها في أمن وسلام، فقال تعالى ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وفي بداية هذا الربع مضى كتاب الله في نفس السياق يتم الحديث عن الذين لبوا دعوة الله، واستجابوا لما يحييهم حياة باقية، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .
والذين أحسنوا هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، نية واعتقاداً، قولاً وعملاً، فكانت نياتهم حسنة، ومعتقداتهم حسنة، وأعمالهم حسنة، وأقوالهم حسنة، وهم قدوة حسنة في الهداية والاهتداء، وعنصر خير وصلاح في الظاهر والباطن. (والْحُسْنَى) التي بشرهم الله بها هي أحسن الجزاء وأعلاه درجة عند الله. (والزيادة) هي مضاعفة ثواب الحسنة من عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ورضوانُ الله الأكبر. (والقَتَر) هو ما يعلو وجوه الفَجْرَةِ والكَفْرَةِ من اكفهار الوجه وكَدَّرَ اللون في عرصات المحشر، من شدة هول الموقف، وما فيه من كرب وحزن وضيق. (والذلة) هي ما يلحق الفجار والكفار من هوان وصغار في تلك الدار، جزاء ما كانوا عليه من الطغيان والاستكبار في هذه الدار. وكما تعهد

كتاب الله للذين أحسنوا بأن لا يرهق وجوههم قترًا ولا ذلة، تعهد لهم في آيات أخرى بنضارة الوجوه وفرح القلوب، فقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَوْقِيهِمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقِيَهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وأشار كتاب الله إلى ما سيكون يوم القيامة من مناقشة وحوار بين المشركين وشركائهم يوم القيامة، حيث يتبرأ أولئك الشركاء من الذين أشركوهم بالله فعبدوهم، وينفضون أيديهم منهم، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِينَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلِيَهُمْ الْحَقُّ﴾ تنبيه لجميع عباده إلى أنهم مهما فرّوا وهربوا، وتحايّلوا وتلاعبوا، فلا ملجأ لهم في نهاية المطاف إلا إليه سبحانه، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يحاسب ويعاقب، والخلق كلهم حيثما كانوا في قبضته، ورهن مشيئته وقدرته، ولذلك يجب عليهم أن يعبدوه ويطيعوه، وأن يحسبوا لسخطه ورضاه كل حساب ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ إشارة إلى ما عليه أكثر الخلق من الكسل والتهاون في البحث عن الحق، إذ تمر بهم مرّ السحاب الأعوام والسنون، وهم غارقون في أوحال الأوهام والظنون، دون أن

يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة: الحقيقة الدينية، والحقيقة الكونية، والحقيقة النفسية، وكل هذه الحقائق مفصلة مبينة في آيات الذكر الحكيم، بأسلوب واضح ميسر للفهم والإدراك لكل ذي عقل سليم.

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى الحديث مرة أخرى عن القرآن الكريم وما احتوى عليه من حِكم وأسرار، وتحدي بلغاء العرب من المشركين للمرة الثالثة والأخيرة أن يأتوا ولو بسورة مثله، بعدما تحدّاهم قبل ذلك للمرة الثانية أن يأتوا بعشر سور مثله ﴿ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴾ [هود: ١٣] وبعد ما تحدّاهم في المرة الأولى أن يأتوا بمثله كاملاً ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰى اَنْ يَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْءٰنِ لَا يٰتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظٰهِرًا ﴾ [الاسراء: ٨٨] فعجزوا أمام جميع هذه التحديات، لا في المقام الأول، ولا في المقام الثاني، ولا في المقام الأخير، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْءٰنُ اَنْ يُفْتَرٰى مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ، وَلٰكِنْ تَصْدِيْقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي تصديق ما سبقه من الكتب المنزلة في أصل عقيدة التوحيد والدعوة إلى الخير والبر. ﴿ وَتَفْصِيْلَ الْكِتٰبِ لَا رَيْبَ فِيْهِ مِنْ رَّبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴾ أي تفصيل الحلال والحرام، وتبيين وسائل الخير ومناهج البر، بما يناسب سن الرُّشد الذي بلغت إليه البشرية، وبما يتفق مع ما أصبحت عليه من نضج واستعداد لتلقي آخر رسالة إلهية أرسلها الله إلى الناس. ﴿ اَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرِيْهِ، قُلْ فَاتُوْا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، إِذْ جَاءَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ بِمَا لَمْ يَعْتَادُوهُ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي وَالْأَسَالِيبِ، وَبِمَا لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالشَّعَائِرِ وَالشَّرَائِعِ، فَتَنَكَّرُوا لَهُ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ، جَهْلًا مِنْهُمْ، وَنَفُورًا عَنْ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أَي أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْبَشَائِرِ وَالْإِنذَارَاتِ الَّتِي تَضْمَنُهَا كِتَابُ اللَّهِ كَانَتْ وَقْتًا لَمْ تَبْرُزْ بَعْدَ إِلَى حَيْزِ الْوُجُودِ، فَاسْتَعْجَلُوا ظَهُورَهَا، وَطَالَ عَلَيْهِمْ أَمَدُ انْتِظَارِهَا، وَدَاخَلَهُمُ الشُّكُّ فِي صِحَّتِهَا، فَظَنُّوا بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وها نحن في هذا القرن الرابع عشر الهجري قد رأينا من تأويل آياته البينات الشيء الكثير، وستحمل القرون القادمة في طياتها من تأويل آياته وتفسير معجزاته ما هو أكثر وأكبر وأبهر، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

وختم هذا الربع بتذكير ما بعده تذكير، وتحذير ما فوقه تحذير، فَحَوَاهُ أَنْ كُلَّ أُمَّةٍ سَتُعْرَضُ أَمَامَ اللَّهِ بِمَحْضَرِ رَسُولِهَا، لِيَكُونَ شَاهِدًا لَهَا بِمَا بَلَغَ إِلَيْهَا مِنْ رِسَالَةٍ، وَشَاهِدًا عَلَيْهَا فِيمَا قَامَتْ بِهِ حِيَالُ تِلْكَ الرِّسَالَةِ، مِنْ طَاعَةِ أَوْ عَصِيَانِ، وَتَطْبِيقِ أَوْ نِسْيَانِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين
في المصحف الكريم

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ
 أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٦﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَيْنَاكُمْ عَذَابَهُ، بَيْتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ
 مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلَا نَزَّ وَوَقَدْ
 كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
 الْخُلْدِ هَلْ تُنْجِرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ
 أَحَقُّ هُوَ قُلِ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٠﴾
 وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ
 وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
 وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾ إِلَّا إِنْ لَبَّيْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ

بِحُجَّةٍ، وَبُيُتٌ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُرُ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا
هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ
رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ - اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ
عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ
قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ
نُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾
إِنَّا إِنْ أَوْلَيْنَا اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يُحْزِنُكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا

إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ
 الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۗ إِنَّ يَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ
 لَكُمْ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ابْتِئْزِلْنَا اللَّهُ
 وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۗ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ ۗ إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ۗ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
 مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
 لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعُوهُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
 نُذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ، مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

في نهاية الربع الماضي وصفت الآيات الكريمة مشهد الخليفة بكافة أممها وشعوبها، وهي تُعَرِّضُ أمام الله، الواحدة تلو الأخرى، كل أمة بمحضر رسولها، شاهداً لها أو عليها، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وفي بداية هذا الربع تذكير من الله لرسوله، وتلقين له وللمؤمنين، أن الرسول على جلاله قدره عند الله، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن يملك لغيره من أفراد أمته نفعاً أو

ضراً، وأن الرسول على شدة قربه من الله خاضع كل الخضوع لمشيئة الله المطلقة، لا يفلت منها في شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. ومغزى هذه الآية الكريمة تذكير المومنين بأنه لا ينبغي لهم أن يتركوا «الوسيلة» الشرعية إلى رضا الله والقرب منه، وهي اتباع الأوامر واجتناب النواهي، والتزام التقوى، والتمسك بالاستقامة سراً وعلناً، وأنه لا ينبغي لهم أن يتكاسلوا عن الأعمال الصالحة، ويتكلوا كل الاتكال على مجرد رحمة الله وعفوه، وما يتفرع عنهما من شفاعة في العصاة والمذنبين بعد التعذيب والتأديب، وإنه لأكرم للمومن، وأوفق بإيمانه ومحبه لله والرسول - إن كان صادق المحبة لهما - أن يكون من أهل الحُسنى وزيادة، لا من أهل السُوأى، أو من أهل السُوأى وزيادة، فشعار هذا الدين: «اعملوا ولا تتكلوا».

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة دينية وكونية طالما قرررها وكررها، ألا وهي أن الأمم نفسها لها أعمار وأجال كالأفراد، وأن كل أمة لها أجلها الذي تستوفيه إذا لم تبَقْ صالحة للحياة، وأنه إذا حلَّ هذا الأجل لم تبَقْ أمامها أية فرصة للنجاة والخلص، فما على كل أمة تريد البقاء إلا أن تحسن التصرف فيما آتاها الله، وأن تتعد كل البعد عن موجبات سخط الله، وفقاً للرسالة الإلهية التي تلقتها من رسول الله، أما إذا خانت العهد، وأخلفت الوعد، وتصرفت تصرف السفهاء الخائنين، فإنها لا بد أن تقضي نَحْبَهَا، وتدخل في عداد الغابرين.

ودخولها في عداد الغابرين إما أن يكون باستئصالها وإبادتها
بالمرة من خريطة العالم كعاد وثمرود، وغيرهما من شعوب العالم
القديم، وإما أن يكون بالادالة منها وإنزالها إلى درجة العبودية
غيرها، والتبعية الدائمة لسواها، فتصبح ذنباً من الأذنب، ولا
يُحَسَّب لها بين الأمم أي حساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى
هنا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ﴾. أخرج أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال:
«توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها،
فقال قائل: من قلة نحن يومئذ؟ قال: لا بل أنتم يومئذ كثير،
ولكنكم غثاء كثفاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة
منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قيل وما الوهن يا رسول الله؟
قال: حب الدنيا وكرهية الموت».

ومضى كتاب الله يذكر الغافلين بمصير الأمم التي تمردت
قبلهم على حكم الله، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَيْكُمْ
عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ، أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ
ءَامَنْتُمْ بِهِ، ءَأَلَّنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ، ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

ونبه كتاب الله إلى ما يُدَاخِلُ الشاكين من شك وريب في
صدق الدعوة وصدق الداعي، ولا سيما في يوم القيامة بما
يستلزمه من بعث ومعاد، فقال تعالى حكاية عنهم:
﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ؟﴾ أي يستخبرونك هل يوم القيامة
حق، وهل الدين الذي جئت به هو دين الحق؟ ثم لقن الحق

سبحانه وتعالى لرسوله ما يقول: ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ . قال ابن كثير: «وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، وهما قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [الآية: ٣]، وقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [الآية: ٧]. وقوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ مثل قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]، وتأكيداً لنفس المعنى قال تعالى في نفس السياق: ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

ثم عادَ كتاب الله إلى وصف خصائص القرآن العظيم، وما جاء به من هدى للضالين والغافلين، ورحمة للمحرومين والمظلومين، وشفاء للمرضى والمكلومين، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا من جميع السلالات والألوان، فكان نعمة الله الكبرى على بني الإنسان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، قُلْ: بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِفْرَحُوا، هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . وفي نفس هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الاسراء: ٨٢]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤] .

ولا شك أن كتاب الله شفاء لما في النفوس والأرواح من الأمراض الباطنة، وشفاء لما في العقول والأفكار من الشكوك

الكامنة، فهو الترياق المجرب في الخلوات والجلوات، وهو الاكسير الذي لا يماثله إكسير لعلاج جميع الأزمات.

ومن جملة آيات هذا الربع آيات بينات تولى فيها كتاب الله التنويه «بأوليائه» والتعريف بهم وبصفاتهم، حتى يكونوا قدوة صالحة لبقية الناس، فيسلك من يأتي بعدهم نفس الطريق الذي سلكوه، ويبتغي إلى الله نفس الوسيلة التي اختارها الله لهم فاختاروها لأنفسهم، وهي شريعته المنزلة، وحكمته المفصلة، مع التزامها كل الالتزام واتباعها كامل الاتباع، وتفادي كل زيادة عليهما أو ابتداء، منبهاً إلى أن باب الولاية مفتوح في وجه جميع المومنين، وأن مفتاحه الوحيد قريب غير بعيد، ألا وهو الإيمان والتقوى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وكان سائلاً بادر بالسؤال عن أولياء الله من هم؟ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ثم بين كتاب الله ما ينتظر كل مومن اتقى الله وتولاه، وأصبح من أولياء الله، من البشريات والهبات، فقال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. أما البشرى في الحياة الدنيا فهي أن يحييهم الله حياة طيبة، وأن يجعل لهم وداً ومحبة في قلوب خلقه، وأن يعيشوا في كنف رعايته وفي حمى لطفه الخفي. وأما البشرى في الآخرة فهي النعيم المقيم، ورضوان الله الذي لا سخط بعده ولا تأثيم. روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر أنه قال: «يا رسول الله، الرجل يعمل العمل ويحمله الناس عليه ويثنون عليه به. فقال رسول الله ﷺ: «تلك

عاجلُ بشرى المومن».

وأخيراً طبعَ كتابُ الله بخاتم القدرة الأزلية على وعد الله لأوليائه، بأنه وعد نافذ لا يلحقه إخلاف ولا تغيير، فقال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي أن هذا الوعد مُقَرَّرٌ وثابت وكائن لا محالة، بفضل الله وكرمه.

ووعدٌ له هذه القوة وهذا التأكيد من الله تعالى هو أحق الوعود بأن يقال فيه بدءاً وختاماً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمٍ إِنْ كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ
فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً
ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا يُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مَنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً
وَاعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ
عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مَبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰ أُنْقُلُونِ الْحَقَّ لَمَّا جَاءَكُمْ وَأَسْحَرُوا هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهٗٓ أِبَاءَنَا
وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ
السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا
أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِالسَّحَرِ إِلَّا أَنَّهُ سَيَبْطَلُهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءَ أَمْنٍ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ
ءَاٰمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا
عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا

إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَءَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ
 عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتَّىٰ يَرُوْا الْعَذَابَ الْاَلِيْمَ ﴿٨٨﴾

قَالَ قَدْ اٰجِيْبْتِ دَعْوَتِكُمْ اَمَا فَاسْتَقْبِهَآ وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيْلَ
 الَّذِيْنَ لَا يَعْاْمُرُوْنَ ﴿٨٩﴾ وَجَلُوْا زَنَا بَيْنِنَا اِسْرَآءِيْلَ الْبَحْرَ فَاَتَّبَعَهُمْ
 فِرْعَوْنُ وَجُنُوْدُهُۥۗ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ اِذَا اَدْرَكَهُ الْغَرَقُ
 قَالَ ءَاْمَنْتُ اَنْتَۗۗ لَا اِلٰهَ اِلَّا الَّذِيْ ءَاْمَنْتَ بِهٖۗ بَنُوْا اِسْرَآءِيْلَ
 وَاَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴿٩٠﴾ ءَاَلَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
 الْمُفْسِدِيْنَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً
 وَاِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ اٰيٰتِنَا لَغٰفِلُوْنَ ﴿٩٢﴾

الربيع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربيع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكَيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ءَأَلَّنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِنُكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا - آيَتِنَا لَغَفْلُونَ﴾.

في هذا الربيع تناول كتاب الله من بين قصص الأنبياء السابقين قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام، تذكيراً لمشركي قريش ومن في معانهم من الغافلين الضالين، بما آل إليه أمر قوم نوح، وأمر فرعون وملائته، من جرّاء إصرارهم على الباطل، ورفضهم لقبول الرسالة الإلهية رفضاً باتاً، وتحذيراً لهم من أن ينالهم من العذاب ما نال الأمم الغابرة، إذا أصرّوا على رفض الدعوة الإلهية ولم يستجيبوا لله وللرسول.

فمن قصة نوح عليه السلام نبه كتاب الله إلى أن نوحاً بعدما طال إقامة بين قومه، وطال تذكيره لهم دون جدوى دعاهم إلى اتخاذ موقف صريح وحاسم تجاه الدعوة التي جاءهم بها، وأشعرهم بأنه لا ينبغي لهم الاستمرار على التردد والغموض، فإما أن يعلنوا قبول دعوته نهائياً، على أساس أن دعوته حق وصدق، وإما أن يعلنوا رفضها بالمرة، ويتحملوا جميع النتائج الناشئة عن وقوفهم في وجهها، وأخبرهم نوح عليه السلام أنه لا يتهيأ أي موقف يتخذونه ضده، فهو متوكل على الله، معتصم بحبله، ممثلاً لأمره، وأكد لهم أنه لا يرمي من وراء دعوتهم إلى الله إلى أي مَعْنَم مادي أو فائدة شخصية، بل إن كل همه منحصر في هدايتهم إلى الله تعالى، وكلُّ أمله معلق على ثواب الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا اللَّهَ إِن كَانَ كُبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي إقامة بين أظهركم ﴿وَتَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا تتركوا أمركم في التباس وغموض، بل افصلوا حالكم معي ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي رفضتم دعوة الله ولم تقبلوا طاعته ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي انني لم أطلب منكم مقابل نصحي أي عوض من أي نوع كان، بل هو نصح خالص لله ولكم ﴿إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى هنا على لسان نوح ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يؤكد الحقيقة الدينية والتاريخية الثابتة، وهي أن جميع الأنبياء والرسل قد بعثهم الله إلى عباده بنفس الدعوة،

وبنفس العقيدة، والمراد «بالدعوة» الدعوة إلى الخير، و«بالعقيدة» عقيدة التوحيد، وهذه الدعوة وهذه العقيدة تتضمنهما معاً كلمة «الإسلام» التي هي شعار دين الحق الوحيد المنزل من عند الله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ومصدراً لهذه الحقيقة ها هو كتاب الله يحكي لنا على لسان نوح: ﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ويحكي لنا على لسان إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ويحكي لنا على لسان يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ - اتَّيَّنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ويحكي لنا على لسان موسى: ﴿يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

ويحكي لنا عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

ويحكي لنا على لسان حواربي عيسى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ - امْنُوا بِي وَبِرَسُولِي، قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

ويحكي لنا على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين المسلم الأول في هذه الأمة: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الانعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولعل من البديهي أن تكون عقيدة الإسلام واحدة ودعوته واحدة، رغماً عن تباعد الأيام وتطاول القرون، وتعدد الأنبياء وكثرة الرسل، ما دام منبع الإسلام الأول والأخير منبعاً وحيداً وواحد، لا يتعدد ولا يتبدل، ألا وهو الوحي الإلهي الصادر عن الله تعالى الواحد الأحد، خالق الكون ومدبر الأمر، الذي لا تبديل لكلماته، وكلماته كلها صدق وعدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الانعام: ١١٥].

وبين كتاب الله للتذكير والتحذير مصير المصيرين على الباطل من قوم نوح، حيث أغرقهم وأبادهم بالمرّة، ومصير الذين استجابوا لله ولرسوله، حيث نجّاهم مع نبيهم نوح من الغرق، فكانت نجاتهم مزدوجة: نجّاهم من الغرق في بحر الضلال في البداية، ونجّاهم من الغرق في بحر الوبال في النهاية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي نجّينا نوحاً ونجّينا من آمن به وأصبح على دينه «والمراء في ميزانه أتباعه»، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً﴾ أي جعلنا الذين آمنوا بنوح مستخلفين في الأرض، بدلاً ممن كذبوه فلم يعودوا أهلاً للاستخلاف ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وبه كتاب الله إلى أن الحكمة في ذكر قصة نوح وما مثلها

إنما هي استخلاص العبرة، وضرب المثل بالواقع المحسوس، فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ﴾. والخطاب هنا وإن كان مُوجَّهًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليطمئن إلى وعد الله، وإلى أن الله سينجي المومنين، وسيهلك المكذبين، هو مُوجَّه أيضاً إلى مشركي قريش، وإلى كل من يسلك مسلكهم في التكذيب والعناد، والغفلة عن سلوك طريق الرشاد، ليقفوا بأن مصيرهم - إذا أصرّوا على ما هم عليه - هو الهلاك المحقق والعذاب الأليم، إذ (ما جرى على المثل يجري على المماثل).

وتحدث كتاب الله عن أفواج الرسل التي جاءت بعد نوح عليه السلام، وما جاء به أولئك الرسل إلى أقوامهم من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، إلا أن أقوامهم بادروا إلى تكذيبهم، وأصرّوا على موقفهم، ورغماً عن مرور الأيام واستمرار الدعوة دون انقطاع، فإنهم لم يتراجعوا عن موقفهم قلاماً ظفراً، عناداً وإصراراً، وتعصباً واستكباراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي رفضوا أن يؤمنوا أخيراً بما كذبوا به أولاً، فأهلكهم الله، عقاباً لهم، وتحذيراً لمن بعدهم، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ [الاسراء: ١٧]﴾. ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي وهكذا يقع للمكذبين الذين يأتون من بعدهم، إذ يسلكون نفس السبيل الذي سلكه أسلافهم من المكذبين الأولين، فهم في الحقيقة حزب واحد، ويجمعهم رأي واحد، هو الاعتقاد الفاسد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة موسى مع فرعون، وهذه القصة تأتي بصفة خاصة في عدة سور من القرآن الكريم، لِحِكْمِ إلهية في ذلك، ولعل من جملة هذه الحِكْمِ تذكير المسلمين باستمرار، بما مر به بنو إسرائيل من التقلبات والأطوار، وما أوقعوا فيه العالم من فساد وإباحية واستهتار، وتوجيه أنظار المسلمين وغيرهم، إلى وجوب الحذر من هذا العنصر الناقم على غيره، لما فيه من الأضرار والأخطار.

والمهم من قصة موسى مع فرعون في هذا السياق هو تعريف المسلمين بأن السر في هلاك فرعون وقومه هو ما كان عليه فرعون من كِبَرٍ واستعلاء، وما كان عليه هو وقومه من ظلم وإجرام، وما حاولوه من إخفاء الحق عن طريق السحر والشعوذة، مما جعلهم في عداد الهالكين الخاسرين، وأبقى قصتهم عبرة للأولين والآخرين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ، قَالَ مُوسَى اتَّقُوا اللَّهَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا؟﴾. كما يشير إلى نفس المعنى قوله تعالى في نفس هذا الربع: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

ويبين كتاب الله ما أدلى به فرعون وقومه من الأعذار المنتحلة، والمبررات المفتعلة، لرفض الدعو الإلهية، وهذه الأعذار والمبررات تتلخص في أن الدعوة التي جاء بها موسى من عند الله إنما ترمي إلى قلب نظام الدولة، والاستيلاء على مقاليد

الحكم في مصر الفرعونية، وإذن فهي دعوة تدمير وتخريب، لا تستحق سوى الرفض والمقاومة، ولا يستحق أصحابها سوى الاضطهاد والتعذيب، وهذا الموقف الفرعوني هو نفس الموقف الذي يقفه الطغاة المتفرعون، تجاه جميع الدعوات الصالحة في كل جيل. وكم رأينا لهذا الموقف في العصر الذي نعيش فيه من مثل، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن فرعون وملائته: ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ أي لتصرفنا عن معتقداتنا ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لتكون لكما الرياسة والسلطان في هذا البلد - والخطاب هنا لموسى وهارون - ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لن نصدق دعوتكما أبداً.

ولا بد من التنبيه في هذا السياق إلى معنى من أهم المعاني الواردة في هذا الربع، وهذا المعنى هو أن الساحرين لا يفلحون، وأن المفسدين لا يُصْلِحُونَ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّجِرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾، فالساحر المأجور الذي يياشر عملية السحر، والساحر الذي يستأجره على ذلك للاستعانة بسحره على بلوغ غرض من أغراضه السافلة كلاهما محكوم عليه مُسَبِّقاً من الله تعالى بالخيبة والخسران، ديناً وديناً، عاجلاً أو آجلاً: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٩]. والمفسد الذي يتظاهر بالإصلاح، أو يدعي أن الفساد هو عين الإصلاح، لا يستقيم له من الأمر شيء، بل لا بد أن ينقلب به

الحال من سيء إلى أسوأ، اللَّهُمَّ إِذَا عَادَ إِلَى طَرِيقِ الصَّلَاحِ الْحَقِيقِيِّ، فَيُصَلِّحِ اللَّهُ عَمَلَهُ، وَيَحَقِّقْ أَمَلَهُ ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وُخِّتَ هَذَا الرَّبْعُ بِوَصْفِ الْحَالَةِ الَّتِي آلَ إِلَيْهَا فِرْعَوْنُ عِنْدَ الْغَرَقِ حَتَّى تَظَلَّ مَائِلَةً فِي الْأَذْهَانِ، وَعِبْرَةٌ لِبَنِي الْإِنْسَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ءَأَلَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي لا تذهب بعد غرقك مع التيار وتأكلك الحيتان، وإنما تبقى جثتك حجة ناطقة عليك لمن يأتي بعدك في مستقبل الزمان.

والراجح أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة، الذي لا تزال جثته محفوظة حتى الآن، وهي معروضة في متحف الآثار بالقاهرة يشاهدها الزائرون ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا لَخَافُونَ﴾.

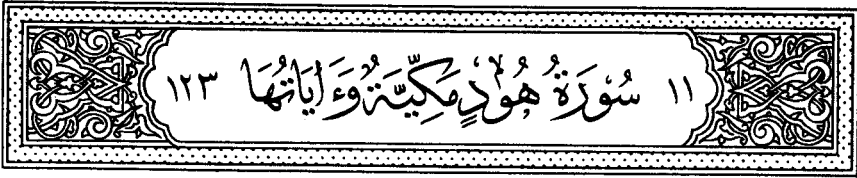
الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ مَبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا
حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾
فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ - أَمِنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَاءَ أَمِنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ

كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾
 وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى
 الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا تُغْنِيهِ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ فَهَلْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ
 فَانظُرُوا أَيَّامِي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا
 النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ
 أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
 وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا
 لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾
 وَإِنْ يَتَسَنَّسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا
 رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾
 قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٢٨﴾ وَاتَّبِعْ

مَا يُوجِيْ آ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ ﴿١٨﴾



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبُرْكَانُ أَحْكَمَتْ - أَيُّهُ وَثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهُ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ إِسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ

كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَّا

إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة يونس المكية: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إلى قوله تعالى في سورة هود المكية أيضاً ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

عند تحليل أغلب الآيات الكريمة الواردة في هذا الربع ضِمنَ القسم الأخير من سورة يونس المكية نجدها دائرة حول موضوع واحد هو موضوع الإيمان، وما يعترض طريقه من شك وتردد، وتعصب وجهل، وغفلة واستهتار، ونجد كتاب الله يوجه الخطاب إلى كل إنسان يشك في صدق الرسالة الإلهية، الموكول تَبْلِيغُهَا إلى خاتم النبيين والمرسلين، يدعوهُ إلى استفسار أهل العلم المطلعين على تاريخ الرسالات السابقة، فإنه إذا أُطْلِعَ على تاريخها ومضمونها لم يجد أدنى صعوبة في تصديق «الرسالة

الخاتمة» التي ختم الله بها جميع الرسائل، بل إنه ليقتنع بأنها لب اللباب من الرسائل كلها، وبأنها آخر مرحلة وأعلى قمة انتهى إليها الوحي الإلهي، لهداية البشرية في سيرها الحاضر والمستقبل، نحو الرقي الحقيقي، والتطور الشامل، والسعادة الكاملة.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ أي إن كنت أيها الإنسان لا تزال في شك مما أنزلنا من القرآن لهدايتك وإرشادك ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكين، من «الامتراء» وهو الشك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فالخطاب في هذه الآية ليس موجهاً إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولو على وجه الفرض والتقدير، إذ لا يُتصور في حق الرسول أي شك أو امتراء أو تكذيب، ولذلك لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لا أشك ولا أسأل» كما روى ذلك قتادة بن دعامة، أي أنه عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت هذا الخطاب مطلقاً، وإنما الخطاب موجّه إلى من يُتصور فيه الشك والامتراء والتكذيب، من المشركين والمنافقين وضعفاء الإيمان، وموجّه كذلك إلى عامة اليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين يجد أحبارهم ورهبانهم وصف الرسالة والرسول مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل.

وهؤلاء إما أن يكون شكهم تلقائياً صادراً عن مجرد الجهل،

فهم مدعوون بهذا الخطاب إلى سؤال أهل العلم واستفسارهم، حتى يزول شكهم، على حد قوله تعالى في آية أخرى ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] وبذلك يرتفع شكهم، ويتأكد إيمانهم.

وإمّا أن يكون شكهم صادراً عن تعمد الإنكار والإصرار، فيكون الخطاب موجهاً إليهم على وجه الزجر والتقريع، لأنهم يجادلون في أمر ثابت لا محل فيه للجدل والمراوغة ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٩].

وقوله تعالى في هذا السياق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ليس المراد منه أن الله سبحانه وتعالى يحول بين فريق من الناس وبين الإيمان، فالله تعالى قد هدى الإنسان النجدين، وعرفه طريق الخير من طريق الشر، ومكّنه من جميع الوسائل لتمييز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وأعطاه من القدرة والإرادة ما يستطيع بواسطتهما أن يُرَجِّح كفة على أخرى، وأن يختار الطريق الذي يريد سلوكه، وأن يفضل من الأعمال والتصرفات ما يرغب في تفضيله، وذلك هو محور التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

وإنما المراد بهذه الآية وما مثلها أن هناك طائفة من الناس قد رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم ينفع فيهم ترغيب ولا تهيب، واختاروا عن عمد وإصرار طريق الهلاك والبوار، فلم يبق

في قلوبهم - بعدما خيم عليها الظلام - أي منفذ للنور، وأصبحت الموعظة بالنسبة إليهم كالضرب في حديد بارد لا أثر لها ولا نفع، فهؤلاء ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ لأنهم يكذبون بالآيات جميعها، ويسخرون منها كلها، وإنما يؤمنون في حالة واحدة وعن اضطرار، لا عن اقتناع، وذلك عندما يرون عذاب الله نازلاً بساحتهم، وهو منهم قاب قوسين أو أدنى، فهم لا يؤمنون ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾. غير أن هذا النوع من الإيمان الإضطراري في آخر لحظة لا ينفع أصحابه، ومثله التوبة عند الاحتضار وغرغرة الموت لا تنفع صاحبها، كما لم ينفع فرعون إيمانه عندما أدركه الغرق: ﴿ ءَأَلَّنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

ومضى كتاب الله في نفس السياق يتحدث عن الأمم الغابرة التي كذبت بآيات الله، فأخذها الله أخذاً وبيلاً، ولم ينفعها إيمانها الإضطراري في آخر لحظة، عند نزول العقاب، وحلول العذاب، اللهم إلا قوم يونس، فإنهم - بمجرد ما فقدوا نبيهم - إذ ذهب مغاضباً لهم - أحسوا بأن عذاب الله قد أخذ يقترب من ساحتهم، فبادروا بالتوبة إلى الله توبة نصوحاً، بصدق وندم، قبل أن يدركهم العذاب، والتجأوا إلى الله أربعين ليلة يرتجون عفوهُ، ويسألون لطفه، خاشعين مُهْطِعِينَ، فلم يصبهم العذاب الذي أُنذِرهم به نبيهم يونس من قبل، لأنهم تداركوا أمره بالتوبة دون تأخير، وما كاد يونس يعود إليهم حتى وجدهم قد تابوا وآمنوا ﴿ فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصفات: ١٤٨] وذلك قوله تعالى في هذا الربع ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ - امنت فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا ﴾ أي

لما آمنوا في الوقت المناسب قبل نزول العذاب ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي حلنا بينهم وبين العذاب،
بسبب إيمانهم وتوبتهم قبل حلول العذاب، وذلك على خلاف ما
فعله غيرهم، حيث لم يؤمنوا إلا عند حلول العذاب لا قبله، فلم
ينفعهم إيمانهم في اللحظة الأخيرة، لأنه إيمان مطعون فيه صادر
عن اضطرار وإجبار، لا عن اقتناع واختيار ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ
حِينٍ ﴾ أي متّعنا قوم يونس إلى حين انتهاء آجالهم.

وبهذا التفسير يتضح أن الاستثناء الوارد في قوله تعالى:
﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ هو من باب الاستثناء المنقطع بمعنى: (ولكن
قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ
جَمِيعاً ﴾ معناه أن الله تعالى لو أراد لحمل الناس على الإيمان
واضطرتهم إليه غاية الإضطرار، ولم يترك لهم في شأنه أي
اختيار، ولجعل الإنسان كباقي الحيوانات العجماء مسوقاً من ورائه
بسوط القهر والإجبار، وحينئذ يصبح الإنسان مجبراً على الطاعة،
مكرهاً على الإيمان، فاقداً لأخص خصائص الإنسان، لكن الله
تعالى أراد أن يخلق الإنسان على خلاف غيره من الحيوانات،
فخلقه حراً مختاراً، وأعطاه من الأجهزة والملكات الخاصة به ما
يمكنه من النظر والاختيار، ولا ينزل به إلى مستوى القهر
والاضطرار، حتى يكون له في نظره الخاص ميزة، وفي اختياره
الخاص فضل، وحتى يكون للتكليف والمسؤولية أساس مفهوم،
ومبرر معقول، ومن أجل هذه الملكة الإنسانية - ملكة التقدير

الشخصي والاختيار الحر، التي مَيَّز الله بها الإنسان عن باقي الحيوان - اختار بعض الناس الإيمان دون الكفر، واختار بعضهم العكس، ومن أجل ذلك كان جزاء حسن الاختيار الثواب العظيم، وجزاء سوء الاختيار العذاب الأليم.

وبهذا التفسير يتضح أيضاً معنى قوله تعالى في آية أخرى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] وذلك لاختلاف أفكارهم، وحسن أو سوء اختيارهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ خطاب من الله إلى رسوله، القصد منه تهدئة رُوعِهِ وطُمَأْنِينَةُ نفسه، فقد كان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، إلى حَدِّ أنه كان يحزَن أشد الحزن إذا لم تنفع في بعضهم الموعظة الحسنة، ولم تؤثر فيهم الحجة البالغة ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَكْفَرًا﴾ [الشعراء: ٣].

وليس المراد أن رسول الله ﷺ كان يحاول فعلاً إكراه غير المومنين على الإيمان، فهو أعلم الناس عن ربه بأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

نعم في هذه الآية تلقين من الله لعباده المومنين أن يبينوا للناس ما نزل إليهم، ويمكّنوهم من وسائل الإيمان حتى تقوم الحجة عليهم، ثم يتركوا لهم بعد ذلك الخيار، فإن أرادوا الإيمان أقبلوا عليه عن طواعية واختيار.

وتأكيداً لهذا المعنى وتركيزاً له في الأذهان قال تعالى مخاطباً لرسوله الأعظم ﷺ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فهو من جهة أولى يمتنع من أن يعبد آلهة لا يومن بوجودها، فضلاً عن أن يومن بأحقيتها للعبادة، وهو من جهة ثانية لا يترك دينه الذي وثق به كل الثقة واطمأن إليه كل الاطمئنان، من أجل أن الآخرين لا يزالون يشكُّون في صحته، فشكُّ الشاك لا يبطل إيمان المومن ولا يؤثر عليه، لكنه من جهة ثالثة لم يفرض على الشاكين أن يومنوا بدينه قهراً وجبراً، وإنما لفت أنظارهم إلى أن الله الذي يعبد هو وحده الذي بيده أرواحهم، وهو الذي يتوفاهم متى شاء ﴿ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وزيادة في تأكيد مبدأ حرية الاعتقاد، وضمان هذه الحرية، بعد القيام بواجب الدعوة، وعلاوة على مضمون الآيات السابقة، وجَّه الحق سبحانه وتعالى في ختام هذه السورة - سورة يونس المكية - خطابه إلى نبيه ملقناً ومعلماً له ولأمته ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ، فَمَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ .

ويتفق مع هذا المعنى قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] .

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وعد سابق من الله لرسوله وهو لا يزال بمكة يكافح الشرك والمشركين، بما سيناله دينه من الظهور على بقية الأديان، وبما سيناله أتباعه من نصر مؤزر وفتح قريب في مختلف الأقطار والبلدان. وقد حقق الله وعده، وهزم الأحزاب وحده، ومكَّن من مقاليد العالم جنده ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

غير أن هذا الوعد الإلهي في أصله مشروط بثلاثة شروط:

الشرط الأول: اتباع الوحي الإلهي، وعدم التنكب عن طريقه أو الخروج عن هدايته ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

والشرط الثاني: الصبر على تحمل متاعب الأمانة الإلهية والقيام بتكاليفها وأعبائها الثقيلة، عن وعي وبقظة، ودون هواده ولا تهاون ﴿وَاصْبِرْ﴾.

والشرط الثالث: التأهب لاغتنام الفرصة المواتية، وعدم تضييعها متى حان أو انتهازها ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

فلكل غلَّة موسمها، ولكل معركة موعدها، وإذا عاد المسلمون إلى الله بعدما فرّوا منه في هذا العصر، والتزموا بتنفيذ شروطه التي اشترطها عليهم دون أي إهمال أو إخلال، بدهم الله حالاً أحسن من هذا الحال، وعاد إليهم بالنصر والتأييد، والتوفيق والتسديد، وما ذلك على قدرته ببعيد.

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين
في المصحف الكريم

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُوكُمْ بِكُمْ أَكْمَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ
بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾
وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى آئْتَةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا
يَجْحَدُونَ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا
رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ، لَيَكْفُرُ كُفُورًا ﴿٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ، لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ
صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ قُلُوبًا عَشْرَ سُوْرٍ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَةٍ
وَادْعُوا مِنِّي اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
نُوفِ إِلَيْهِمْ وَعَمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا
فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ
إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ
الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ
أَخْبَقٌ مِّن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ

عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَا شَهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى
 رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
 عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
 أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
 السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ
 هُمُ الْآخِسُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَحْبَبُوا
 إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصه هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بعون الله وتوفيقه سورة يونس المكية، التي تليها في ترتيب المصحف الكريم سورة هود المكية أيضاً. و«سورة هود» أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من الآيات الكريمة التي وردت أثناءها في الحديث عن هود عليه السلام وقومه عاد، كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الآية: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ

﴿ غَلِيظٌ ﴾ [الآية: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [الآية: ٦٠].

وفي هذه السورة الكريمة قال رسول الله ﷺ: «شبيبتني هود وأخواتها» جواباً لأبي بكر الصديق عندما قال له: «يا رسول الله قد شبت» كما روى ذلك الترمذي في سننه، وأخواتها هي: سورة الواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت، كما ورد في رواية أخرى عند الترمذي.

وسورة هود لها شبه كبير بسورة يونس قبلها، وتستغرق أخبار الأنبياء السابقين وقصصهم مع أقوامهم أكبر قسم من هذه السورة، فبالإضافة إلى قصة هود مع قومه تناول سورة هود جوانب جديدة من قصص نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى.

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام أن كتاب الله لا يتناول الموضوع الواحد، ولا سيما قصص الأنبياء، عدة مرات لمجرد التكرار، بل إن عودته ما بين الحين والحين إلى تناول تلك القصص تتضمن عرض جانب جديد من جوانبها لم يسبق عرضه من قبل، مما يتناسب مع السياق والموضوع الجديد الذي وردت فيه القصة.

قال أبو القاسم ابن جزى صاحب «القوانين الفقهية» في كتابه (التسهيل لعلوم التنزيل): «فإن قيل ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن، فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذكّر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره

في سورة أخرى، ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى.

الثاني: أنه ذُكِرَتْ أخبارُ الأنبياء في مواضع على طريقة الأطناب، وفي مواضع على طريقة الإيجاز، لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قُصِدَ بذكرها مقاصد، فتعدّد ذكرها بتعدد تلك المقاصد، فلما كانت أخبار الأنبياء تفيّد فوائد كثيرة ذكرت في مواضع كثيرة، ولكل مقام مقال» انتهى.

وفي مطلع سورة هود يبتدىء الحديث بالتنويه بكتاب الله، وما تتضمنه آياته من حكمة وإحكام، ﴿الر، كِتَابٌ أَحْكَمَتْ - آيَتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، كما اختتم الحديث في سورة يونس قبلها بوجوب اتباع كتاب الله، والثبات على تبليغه، والصبر على تحمّل تبعاته ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وبين كتاب الله الاختصاص الأساسي والجوهري لمنصب الرسالة، وأنه ينحصر في النذارة والبشارة ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ودعا المومنين إذا أرادوا أن يمتعهم الله متاعاً حسناً بالنعيم والأرزاق والخيرات، وأن يُحييهم حياة طيبة، إلى استغفار ربهم، والتوبة إلى الله من ذنوبهم، بالندم عليها ندماً صادقاً، والإقلاع عنها إقلاعاً تاماً، حتى يفتح الله في وجوههم طريق العمل الصالح، ويعينهم على سلوكه بنجاح في جميع مجالات الحياة، وذلك قوله

تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن من زاد في الإحسان زيد له في الثواب بقدر ما زاد من الحسنات والأعمال الصالحة، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ وكما يصدق هذا على الثواب في الآخرة يصدق على الجزاء في الدنيا.

وأذر كتاب الله على لسان رسوله كافة المخالفين، والعصاة المتعنتين، فالتفت إلى خطابهم قائلاً: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأكد كتاب الله أن كل محاولة يحاولها الإنسان للاستخفاء والتستر عن الله، بالنسبة إلى أي عمل من الأعمال، ولا سيما عمل السيئات والفواحش، إنما هي محاولة فاشلة، لأن علم الله يستوعب السر والعلن، وعين الله تراقب ما ظهر وما بطن، فلا ثني الصدور، ولا ستار الأغطية، ولا أي وضع من الأوضاع التي يختفي بها الناس عن الناس لها أدنى فائدة بالنسبة لعالم الغيب والشهادة، اللطيف الخبير ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يجعلونها أغشية وأغطية ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وتعهد كتاب الله بأنه ما من كائن حي يتوالد في الأرض، صغر شأنه أو كبر، إلا وقد تكفل الله برزقه، فهيأ له إما في البر

وإما في البحر ما يقتات به من المنتوجات والثمرات على اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف، مما هو صالح ومناسب لحياة كل نوع من أنواع الأحياء، حشرةً كان أو حيواناً أو إنساناً، وما على المسترزق إلا أن يبحث عن رزقه، ويسلك الطريق المؤدي إلى العثور عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾. قال أبو القاسم ابن جزي: «فإن قيل كيف قال - على الله - بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل، لأن الله لا يجب عليه شيء؟ فالجواب: أنه ذكره كذلك تأكيداً في الضمان، لأنه لما وعد به صار واقعاً لا محالة، إذ أنه لا يُخلف الميعاد». ولا يقولنَّ أحد: إن الله قد تكفل برزقي فلا أترك تناول الأسباب، ولأنتظر من يَطرُق الباب، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال عمر بن الخطاب.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه يعلم على العموم والخصوص، وعلى الجملة والتفصيل، في أي أرض تعيش الأحياء وفي أي أرض تموت، زرافاتٍ ووحدانا، وبأوسع من هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الانعام: ٥٩].

والمراد «بالكتاب المبين» في هاتين الآيتين هو نفس المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ

بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ، مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿ [الانعام: ٣٨] أي كتاب خاص محفوظ عند الله، فيه بيان مفصل عن شؤون الخليقة من بدايتها إلى نهايتها.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ المتعلق من جهة الإعراب بفعل - خَلَقَ - الوارد في قوله تعالى قبله ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ تنبيه من الله لعباده إلى أن الحكمة في التفضل بخلقهم والتكفل برزقهم إنما هي اختبار أحوالهم، وإبراز آثارهم، والكشف عن اختياراتهم، لتقوم الحجة عليهم، فالدنيا إنما خلقها الله لتكون حلبة سباق وتنافس بين الناس في العمل الصالح، الذي ينشأ عنه صلاح البشرية وسعادتها، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

و (العمل الأحسن) المعبر به في هاتين الآيتين هو نفس المعنى المراد من «العبادة» التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فكل عمل صالح هو عبادة لله وامثال لأمره، من جهة، وكل عبادة هي في حد ذاتها عمل صالح، من جهة أخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى في هذا الربع ﴿ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾. المراد بالأمّة هنا الأمد والأجل، أي إن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إلى وقت محدود تساءلوا ما الذي يحبس ذلك العذاب، وبنفس هذا المعنى استعمل لفظ «أمة» في

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] أي استذكر بعد مدة.

ولإتمام الفائدة في هذا المقام ينبغي التنبيه إلى أن لفظ (أمة) في كتاب الله يستعمل أيضاً بمعنى «الإمام المقتدى به» كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، وبمعنى «الفرقة والطائفة» كما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] وبمعنى «الجماعة» كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣]، وبمعنى «الملّة» كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وبمعنى «أمة الإجابة المصدقة للرسالة» كما في قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وبمعنى «أمة الدعوة» الشاملة لكل من بُعث إليه الرسول ممن آمنوا أو بقوا على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧].

وتناول كتاب الله بالوصف والتحليل نفسية الأشخاص القلقين، من ضعفاء الإيمان وضعفاء النفس، في حالي الشدة والرخاء، مبيّناً أن هذا الرهط من الناس إذا أصابته شدة بعد الرخاء لا يلبث أن تنهار أعصابه، ويبلغ به اليأس والقنوط من رحمة الله إلى أقصى حد، حتى كأنه لم ينل في سابق حياته من ربه أيّ عطاء أو احسان، فهو عاجز كل العجز عن تحمل

الصددمات، ضعيف كل الضعف عن مواجهة الأزمات، وكلما طال به أمد الشدة تضاعل أمام نفسه وأمام الناس، فيصبح قزماً بعدما كان عملاقاً، ويعود حمماً وديعاً بعدما كان سبُعاً ضارياً، كما أنه إذا أصابه رخاء بعد الشدة عاجله البطر بالنعمة، وأصابه نوع من الإغماء والذهول من شدة الفرح الزائد عن الحد المعتاد، فلم يعد يضبط نفسه ولا عواطفه، واعتقد أن الرخاء الذي نزل بساحته سوف لا يفارقه إلى الأبد، فأمن مكر الله، ونسي نعمة الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ، وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي شديد الفرح والغرور بنفسه، كثير الفخر والتطاول على غيره.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المراد به استثناء الصنف المومن بالله المتمسك بالإيمان والصبر، من هذا الحكم العام، وهو استثناء متصل، من جنس الإنسان، ذلك أن إيمان المومن بقضاء الله، وصبره على ضيق الشدة، وعلى سعة الرخاء - وكلاهما يحتاج إلى صبر - كلها أدوية فعالة تجعل المومن الصابر في حصانة ومناعة، من أن يصبح في وقت الشدة يؤوساً كفوراً، وفي وقت الرخاء فرحاً فخوراً. وبذلك استحق هذا الصنف المومن رضا الله وثوابه الجزيل، فقال تعالى في شأنه ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

ونبه الحق سبحانه وتعالى إلى أنه إذا اختار فريق من الناس

- عن عمد واصرار - مجرد العمل لدنياهم وحدها، وأعدوا العدة المناسبة لاجتياز مرحلة حياتهم المادية الصرفة، دون أن يهتموا بالعمل لآخرتهم كما يعملون لدنياهم، فإن الله تعالى يستدرجهم ويمهلهم في الدنيا، لكنه يلغي كل ما عملوه في الدنيا عند حسابهم في الآخرة، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفًّا إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا﴾ أي في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾، والضمير هنا يعود على الآخرة، ﴿وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذه الآية عامة في كل من ينوي غير الله بعمله، كان معه أصل الإيمان أو لم يكن. وفي الحديث القدسي: «إني لا أقبل عملاً أشرك فيه مع غيري، أنا أغني الأغنياء عن الشرك».

وبنفس المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُوتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الاسراء: ١٨].

ولا يستغرب المومن ما قد يرى عليه بعض الدول والأفراد، رغماً عن ماديتهم وكفرهم، من القوة المادية والرفاهية الظاهرة في

العيش، بعدما كشف الله في كتابه عن هذه الحقيقة الحجاب، ورفع عنها النقاب، فذلك كله مندرج تحت هذا الباب: ﴿الْأَلْعَنَةُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ - ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لا بد ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

وعلى العكس من ذلك المومنون الذين عملوا لدنياهم كما عملوا لآخرتهم، فأعطوا للمادة حظها، وللروح حقها، ونفخوا في أعمالهم روح النية الصالحة فكانت أعمالهم لوجه الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي وهم خاشعون ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين
في المصحف الكريم

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ
 هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
 إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٧٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا بَرَيْكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا
 بَرَيْكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا
 بَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآئِلِي رَحْمَةً مِّن
 عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْهُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾
 وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا
 أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَيَقَوْمٍ مَّن يَنْصُرُنِي مِّنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ وَأَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنِّي إِذًا لِّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ لَوْلَا نُوحٍ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيهِ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَجْرُمُونَ ﴿٧٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّامَنَّا فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطُبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٧٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٧٨﴾ فَسَوْفَ نَعَامُونَ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَن - أَمِنٌ وَمَاءٌ أَمِنٌ مَعَهُ ۖ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ - آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

في بداية هذا الربع ضرب كتاب الله المثل لفريق الذين كفروا وعملوا السيئات، وفريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فأما الفريق الأول فهو كالأعمى بالنسبة للبصير، وكالأصم بالنسبة للسميع، وذلك لأنه لا ينتفع ببصره وسمعه الانتفاع المطلوب، فكانه فاقد لهما بالمرة، إذ يسمع كلام الله ولا يتأثر به، ويرى صنع الله ولا يتأمل فيه.

وأما الفريق الثاني فهو سميع بصير، لأنه ينتفع بحاستي السمع والبصر انتفاعاً تاماً، ويستعملهما استعمالاً لائقاً، السمع: في سماع الدعوة إلى الحق، والبصر: في مشاهدة بدائع الخلق،

وذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ويحكي كتاب الله قصة نوح عليه السلام مع قومه، وأنه لم يتهاون في إنذارهم، وبيان الحق والحقيقة لهم، فدعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته دون غيره، وإلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ﴾.

وسجل كتاب الله أجوبة كبار قوم نوح المتعنتين المتكبرين، وهذه الأجوبة تتلخص في أنه لا شيء يبرر في نظرهم أن يكون نوح بالخصوص رسولاً إليهم من عند الله، فهو في نظرهم بشر مثلهم، لا يمتاز عنهم بأي شيء، وإلا فيجب أن يكونوا جميعاً رسلاً مثله بحكم «قياس الشبه»، أو يجب أن يكون الرسول من غيرهم جميعاً بما فيهم نوح عليه السلام، كأن يكون الرسول ملكاً لا بشراً. ثم إن الذين أتبعوه في نظرهم لا قيمة لهم في المجتمع، فهم ليسوا من طبقة الملاء وكبار القوم، بل هم من ضعفاء الناس.

يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الضعفاء الذين أتبعوه لم تكن عندهم - فيما زعم كبار قوم نوح - قدرة على التروي والبحث في الدعوة التي دعاهم نوح إليها، بل أقبلوا عليها دون بحث ولا تحقيق، وأتبعوها بمجرد سماعها دون تأمل ولا تمحيص، وإذن فهم مخدوعون مغرورون. وهذه المعاني التي تضمنتها أجوبة كبار

قوم نوح هي التي يشير إليها قوله تعالى هنا: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَدِّلُوا الْبِرَّ أَلَّا يَكْفُرُوا بِلِلَّهِاتِهِمْ بَلْ لَأُولَئِكَ فِي آيَاتٍ مُبِينَةٍ﴾ أي واتبعوك دون بحث ولا نظر، بل لأول وهلة ﴿وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي لا ميزة تميزكم علينا بسبب الدين الذي اعتنقتموه، فأنتم لا زلتم كما كنتم لا تفضلوننا بشيء ﴿بَلْ نَحْنُ كَذِبٌ أُولَىٰ﴾ أي نعتقدكم كاذبين، والظن هنا بمعنى اليقين.

وحكى كتاب الله ما ردَّ به نوح على قومه، وأنه إذا عميت عليهم حجة الله التي آتاه الله إياها، ولم يقدرُوا رحمة الله التي أرسله بها، فإنه لا يستطيع إكراههم عليها وإلزامهم باتباعها، إذ المبدأ العام الذي ألزم الله باتباعه جميع الأنبياء والمرسلين، هو أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وذلك ما يصرح به قوله تعالى هنا حكاية عن نوح مجيباً لقومه: ﴿قَالَ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْتُمْ أَنْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَازَيْبِيَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْمُكُمْ وَمَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾؟.

وواصل كتاب الله حكاية قصة نوح، فذكر ما رد به على استهزاء كبار قومه، الذين استهزأوا باتباعه، وعيروهم بضعف الحال وقلة ذات اليد. وما دام الأمر في شأن الدعوة ليس أمر قوي وضعيف، وغني وفقير، وشريف ومشروف، وإنما هو أمر عقيدة واقتناع وإيمان، فإن من عرف الحق وتجلَّى له واضحاً أقبل عليه واعتنقه، ومن عمي عنه أو تعامى استمر على الباطل والضلال - وهذا هو عين ما وقع لضعفاء قوم نوح، حيث رأوا

دعوته جلية واضحة كَفَلَقَ الصبح، فأسرعوا إلى الإيمان به وأصبحوا من جلسائه وصحبه - فلن يحتقرهم نوح كما يريد كبار قومه أن يكون، إذ هم أهل للتوقير لا للتحقير، ولن يطردهم نوح من مجلسه كما لَوَّح إلى ذلك كبار قومه المتكبرون، إذ هم أهل للتقريب لا للإبعاد، بعدما آمنوا برب العباد، وعَقَّب نوح على ادعاءات كبار قومه السخيفة بما يَدْمَغُهُم «بالجهل» المنافي للعلم والمعرفة، و«بالجهالة» المنافية للمروءة وحسن الأدب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا، إِنَّهُمْ مَلَقُوا رَبَّهُمْ، وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ - ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذَا﴾ أي لو طردتهم واحتقرتهم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي هذا السياق نبه كتاب الله إلى أن نوحاً حاول بكل الوسائل أن يزيل من أذهان كبار قومه ما تخيلوه، من أن غرضه من الدعوة التي يقوم بها غرض مادي صرف، وذلك ما حكاه عنه كتاب الله إذ قال لقومه: ﴿وَيَقُولُ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ مَالًا، إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

والملاحظ أن مثل هذه القولة تتكرر في قصة كل نبي أو رسول، إما لأن أعداء الرسل يظنون أن في إمكانهم شراء كل الضمائر بثمان بَخْس، حتى يتنازل الرسل عن دعواتهم، وينصرفوا لحال سبيلهم، وإما لأن أعداء الرسل ينظرون إلى ما يكون عليه

الرسول غالباً من الفقر والخصاصة والزهد، فيظنون بهم الظنون، ويخيّل إليهم أنهم طلاب مال وغنى، وعشاق رفاهية ونفوذ، ولذلك يضطر الأنبياء والرسول إلى الرد على المترفين من قومهم بمثل هذا الرد القاطع الصريح، حفظاً للدعوة من تسرب الأعداء إليها، وقطعاً لكل أمل في قطع الطريق عليها.

ومما رد به نوح على كبار قومه حيث اعتبروه غير أهل للرسالة، لكونه بشراً مثلهم، أنه برغم بشريته مرسل إليهم من عند الله، فهو (بشر رسول)، لأن الرسالة لا تتنافى مع البشرية مطلقاً، بل هي تشریف لها، وتكريم للمتممين إليها، وهي أعلى درجة يمنحها الله للبشر. ونفى لهم نفياً قاطعاً أن يكون ملكاً، أو أن يشارك الله في علم الغيب، فعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، كما نفى نفياً باتاً أن يتصرف في ملك الله وخزائنه الواسعة تصرفاً خاصاً، لا من قريب ولا من بعيد، لأن المتصرف في خزائن الكون هو الله وحده لا شريك له، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾. وبهذه الردود الصريحة الواضحة اتضحت طبيعة الرسالة على حقيقتها منذ أقدم العهود، واتضحت خصائصها دون مبالغة ولا غلو ولا إغراق في الخيال، وإذا كان الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام يتبرأون من علم الغيب، ومن التصرف في الكون، ويفردون الله بهما دون سواه، فأولى بغيرهم من بقية الناس أن لا يدعوا ذلك لأنفسهم، وأن لا يدعى لهم.

ولما ضاق كبار قوم نوح ذرعاً بدعوة نوح، ورده المفجّم، وجداله القوي، أخذوا يتحدّونه ويطالبونه بتعجيل ما أنذرهم به من عذاب الله، كدليل محسوس على صدقه في دعوته إن كان صادقاً، فأجابهم بأن أمر ذلك موكول إلى الله يأتي به إن شاء ومتى شاء، مبيّناً لهم في نفس الوقت أنهم ما داموا قد أقفلوا جميع منافذ النور الإلهي إلى قلوبهم لم تبقَ فائدة في نصّحهم، ولا أمل في إيمانهم، وذلك قوله تعالى حكاية عن كبار قوم نوح: ﴿قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ، قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إن لم تتنفعوا بما وهبكم الله من وسائل الفهم وطرق الهداية: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وتحدث كتاب الله عن المرحلة الأخيرة من حياة نوح مع قومه، وأن الله أوحى إليه أنه لن يومن من قومه إلا من قد آمن. فلا أمل في إيمان الباقين، وأنه سيعذب كفار قومه بالغرق، ويسلط عليهم الطوفان، وأن عليه أن يصنع سفينةً ينجو فيها بنفسه وأهله، وبمن آمن معه، وكان عددهم قليلاً. وأمر الله نوحاً أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى، وتقول الأخبار: أنه حمل في سفينته نماذج من الحيوانات والحشرات والنباتات، وظن نوح أن ابنه داخل في عداد أهله، فنزل عليه الوحي باستثنائه منهم لكفره، إذ بقي مصرّاً على دين قومه، مثل أمه، فلم ينفع امرأة نوح كون الرسول زوجاً لها، ولم ينفع ابن نوح كونه

ابناً للرسول، إذ ﴿كُلُّ أَمْرٍ عِمْ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ - آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي بمرأى منا وبارشادنا ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْأَمْطَارِ الطُّوفَانِيَّةِ، وَفُجِّرَتْ طَبَقَاتُ الْأَرْضِ بِالْعَيُونِ الْجَارِيَّةِ، كَمَا فَسَّرَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢] والاستثناء هنا لابنه وامراته اللذين عاقبهما الله بالغرق، جزاء إصرارهما على الكفر ﴿وَمَنْ - آمَنَ﴾ أي احمل معك من آمن من قومك، ثم عقب كتاب الله على ذلك فقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى عن أصحاب الميمنة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤].

الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين
في المصحف الكريم

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِبُهَا وَرُبِّيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾

وَهِيَ تَجْرُءُ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فِي مَعْرَلٍ يَبْنَئِي بِرُكْبٍ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾

قَالَ سَاوِمَةٌ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عِصْمَ الْيَوْمَ

مِنَ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ

الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي

وَعِضِ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي

مِنَ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
 تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ
 اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ
 وَأُمَّ سَنُنبِتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
 مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
 قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ
 عَادِ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ
 غَيْرُهُ وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
 وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
 مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
 بِتَارِكِينَ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾
 إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْتَابُكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ
 اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكَيْدُونِي
 جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن

دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخِذْ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا
 جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ
 عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَعَادٌ مَّجِدُونَ وَإِذْ بَايَعْتُمْ رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ
 وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ ءَعَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ إِيَّادِ قَوْمِ
 هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
 مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَهُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
 فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسِيهَا، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن المرحلة الأخيرة من قصة نوح عليه السلام. ويحكى لنا أن نوحاً عندما أراد أن يركب السفينة التي صنعها بوحى من ربه لم ينسَ ما عليه من واجب الشكر لله، والتوكل على الله، فأمر المتأهبين للركوب معه عند ركوبهم «سفينة النجاة» أن يذكروا عند ركوبهم اسم الله عليها، وأن يحصنوها باسمه الأقدس من كل سوء ينزل بها، حتى يتم جري سفينة نوح ورسوها في أحسن الأحوال، ولا ينالها أي أذى من الأمواج المتلاطمة والشامخة كالجبال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسِيهَا، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾.

ثم وصف كتاب الله نداء نوح لابنه الذي أصرَّ على الكفر، وما دار بينهما من حوار مؤثر في تلك الفترة العصيبة. ومنه يبدو الصراع الداخلي الذي كان قائماً بين عاطفة نوح بصفته مجرد (أب عادي)، وواجبه بصفته (رسولاً عن الله). فقد ظن نوح عليه السلام أن الاستثناء الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ إنما هو منصب على ما أمر بحمله معه من أصناف الأحياء المختلفة، بمعنى أن منها ما أذن الله بحمله معه في السفينة ليستمر بقاؤه في العالم، ومنها ما سبق عليه القضاء بالغرق والانقراض نهائياً، ولم يعتقد نوح عليه السلام أن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ منصب حتى على أهله أنفسهم، فمنهم من أذن له بأخذه في السفينة، كأبنائه الثلاثة: (سام وحام ويافث)، ومنهم من لاحظ له فيها كامراًة نوح وابنه الرابع (يام).

وبمقتضى هذا التأويل أخذ نوح ينادي ابنه ليفارق الكافرين من قومه، ويلتحق به في «سفينة النجاة»، فما كان من ابنه المصّر على الكفر إلا أن فضل البقاء حيث هو، ظاناً أن في إمكانه النجاة من الطوفان إذا اعتصم بالجبل.

ولم يسع نوحاً - وهو الناصح الأمين الذي طالما أسدى النصح للبعيد والقريب - إلا أن يجدد النصح لابنه، ويؤكد له أنه لا عاصم يعصمه من عذاب الله، وأن الطوفان سيدرك الجميع لا محالة، ولا تنجو منه إلا سفينة النجاة التي صنعها نوح بوحي من

ربه، وركبها ومن معه، متحصنين باسمه الأقدس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ، قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾. ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا: إنما سأل نوح ربه، لأجل قول الله: احمل فيها من كل زوجين - إلى - وأهلك. وترك نوح قوله - إلا من سبق عليه القول - لأنه رآه استثناءً عائداً إلى قوله: «من كل زوجين اثنين»، وحمله الرجاء على ذلك، فأعلمه الله أن الاستثناء عائداً إلى الكل، وأنه قد سبق القول على بعض أهله، كما سبق على بعض من الزوجين (أي من كل زوجين اثنين) وأن الذي سبق عليه القول من أهله (أي علاوة على امرأته) هو ابنه، تسلياً للخلق في فساد أبنائهم وإن كان أباؤهم صالحين».

وقال ابن العربي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِبُهَا وَمُرْسِيهَا﴾ نص في ذكر الله في كل حال وعلى كل أمر، وقد روى الدارقطني وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتسر». وقال ابن كثير: «ولهذا

تستحب التسمية في ابتداء الأمور، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه.

أما الدعاء الذي دعا به نوح عليه السلام، عندما استوى على السفينة، بتلقين من ربه، فقد نص عليه كتاب الله في آية أخرى إذ يقول مخاطباً لنبيه نوح: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبْرَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المومنون: ٢٨، ٢٩].

ووصف كتاب الله كيف أن القدرة الإلهية بمجرد ما أغرقت الظالمين المفسدين في الأرض، الذين جعلوها حلبة للفساد لا للإصلاح، وللظلم لا للعدل، وللکفر لا للإيمان، وأبادتهم عن آخرهم في لحظات معدودة، وجَّهت في الحين نداءها المسموع المطاع للأرض ببلع مياهها، وللسماء بقطع أمطارها، ولسفينة النجاة بوقوفها وإرسائها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهاى الإيجاز والإعجاز: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي ابتلعت الأرض في جوفها وغار من سطحها ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم وخساراً، وبعداً من رحمة الله وطردها، فقد هلك الظالمون على عهد نوح عن آخرهم بالطوفان، كما سيهلك خلفهم بوسائل أخرى يختارها القاهر فوق عباده في مستقبل الزمان.

وقد نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال: «قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى

رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت وصارت رماداً».

ثم تحدث كتاب الله عما أوحى الله به إلى نوح عليه السلام عندما أرسلت سفينته على الجودي، وما صدر إليه من الإذن بالنزول من السفينة إلى الأرض، مصحوباً فيها بسلام الله، مع البشارة بحلول بركات الله عليه وعلى أمم المؤمنين من ذريته، والإنذار لأمم أخرى ستكفر بالله، فتنال حظها من المتاع في الدنيا ثم يلحقها العذاب الأليم في الآخرة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَنْوُحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال محمد بن كعب: «دخل في هذا السلام كل مومن ومومنة إلى يوم القيامة، وكذلك دخل في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة».

وعقب كتاب الله على تفاصيل هذه القصة المثيرة، مبيناً أنها قد ظلت مطوية تحت أستار الغيب قروناً وقروناً، حتى كشف الوحي الإلهي عنها النقاب، ونزلت في شأنها آيات الكتاب، منبهاً خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العبرة المقصودة، من عرض قصة نوح، بالنسبة للمشركين والمومنين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ، إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وفي هذه القصة نقطة لا بد من الوقوف عندها وقفة خاصة،

فقد رأينا كيف مَنْ اللهُ على نوح بنجاة أهله، وأمره بحمل أهله معه في «سفينة النجاة». قائلاً: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، وقد رأينا كيف دعا نوح ابنه الذي لم يؤمن بالله إلى مفارقة كفار قومه، واللحاق به في السفينة، باعتباره داخلاً في (أهله)، وقد رأينا كيف نادى نوح ربه قائلاً ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، إلا أن الحق سبحانه وتعالى رد على نبيه نوح عليه السلام رداً قاطعاً وصارماً، ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. ثم بين الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك الحكم الإلهي الذي لا معقب له، وأوضح الحكمة المتوخاة منه، حتى لا يبقى حكماً غامضاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ مما ألقى الأضواء على نوع العلاقة التي لها اعتبار في نظر الشارع، والعلاقة التي لا اعتبار لها، أو لها اعتبار ثانوي جداً.

فهذه الآية تنص صراحة على أن قرابة العقيدة والإيمان هي القرابة الحقيقية والوحيدة، التي لها الاعتبار الأول بين الأقرباء في تكافلهم وتعاونهم، وتحديد مصيرهم المشترك، فإذا انتفت هذه القرابة الروحية والدينية بينهم كانت قرابة الدم المادية في الدرجة الأخيرة من الاعتبار، أو لا اعتبار لها بالمرّة، لأن طابع النبوة الصحيح هو أن يكون الابن وارثاً سرّ أبيه، يرث منه خير خصاله، وأفضل خلاله، والروحية منها قبل المادية، فتتصل به سلسلة الصلاح ولا تنقطع، وتنتقل الأمانة عن طريقه من جيل إلى جيل. وهكذا يصبح ابنك الروحي في العقيدة أو أخوك الروحي في الإيمان هو ابنك الحقيقي وأخوك الحق الذي تعتمد عليه بعد الله

تعالى كل الاعتماد، في إدراك المنى وبلوغ المراد.

ولهذا طالب كتاب الله المسلمين بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما، وحذر من موالة العشيرة ومن التودد إلى الأقرباء متى كانوا غير اخوان في العقيدة والدين، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فالبغض في الله والحب في الله من الإيمان كما جاء في الأثر.

ومن قصة نوح عادت الآيات الكريمة للحديث عن قصة هود مع قومه عاد، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، يَبْقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وأشارت نفس الآيات إلى جواب عاد لهود ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

وبين كتاب الله مصير عاد بعد إصرارهم على الكفر بالله، والتكذيب برسالة هود، وما أكرم الله به هوداً والذين آمنوا معه من النجاة والرحمات، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ، وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عِنِيدٍ،

وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَّا بَعْدًا لَعَادِ قَوْمِ هُودٍ ❀.

وهكذا رأينا مرة أخرى أن الدعوة التي يدعو إليها الأنبياء والرسل دعوة واحدة، يجددها الواحد بعد الآخر، وأن موقف خصوم الأنبياء والرسل موقف واحد يقلد فيه بعضهم بعضاً، ويتوارثونه خلفاً عن سلف، كما رأينا أن مصير أهل الفسق والكفر مصير واحد هو الخسران المبين والعذاب الأليم، ومصير أهل التقوى والإيمان مصير واحد هو الرضوان الأكبر والفوز العظيم.

الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَأَنْهَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ
 مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢٦﴾
 قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَٰئِلِي
 مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي
 غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١٢٧﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا
 تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ
 قَرِيبٌ ﴿١٢٨﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُوٌّ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ ﴿١٢٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
 صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٣٠﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
 فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿١٣١﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ أَلَا

إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ
 جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ
 سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّارَهُ آيِدِيهِمْ
 لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا
 لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ
 فَضِحَتْ فَبَشَّرْنَا بِاسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
 قَالَتْ يَوْيَلْتِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا
 لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ
 عَلَيْكُمْ ۗ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ
 الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
 لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ
 جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِهْمٌ عَذَابِ غَيْرِ مُرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
 جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِنَّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
 هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهَرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ
 قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمٌ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
 أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۗ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

رَشِيدٌ ⑦٨ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَانِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
 مَا نُرِيدُ ⑦٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيَةٌ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ⑧٠
 قَالَ لَوْ يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
 بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا
 مَا أَصَابَهُمْ وَإِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ⑧١
 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
 حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ⑧٢ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي
 مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ⑧٣

الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهِينَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ، مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ ﴾.

بعدما تناولت عدة آيات كريمة في الربع الماضي قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وبيّنت ما بذله من جهد بالغ ونصح مستمر، في سبيل هدايتهم إلى الإيمان بالله، وحضهم على التوبة إلى الله، وتعريفهم بما يستتبعه الإيمان والتقوى من الحياة الطيبة والمنعة والقوة: ﴿ وَيَقَوْمٍ اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ وتعريفهم بما يؤدي إليه الإصرار على الكفر والضلال، من تعذيب وإبادة واستئصال، واستخلاف للغير واستبدال ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوهُ

شَيْئاً»، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة صالح مع قومه ثمود، ونظراً لأن بداية هذه القصة صادفت نهاية الربع الماضي أجّلنا الشروع فيها إلى هذا الربع، حتى نقدّم تفسيرها في صعيد واحد.

وأول ما يواجهنا من قصة صالح أن الدعوة التي وجهها إلى قومه ثمود هي صورة طبق الأصل من دعوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين، وخلاصتها الأمر بعبادة الله دون سواه، والتعريف بأنه لا إله في الحقيقة إلا الله، فهذا هو مفتاح الدعوة ومدخلها الوحيد إلى تحرير الإنسان من كل عبودية لأخيه الإنسان، سواء كانت تلك العبودية عبودية جسمية للطغاة المتجبرين، أو عبودية وهمية للدجاجلة المشعوذين ﴿وَالْيَ تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

ثم بين صالح لقومه ثمود أن الله تعالى هو وحده الذي يستحق أن يُرَجَى ويُخَاف، وأن يُطاع أمره، ويُتجنب نهيه، فهو الذي بيده الإعطاء والمنع، وعلى يده الضر والنفع، وهو مصدر كل النعم التي يتمتع بها الإنسان بدءاً واستمراراً، وما دام الإنسان مديناً بوجوده أولاً، وبرزقه ثانياً للحق سبحانه وتعالى، فالمنطق السليم يقضي على الإنسان بأن يتوجه إليه، ويعتمد عليه، وما دامت أقرب وسيلة للتحلّي بالفضائل هي التخلي عن الرذائل، فما على الإنسان إلا أن يستغفر الله ويُقبل عليه، فيجده أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي خلقكم لعمارتها وجعل لكم فيها معاش ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا

إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١﴾ . وقوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٢﴾ عَلَى غَرَارٍ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، اجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿٣﴾ [البقرة: ١٨٦].

فما كان من قوم صالح إلا أن أجابوا نبيهم بنفس الجواب التقليدي الذي اعتاد خصوم الرسالات أن يجيبوا بمثله كافة الأنبياء والرسول، وهذا الجواب يكون عادة عبارة عن مزيج من التكذيب والتجريح والاستهزاء، ومهما اختلفت ألفاظه فإن المعنى الذي يعبر عنه واحد في نهاية الأمر.

ويتضمن جوابُ ثمود لنبيهم صالح خيبةً أملهم فيه، وسوء ظنهم بسلامة عقله، وشكَّهم البالغ في كل ما دعاهم إليه، واستنكارهم التام لهجمه على معبوداتهم ومقدساتهم المتوارثة: ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهِينَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٤﴾ .

ويقبل، على الإيمان بصالح، المستضعفون من قومه، بينما المترفون وكبار القوم يواصلون حياتهم على ما ألفوه من الشرك والوثنية.

ولمَّا تَخَوَّفُوا مِنْ اسْتَفْحَالِ دَعْوَتِهِ وَغَلَبَتَهَا، أَخَذُوا يَتَحَدَّثُونَ وَيَطْلُبُونَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، بِآيَةٍ مَحْسُوسَةٍ تَرَاهَا الْعَيْنُ، تَكُونُ دَالَّةً عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْآيَةُ الَّتِي طَلَبُوهَا، هِيَ ﴿نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٥﴾ [الشمس: ١٣]، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَى اسْمِ اللَّهِ لِكُونِهَا

جاءت على خلاف ما هو معتاد في جنسها، لا شكلاً، ولا حجماً، ولا غذاءً، فأمرهم صالح بتركها تأكل في أرض الله، وبأن يكون لها وحدها شرب يوم معلوم، كما يكون لمواشيهم شرب اليوم الذي يليه، بحيث تقاسم (ناقة الله) مواشيهم مياه الشرب مناصفة، يوم لها ويوم لهم.

غير أن كبار القوم وأصحاب المصالح، لم يصبوا طويلاً على امثال أمر صالح، ولعلمهم وجدوا في هذا الأمر حداً لاحتكارهم، وقيداً لاستغلالهم واستثمارهم، ولعل ألبان (ناقة صالح) أصبحت عوناً لصالح على الدعوة إلى الله، وغذاءً للفقراء المستضعفين الذين آمنوا بالله، فلم يسع كبار قوم صالح وكفارهم إلا أن يحرضوا على قتل (ناقة الله)، تحدياً صارخاً لصالح الذي انتشرت دعوته إلى الله ﴿ وَقَالُوا يَنْصَلِحُ آيْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الاعراف: ٧٧]. وحدد صالح لمصرعهم بعد عقرهم للناقة ثلاثة أيام، كل يوم منها يرون فيه لونا من ألوان العذاب، قبل أن يهلكوا ويبيدوا بالمرة، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى هنا بإيجاز وإعجاز ﴿ وَيَقَوْمٌ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ، كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا، أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لثَمُودَ ﴾.

وانتقل كتاب الله من الحديث عن قصة صالح وما انتهت به من عذاب لكفار ثمود إلى قصة لوط مع قومه .

ولهذه القصة علاقة بإبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بينه وبين لوط قرابة روح وقرابة نسب، فقد أرسل الله ملائكته إلى لوط عليه السلام ليخبروه بأن موعد هلاك المفسدين الضالين من قومه قد أصبح على الأبواب. وفي طريقهم إلى لوط عرجوا على إبراهيم الخليل واستضافوه، فأحسن ضيافتهم ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾. والحنيذ هو المشوي على الحجارة المحمّاة، وبشّروا امرأته بولادة اسحاق ويعقوب رغماً عن فواتها سن الحمل، وبالرغم من شيخوخة زوجها إبراهيم ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ، قَالَتْ يَوَيْلَتِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. ودار الحديث بينهم حول قوم لوط وما ينتظرهم من عذاب الله ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

ولما وصل أولئك الملائكة إلى مقر لوط ونزلوا عنده أقبل عليه الفسقة المفسدون من قومه يريدون اغتصاب ضيوفه من الملائكة، فجدد عليهم لوط أمر الله إليهم بالتوبة من جريمة الشذوذ الجنسي، ودعاهم إلى الاكتفاء بما أحلّ الله من العلاقات الزوجية المشروعة ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَتَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي بنات قومي ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ

رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿١﴾. لكنهم أصروا على انحرافهم كل الإصرار ﴿٢﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٣﴾، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً، جزاء قلبهم للأوضاع، وما ارتكبوه بفاحشتهم من سوء الابتداع.

وتلقى لوط من الملائكة الرسالة التي جاؤوه بها من عند الله ﴿٤﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴿٥﴾، لكنهم استثنوا من أهله امرأة لوط كما استثنى الله من أهل نوح ابنه وامرأته معاً، فكانا من المُغْرَقِينَ، وهذا الاستثناء هو قولهم فيما حكاه عنهم كتاب الله ﴿٦﴾ إِلَّا امْرَأَتَكَ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، فَلَمَّا جَاءَ امْرَأَتُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ، مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴿٧﴾.

وبعدما أُسْدِلَ الستار، على قوم لوط بما فعلوه من الفواحش والأوزار، عَقَّبَ كتاب الله على ذلك بما يفيد أن كل من عمل عملهم، وسلك مسلكهم، من الفسقة الظالمين، سيكون مهدداً بعذاب الله، وسيف العقاب مُصَلَّتْ على رأسه دائماً، إن لم يكن على الصورة التي عوقب بها قوم لوط، فعلى صورة أخرى لا يعلمها إلا الله، فللعذاب ألوان شتى، كما أن للزهر ألواناً شتى، فقال تعالى ﴿٨﴾ وَمَا هِيَ ﴿٩﴾ أي نعمة الله ﴿١٠﴾ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿١١﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ
يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ
ءَابَاؤُنَا وَأَنْ تَفْعَلَ فِيهِ ۖ أَمْوَالُنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لِأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ ۖ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ۖ

إِلَى مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
 وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
 وَيَقَوْمٍ لَا يَبْجُرُ مِنْكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ
 نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾
 وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾
 قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ
 فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾
 قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ يَتَّخِذُ مَوَّهُ وَرَاءَكُمْ
 ظَهْرِيًّا إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ إِعْمَلُوا
 عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوِّفَ تَعْمَلُونَ مِنْ يَأْتِيهِ
 عَذَابٌ مُخْزِيٌّ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَمَتَّجَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
 فِي دِپْرِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانَ لَمْ يَغْتَوَافِهَآ إِلَّا
 بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ
الْمُورُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَسْ
الرِّفْدِ الْمُرْفُودِ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُبْرِ نَقِصُهُ وَعَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آيَاتِنَا لِيَتَذَكَّرُوا مِنَ اللَّهِ مَنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ
أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُبْرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ
لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُوحِئُهُ إِلَّا
لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّي أَرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ، وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُودٍ﴾.

تتناول الآيات الكريمة في أكبر قسم من هذا الربع قصة شعيب عليه السلام مع قومه مدين، وفي هذه القصة نواجه نوعاً جديداً من المخالفات ارتكبه قوم شعيب وأسرفوا فيه إسرافاً بالغاً.

فبالإضافة إلى شركهم بالله، وما يترتب على الشرك وحده، وما ينبثق عنه من آفات وعاهات وتقاليد فاسدة، نجد أهل مدين قد بالغوا في استغلال الخلق وأكل أموال الناس بالباطل، فهم يطففون الكيل، ويطففون الوزن، ويبخسون الناس أشياءهم، وهم مثل فاضح للاستغلال المادي الفاحش الذي لا يرحم ولا يخجل،

ولا يتعفف ولا ينصف أحداً، الأمر الذي جعل شعبياً عليه السلام يرفع عقيرته ضد قومه، عملاً بأمر الله الذي لا يرضى عن الاستغلال والمستغلين، من أي جنس أو دين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّي أُرِيكُمْ بِخَيْرٍ ﴿١٠١﴾ أَي فِي مَعِيشَتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ، وَأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ زَوَالَ هَذَا الْخَيْرِ ﴿١٠٢﴾ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ، وَيَنْقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ أَي مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرَّبْحِ بَعْدَ وِفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿١٠٤﴾ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٥﴾.

غير أن المستغلين الشرهين من قوم شعيب لم يتمالكوا أنفسهم من الغضب والاستعلاء، وأخذوا يتبجحون بأن المال الذي يكتسبونه من تجارتهم هو مالهم الخاص، ولذلك فهم فيه أحرار يفعلون به ما يشاؤون، ويتصرفون فيه كيف يريدون، ورفضوا تقييد حريتهم بأي قيد في معاملاتهم التجارية التي اعتادوها، فهم حريصون على اكتساب أكبر ربح ممكن، بأقل عوض ممكن، وهم يعتبرون هذا الأسلوب في التجارة هو أسلوب التجار العقلاء الراشدين في معاملاتهم، وما دونه سفه وبله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم ﴿قَالُوا بِشُعَيْبٍ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴿١٠٦﴾، ثم يختمون ردهم عليه بقولٍ ظاهره المدح وباطنه القدح، فيقولون: ﴿إِنَّكَ

لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿١٠﴾، ومرادهم منه أن من يدعو إلى العدل والانصاف في البيع والشراء مثل دعوته يعدُّ في نظرهم جاهلاً وسفياً، لا حليماً ورشيداً، فالرشد في نظر المستغلين، تجاراً أو غير تجار، هو ابتزاز أموال الناس بأدنى مقابل، أو بدون مقابل بتاتا، وهذه سنتهم المتوارثة في كل عصر وجيل.

وقول أهل مدين لنبيهم شعيب ﴿١١﴾ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴿١٢﴾ [الآية: ٨٧] تتضمن نوعاً من الاستهزاء والتعبير، إذ كانوا متضايقين مما رأوه عليه من المواظبة على عبادة الله، والتضرع بين يديه، شأنهم في ذلك شأن خصوم الرسالات الإلهية في جميع العصور، الذين يتطرون بأهل الصلاح والتقوى، ويتضايقون من استقامتهم وثباتهم على الحق.

لكن شعبياً لا يسلك في الرد على قومه مسلكهم في المراء والاستهزاء، بل يرد عليهم الرد اللائق بمقام الأنبياء والمصلحين، مؤكداً لهم أن التعليمات التي بلغها إليهم عن ربهم ليست موجهة إليهم دونه، بل هو أول من ينفذها، وأنه ليس ممن يأمر بالبرِّ غيره، ثم ينسى نفسه ﴿١٣﴾ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ ﴿١٤﴾.

ثم عقب شعيب على ما دار بينه وبين كفار قومه بما يوضح الهدف الأساسي من كل رسالة إلهية بعث الله بها إلى الناس، وهذه الرسالة تتلخص أولاً وأخيراً في إصلاح أحوال الناس إصلاحاً شاملاً، تصلح معه عقيدتهم، وتصلح معه شريعتهم، ويصلح معه سلوكهم، ويصلح معه مجتمعهم، وتصلح معه

معاشهم، وتصلح معه علاقاتهم. وهكذا يتسرب الإصلاح إلى كل زاوية من زوايا حياتهم الظاهرة والباطنة، فيصبحون أمة فاضلة وصالحة، ويصبح مجتمعهم مجتمعاً فاضلاً وصالحاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا على لسان شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وها هنا كلمتان في غاية الأهمية لا بد من الوقوف عندهما ولو قليلاً، ألا وهما كلمة (الإصلاح) وكلمة (التوفيق). فكلمة الإصلاح تعني على العموم الإتيان بما هو صالح ونافع ومناسب، من الصلاح، ضد الفساد، وأصل معنى «الفساد» في لغة العرب زوال منفعة الشيء وتعذر المقصود منه، وأطلق الفساد في لسان الشرع على الشرك بالله الذي هو منبع جميع الضلالات والبدع، وعلى إيذاية الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] سواء كانت تلك الإيذاية عامة لمجموعهم، أو خاصة ببعضهم، فيكون الصلاح الذي هو ضد الفساد عبارة عن سلوك طريق الهدى والاستقامة، والعمل على نفع الخلق نفعاً عاماً أو خاصاً، ويكون (الصالح) هو الذي قام بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد.

والمراد بكلمة (التوفيق) هنا ضد الخذلان، من «الوقف بين الشئئين»، بمعنى التحامهما، ولم ترد كلمة التوفيق بمعنى عدم الخذلان في آية أخرى من كتاب الله. ونعمة التوفيق بهذا المعنى من أجل النعم التي أنعم الله بها على الخواص من عباده، فمن

رُزِقَ نعمة التوفيق فقد رُزِقَ خيراً كثيراً. قال حجة الإسلام الغزالي: «وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق، المراقب لدقائق الأحوال، وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعز هذا القلب في القلوب».

وبين كتاب الله أن شعبياً عليه السلام لم يتقهقر عن دعوته إلى الله، بل استمر ثابتاً عليها، داعياً إليها دون انقطاع، وقد حاول أن يستخلص العبرة لقومه مما أصاب الأقسام السابقة قبلهم، فهم يعرفون مصارعهم حق المعرفة، وعندهم من خبرها الشيء الكثير ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الإصرار والعناد، وكأنه يريد أن يقول لهم إني أخاف عليكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُؤُ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ، وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

إلا أنه بالرغم من جميع الجهود التي بذلها في سبيل هدايتهم واقناعهم بالحق أصروا على ما هم فيه، ولم يكتفوا بإصرارهم على الباطل، بل أطلقوا لألسنتهم العنان في الطعن على شعيب والطعن في دعوته، والتهديد له بالرجم إلى أن يموت، وذلك ما تشير إليه الآيات التالية: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي أن دعوتك لا يستسيغها عقل ولا يقبلها منطق ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ أي لا عصبية لك من كبار القوم ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي لولا أن لعشيرتك معزة عندنا، ومكانة خاصة بيننا، لقمنا بركمك، و«الرجم» أشق العقوبات

وأكثرها تعديباً ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ .

وما كان من شعيب عليه السلام إلا أن رد عليهم في حدود الأدب المعهود من الأنبياء ، وفي نطاق الدعوة المأمور بتبليغها عن الله ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أي رفضتم دعوته وعصيتم أمره ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

ولما انقطع كل أمل في قبولهم للإصلاح الذي جاءهم به شعيب عن الله تبرأ منهم ومن أعمالهم ، ووكلمهم إلى عذاب الله المرتقب ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن شعيب يحذرهم وينذرهم : ﴿ وَيَقَوْمِ إِعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ﴾ أي إعملوا على طريقتكم فأنا عامل على طريقي ، على غرار قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ [الشورى : ١٥] وقوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينٌ ﴾ [الكافرون : ٦] ثم مضى ينذرهم قائلاً : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾ أي ستعلمون من الكاذب فينا ومن المعذب ؟ هل أنا أم أنتم ، على غرار قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] ، ﴿ وَارْتَقِبُوا ، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ .

ثم انتهت قصة شعيب مع كفار أهل مدين بعدابهم وعقابهم ، واستئصالهم وإبادتهم ، ونجاة شعيب والذين آمنوا معه ، كما ينتهي كل صراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، باندحار الشر والباطل ، وانتصار الخير والحق ، وذلك ما يشير إليه قوله

تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جُثِيمِينَ، كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾ أي كأن لم يعيشوا فيها من قبل ﴿الَّا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾.

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى قصة موسى مع فرعون، فأوجز الإشارة إليها في هذا المقام دون تفصيل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرًا فِرْعَوْنَ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

وعقب كتاب الله على هذه القصص كلها بما يبرز العبرة من وقوعها أولاً، والتذكير بها ثانياً، فقال تعالى: ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي منها ما لا تزال أطلاله قائمة تشير إلى نقمة الله وعذابه، ومنها ما حلَّ به الخراب والدمار فلم يبق منه عين ولا أثر ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ﴿وَكَذٰلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ
 شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا
 زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٥٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٥٧﴾ وَأَمَّا
 الَّذِينَ سَعَدُوا فِيهِ أُولَئِكَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٥٨﴾
 فَلَا نَكَ فِي مَرِيَّةٍ تَمَّاعِبُدُ هُوَ لاءِ ما يعبدون إِلَّا كما يعبداء أباءهم
 من قبل وإنا لمؤفوههم نصيبهم غير منقوص ﴿١٥٩﴾ ولقد اتينا
 موسى الكنب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لفضى
 بينهم وإتهم في شك منه مريب ﴿١٦٠﴾ وإن كلاً لما ليوفيتهم
 ربك أعمالهم وإتو بما يعملون خير ﴿١٦١﴾ فاستقم كما أمرت

وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا نَطَعُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَرْكَبُوا
 إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ
 ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ
 اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٥﴾
 وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَلَوْلَا كَانَ
 مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
 الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ
 رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٩﴾
 إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ
 جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ
 مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
 وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا
 عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٣﴾
 وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ

مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ

أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءُوسَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا

إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنَبِيكَ

رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي

يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْمُتَلَدِّينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ

أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيِّكُمْ وَتَكُونُوا

مِنَ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة هود المكية: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ونهايته قوله تعالى في سورة يوسف المكية أيضاً: ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن يوم القيامة، وقد بدأ الحديث عن هذا اليوم الموعود في نهاية الربع الماضي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ، وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾. ثم تلا ذلك قوله تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [الآية: ١٠٥]. وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة مرتبطة بعضها ببعض، لأنها في موضوع واحد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ يماثله في

المعنى قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩]. وهذا المعنى الذي تتضمنه كلتا الآيتين تؤكدُه عدة آيات أخرى في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ [التغابن: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ لَئِن لَّمْ يَكُنِ الْفُضْلُ لَنَا لَأَضْحَمَنَّكُمْ وَالْعُنَتُ لِلَّهِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ يظهر أن فيه وصفاً لكيفية تنفس الأشقياء في جهنم، وأنه على خلاف ما هو معتاد في تنفس الكائنات الحية، كأن تنفس الأشقياء في جهنم يسبق فيه «الزفير» الذي هو دفع النفس إلى الخارج، على «الشهيق» الذي هو أخذ النفس إلى الداخل، بينما التنفس العادي للكائنات الحية يسبق فيه «الشهيق» الذي يأخذ به الكائن الحيّ حظه من الهواء المنعش إلى داخل الجسم، على «الزفير» الذي يدفعه الكائن الحيّ من الداخل إلى الخارج بعد أخذ حاجته منه. وفي هذا الوصف لتنفس الأشقياء في جهنم

إشارة إلى ما يعانونه من ضيق واختناق، حتى كأن صدورهم تغلي غليان المرّجل، وعلى العكس من ذلك يكون حال السعداء في الجنة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِالْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دون أن يتعرضوا لأي شيء من هذه الأعراض الغريبة.

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الوارد في سياق كل من السعداء والأشقياء، في تفسيره تأويلان مختلفان:

التأويل الأول: أن المراد (خالدين في الجنة أو في النار ما دامت سماوات الآخرة وأرضها) لأن الآخرة هي دار الخلود. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وإلى هذا التأويل ذهب ابن عباس حيث قال: «لكل جنة سماء وأرض»، والحسن البصري حيث قال: «سما غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، والخلود في الجنة أو في النار ما دامت تلك السماء وتلك الأرض». وإلى هذا التأويل مال ابن كثير في تفسيره حيث قال: «قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾» [إبراهيم: ٤٨] وبه أخذ القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) إذ قال: «وجوابنا أن للنار سماء وأرضاً، وكذلك الجنة، ولا يفنيان، فهذا هو المراد».

التأويل الثاني: أن المراد هو مجرد التأبيد والدوام، على حد قول العرب: «هذا دائم دوام السماوات والأرض أو باقي ما

لاح كوكب، وما ناح الحمام». وإلى هذا التأويل ذهب ابن جرير وابن جُزَيّ في تفسيريهما.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في سياق الكلام على الذين شَقُّوا وارد مورد الاستثناء من قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوِيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ويشبهه قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال ابن كثير ما خلاصته: «اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاهما الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (زاد المسير)، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه. واختار ابن جرير ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة، وابن سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً أن الاستثناء (يَعْنِي) «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ»، الوارد في سياق الحديث عن الأشقياء) عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين، من الملائكة والنبئين والمومنين، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها». قال ابن كثير: «وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة».

ويمكن حمل الاستثناء الوارد في هذا السياق على طريق التأدب مع الله، كقولك «إن شاء الله» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الآية: ١٨٨]، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الآية: ٤٩]، وقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الآيتان: ٦، ٧].

وقوله تعالى تعقيباً على حكمه في شأن الأشقياء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إشارة إلى أن الإرادة الإلهية نافذة لا يلحقها أي خلل أو أي تعطيل، فقد بعث الله إلى الناس الرسل، وأقام عليهم الحجج، وأندرهم سوء العاقبة، وها هو يثبت لهم أن الأمر جد لا هزل، وأن قوله قول فصل، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] وبذلك يكون عذابهم مطابقاً لمقتضى العدل، ومنسجماً مع روح الحكمة.

وقوله تعالى تعقيباً على وصفه لحال السعداء: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ أي عطاء غير مقطوع، فيه طُمَأْنِينَةٌ لقلوبهم، وتطيب لخواطرهم، ورفع لأثر التَّوَهُّم الذي يُشْعِر به الاستثناء الوارد أيضاً في سياق الحديث عنهم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إذ أن ظاهره يوهم احتمال انقطاع العطاء الإلهي عنهم، حيث أن ذلك العطاء ليس أمراً واجباً على الله، وإنما هو موكول إلى مجرد مشيئته، ومحض منته، ولا يبعد أن تكون الحكمة في هذا الاستثناء بالنسبة للسعداء،

هي أن تبقى قلوبهم معلقة بين جناحي الخوف والرجاء.

وذهب الضحاك والحسن البصري إلى أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ الوارد في سياق السعداء هو منصبٌ على عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها بعد العذاب، إذ أن هؤلاء لا يصدق عليهم ما يصدق على السعداء الأصليين الذين لم يروا العذاب أصلاً، من أنهم في الجنة خالدون، لأن عصاة الموحدين يمرون بالعذاب الأليم أولاً، ولا ينالهم عفو الله إلا أخيراً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَاتُكَ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحَتِهِمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ تعريف من الله تعالى لرسوله بأنه سيوفيهم جزاءهم، طبقاً لما يقع عليه اختيارهم، وتكسبه أيديهم من الهدى أو الضلال.

و «المِرْيَةُ» هي الشك، والنهي عن الشك الوارد هنا في قوله تعالى: ﴿فَلَاتُكَ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ وإن كان في ظاهره موجهاً للرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه موجه في الحقيقة إلى غيره من أفراد المدعوين والمكلفين، الذين يُتَصَوَّر في حقهم وجود الشك، والمطلوب منهم الوصول إلى اليقين، لتمييز الحق من الباطل، نظير قوله تعالى في آية سابقة وجّه فيها الخطاب إلى الرسول، والخطاب في الحقيقة موجه إلى بقية الناس ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] والنبي لم يشك ولم يسأل.

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ أمر من الله لرسوله والمومنين بالثبات على الصراط المستقيم، ونهي من الله للمومنين عن البغي والطغيان، والظلم والعدوان، ولو كان من يقع عليه البغي والظلم مشركاً. وللتحذير من الإقدام على الظلم والتورط في نتائجه قال تعالى عقب النهي عنه: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ بمعنى أنه يراقبكم ويراقب أعمالكم.

ثم وجه الحق سبحانه وتعالى خطابه لرسوله والمومنين من جديد، يأمرهم بالابتعاد عن موالاته الظلمة، وبالحد من إعانتهم على الظلم بأي وجه من الوجوه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ ولا يدخل في (الركون) مجرد المخالطة والمعاشرة دون عون ولا تأييد، كما نص عليه القاضي عبد الجبار.

وبين كتاب الله أن الله وحده هو الذي يجب أن يكون وليّ الذين آمنوا، يوالونه وينصرونه، ويقفون بجانب أوامره دائماً، لأن غير الله وإن تولّوه فلن يكون لهم ولياً، إذ ليس بيده ضر ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، وإذا اعتمدوا على غير الله وكلهم الله إلى أنفسهم، وخذلم خذلاناً مبيناً ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ ذكر ابن كثير أن هذه الآية يحتمل أن تكون نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، حيث لم يكن يجب من الصلوات

إلا صلاتان في النهار وقيام الليل.. وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «لا خلاف أن هذه الآية تضمنت الصلوات الخمس، والذي نختاره أنه ليس في النهار من الصلوات إلا الظهر والعصر، وباقيها في الليل، فزُلف الليل ثلاثة: في ابتدائه، وهي المغرب، وفي اعتدال فحمته، وهي العشاء، وعند انتهائه، وهي الصبح».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ عقب الأمر بالصلاة مباشرة، شبيه بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالصلاة إذا أقيمت على الوجه الأكمل هي أحسن الحسنات، وهي أكبر مطهر ومكفر للسيئات، بما تعين عليه من محاسبة النفس على الأوزار، وما تدفع إليه باستمرار من التوبة والاستغفار. جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن بياب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقي من ذرته شيئاً؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا» رواه مالك في الموطأ، والبخاري في الصحيح، والترمذي في السنن، وأحمد في المسند. وروى الإمام أحمد من حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». والمراد «بالنهر الغمر» في حديث أبي هريرة: كثير الماء.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى قادر على أن يضطر الناس جميعاً إلى

الإيمان بعقيدة واحدة، والسير في طريق واحد، لو كان يريد أن يخلق الناس على نمط الطبيعة الآلية المجردة، ولو كان يريد أن يجرمهم من أخص خصائص الإنسان، التي هي خَصِيصَةُ التمتع بالإرادة والحرية، وبملكة التفكير والتقدير والاختيار، لكنه سبحانه خلقهم أناسيَّ مَجْهَزين بعقل وتفكير، وإرادة واختيار. والنتيجة الطبيعية لخلقهم على هذه الصورة هي اختلاف منازعهم، واختلاف مشاربهم، واختلاف اختياراتهم، وتبعاً لذلك اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، وتعدد مللهم وأديانهم، وبهذا التفسير يتضح معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي خلقهم على صورة خاصة ميّزهم بها عن بقية الحيوانات، وهذه الصورة تقتضي بطبيعتها أن تختلف آراؤهم، فالخلاف مآلها، لأنه أثر من آثارها، ومن هنالك كان في الناس شقي وسعيد، ومومن وكافر ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء متصل، أي إلا من رحم ربك فإنه لا يختلف، والمراد به من التزم دعوة الأنبياء والرسل، وآمن بها دون أن يشوبها بأية بدعة أو ضلالة، ولا أن يُدخِل عليها أي تغيير أو تبديل. وبعبارة أدق: من اختار لنفسه سيرة الرسول وأصحابه، فتمسك بها دون أن يحيد عنها وكان من حزب الله، الموعود بالفلاح والفوز والنجاة.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ خطاب من الله لرسوله يتضمن بيان حكمته فيما يقصه

عليه من أخبار الأنبياء والرسل السابقين، فهو يضرب له المثل بهم، ويحضه على التأسى والافتداء بسلوكهم، ويعرفه بحسن عاقبتهم، ومصير المكذابين لهم من قومهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى هذه السورة الكريمة - سورة هود - التي قال عنها الرسول الأعظم ﷺ: «شَيِّتَنِي هُودُ وَأَخْوَاتُهَا».

وختمت سورة هود بخطاب من الله لرسوله يأمره فيه بمواصلة عبادته لله في جميع الحالات، وبالإعتماد عليه في جميع الخطوات، ويتعهد له مرة أخرى برعايته وعنايته في المنشط والمكروه والسراء والضراء، فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وبختم سورة هود ننهي حصة اليوم لطولها، مؤجلين القول في الآيات الأولى من سورة يوسف - وإن كانت مندرجة في هذا الربع - إلى الحصة المقبلة إن شاء الله، وكل آتٍ قريب.

الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَفْتُلُوا يُوسُفَ
وَأَقْوَاهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿١٥﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
لَنَصِحُونَ ﴿١٦﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزِنُنِي أَنْ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ
أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّيبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا
لِيْنِ أَكَلَهُ الذِّيبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٩﴾
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾
وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّيبُ

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى
 قَمِيصِهِ يَدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
 فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ
 سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْبَى دَلْوَهُ، قَالَ يَبْشُرِي هَذَا
 عُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ
 بِشْمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَأُوفِيهِ مِنَ الزَّهْدِ بَنٍ ﴿٢٠﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ اشْتَرَيْهِ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتَهُ أَكْرَمٌ مَثْوِيهِ
 عَبَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ، وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
 فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ، مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ
 عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
 أَشُدَّهُ، وَءَاثِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾
 وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ
 وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ
 لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ
 رَأَى ابْرَاهِيمَ رَبَّهُ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
 إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ،

مِنْ دُبُرٍ وَأَفْيَاسِيَدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
 بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ قَالَ هِيَ
 رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِيَّ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ
 قَيْصُوهُ، قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾
 وَإِنْ كَانَ قَيْصُوهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصُوهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
 مِنْ كَيْدِ كُنَّ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ
 هَذَا وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٩﴾
 وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ بِامْرَأَتِ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ
 نَفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾
 فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا
 وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا
 رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا
 إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمُتْنِي فِيهِ وَلَقَدْ
 رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمِّهِ، لَيُسْجَنَنَّ
 وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَ مِّنَ الصَّغِيرِينَ ﴾.

لأجل أن نفهم الآيات الكريمة الواردة في هذا الربع لا بد لنا من الرجوع إلى ما سبقها من الآيات التي أجلنا القول فيها إلى هذه الحصة، ابتداءً من مطلع سورة يوسف المكية، وأول ما نلفت إليه النظر سبب تسميتها «بسورة يوسف»، فقد تناولت قصة يوسف مع اخوته بالتفصيل، وتردد فيها اسم يوسف خمساً وعشرين مرة، وفي قصة يوسف قال رسول الله ﷺ كما رواه أحمد وانفرد بإخراجه البخاري: «الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم».

ومن المناسبات الطريفة بين بداية سورة يوسف ونهاية سورة

هود، وما يوجد بينهما من علاقة وارتباط، أن كلا منهما تناول بالذكر والتنويه موضوع القصص التي يقصها كتاب الله، وما فيها من عبر وحكم، فقال تعالى في بداية سورة يوسف: ﴿الرَّ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي من الغافلين عن هذه القصة وما شاكلها، كما قال تعالى في نهاية سورة هود التي سبقتها: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. والقصص (بفتح القاف) لفظ مفرد يكون مصدرًا ويكون اسم مفعول بمعنى المقصوص، والقصص (بكسر القاف) جمع قصة ومثلها أقاصيص.

وقد خصَّ القاضي عبد الجبار من بين سور القرآن جميعاً سورة يوسف بمقدمة نفيسة تولى فيها تحليل هذه السورة، ولفت الأنظار إلى ما فيها من مواطن العبرة والتدبر، فقال رحمه الله: «أول ما نذكر في هذه السورة أنها مشتملة من آداب الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن آداب الأخلاق، والتمسك بالصبر والحلم، وتوقع الفرج بعد حين، والتشدد في الصبر على المعاصي واحتمال المكاره، على ما لو تأمله القارىء، وتمسك بكلمه أو بعضه، لعظم موقع ذلك في دينه ودينه».

«فليتأمل القارىء أولاً رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر، وأن أباه، صلى الله عليهما، كيف تقدم بكتمان ذلك عن إخوته، والصبر في كتمان ذلك صعب، فاحتمله تحرزاً من

حسدهم» ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ، قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ
رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ﴿

«وليتأمل ثانياً كيف جاد به على إخوته، لثلا يستوحشوا، وظنَّ
السلامة، مع خوفه منهم عليه، حتى أقدموا على ما أقدموا» ﴿ إِذْ
قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنَّا بَعْدَهُ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿

«وليتأمل ثالثاً أنه بعد ظهور ذلك منهم كيف احتملهم، ولم
يجازهم على ما فعلوه، بقطعهم وإخراجهم عن محبته، وعن
النظر لهم» ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ،
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿

«وليتأمل رابعاً صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز،
كيف تشدَّد في الاحتراز عنها، واحتمل لذلك الحبس الطويل،
حتى كانت عاقبة صبره ما حصل من اعتراف الكل بصيانتته
ووصوله إلى الملك والبعية» ﴿ وَرَوَدَتْهُ التِّي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ
وَعَلَقَتِ الْآبَوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ
مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿ - ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ
مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ
الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿ - ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ، قُلْنَا حَشْ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّحْصُ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ - ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، أَنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿ - ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿ - ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ .

«وليتأمل خامساً ما دُفِع إليه إخوته في تلك السنين الصعبة، من التردد إلى يوسف، يطلبون من جهته القوت، واحتمالهم لما عاملهم به ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿ - ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿ .

«وليتأمل سادساً كيف صبر عليهم، وكيف احتمل في تخليص أخيه إلى حضرته، واحتباسه عنده على مهل، وقد كان يمكنه التعجل» (واسم أخيه هذا بنيامين، وكان أصغر من يوسف) - ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ .

«وليتأمل سابعاً كيف حسنت معاملته مع إخوته حين ظفروا بهم، وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به، ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ

مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، قَالُوا أ. نَكَ لَأَنْتَ
يُوسُفُ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ
وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ - ائْتَرَكَ اللَّهُ
عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ، قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ، الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ
لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٠﴾.

«وليتأمل ثامناً كيف توصل إلى إزالة الغمة عن قلب أبيه،
وصبر إلى أن ظفر بالوقت الذي أمكنه فيه إحضاره عنده على
أحسن الوجوه» ﴿١٠﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ
ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ، وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا
لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ يَا بَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي
حَقًّا ﴿١١﴾.

«وليتأمل تاسعاً كيف كان صبر يعقوب عليه السلام في بابه، وفي
باب غيبة أخيه، وهو كالراجي لعودهما إليه واجتماعه معهما»
﴿١١﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَنْ
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ يَنْبِئِي أَذْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا
يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾.

«وليتأمل عاشراً كيف قبل يوسف عذر إخوته، وقد اعتذروا
إليه، مع تلك الجنایات العظام» ﴿١٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ - ائْتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿١٥﴾ فكان جوابه ﴿١٥﴾ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ، الْيَوْمَ
يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٦﴾.

«وليتأمل حادي عشر كيف قبل يعقوبُ أيضاً عذرهم» ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ وزاد بأن قال ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، «إلى وجوه آخر تركنا ذكرها» .

ثم إنه تعالى قال في آخر السورة لرسوله ﷺ ولجماعة المكلفين: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ فنبه بذلك على وجوب التمسك بهذه الأخلاق والآداب . وكذلك قال تعالى في أول السورة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ لأن النفع يعظم بذلك لمن تأمله» .

«وهذا معنى قوله ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] لأن من تدبر القرآن، وتمسك بأحكامه وآدابه وأخلاقه، انفتح قلبه للخيرات ديناً ودنياً، فإذا قرأه من غير تدبر يصير قلبه كأن عليه قفلاً لا يتغير عما هو عليه، فهذه المقدمة التي قدمناها في هذه السورة تنفع فيها وفي القرآن» . انتهى نص المقدمة النفيسة التي قدم بها القاضي عبد الجبار سورة يوسف، وقد وضعنا بجانب كل نقطة منها ما يناسبها من الآيات .

والآن فلنقف وقفة مناسبة عند جملة من الآيات الكريمة في هذه السورة بقدر ما يتسع له الوقت .

فقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ معناه اذكر يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه (الآية) .

وقال ابن عباس: «رؤيا الأنبياء وحي». وقد تكلم المفسرون على تعبير هذه الرؤيا فقالوا إن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوة يوسف، وكانوا أحد عشر أخاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، ووقع تفسير هذه الرؤيا بعد أربعين سنة، وذلك حين رفع يوسف أبويه على العرش - وهو سريره الذي كان يجلس عليه لمباشرة شؤون الدولة - وإخوته بين يديه ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وَقَالَ يَأْتِبَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿.

وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ دليل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا، وأنها ترمز إلى ظهور يوسف على إخوته وتقدمه عليهم، ولذلك نهى ابنه يوسف عن ذكرها لإخوته، وأمره بكتمانها عنهم، خوفاً من أن يحتالوا للقضاء عليه والتخلص منه.

وخوف يعقوب من كيدهم إما أن يكون مبنياً على حكم العادة الشائعة بين بعض الإخوة وبعض الأقرباء إذا كانوا غير أشقاء، وإما أن يكون مبنياً على شعوره بغيرة إخوته منه وكرههم له، نظراً لشغف أبيه به دونهم. أما يعقوب نفسه فلم يبال بما ترمز إليه الرؤيا من علو مقام ابنه يوسف، لأن الأب يود عادة أن يكون ابنه خيراً منه، ولا يضيق بذلك صدرًا. قال ابن كثير: «ومن هنا - أي من قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ - يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث (استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ

الاحاديث، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴿ [الآية : ٦] حكاية لما قاله يعقوب لابنه يوسف، متنبئاً بما سيؤول إليه أمره في مستقبل الأيام.

وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف في شأن أبيهم يعقوب: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، إشارة إلى أنه كان لا يُنزلهم من نفسه منزلة أخيهم يوسف، بينما محل الولد من أبيه هو أن ينزله منزلة سائر أولاده دون تفضيل، فالمراد هنا «بضلاله» افراطه في حب يوسف وأخيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [الآية : ١٦] قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «فيه دليل على أن بكاء المرء لا يدل دائماً على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً، ومن الناس من يقدر من التطبع على ما يشبه الطبع».

وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا ﴾ [الآية : ١٧] تضمن إشارة إلى السباق، والأصل فيه الجري على الأقدام لمعرفة السابق من اللاحق، والسباق مندوب إليه شرعاً، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيله، فروي أنه سابق عائشة فسبقها، وأنه سابقها فسبقته، فقال لها هذه بتلك، وروى أنه سابق بين الخيل التي أُضْمِرَت، من الحفّاء إلى ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضْمَر، من الثنية إلى مسجد بني زريق، وفي ذلك من الفوائد رياضة النفس والدواب، وتدريب

الأعضاء على التصرف، ولا مسابقة إلا بين الخيل والإبل خاصة».

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ الْاِنْفُسُكُمْ اَمْرًا ﴿ [الآية : ١٨] إشارة إلى الدم الذي أراد إخوة يوسف أن يجعلوه علامة على صدقهم، لكن القميص كان سالماً من التمزيق. قال ابن عباس: لو أكله السبع لخرق القميص، والعلامات إذا تعارضت تعين الترجيح، فيقضي بجانب الرجحان، ولا خلاف في الحكم بالتهمة إذا ظهرت، كما أشار إلى ذلك يعقوب عليه السلام فيما حكته عنه الآية: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ الْاِنْفُسُكُمْ اَمْرًا﴾ إذ أن إخوة يوسف لم يكن من فعلهم ما يناسب الشفقة عليه، فيشهد بصدقها، بل كان الذي سبق منهم هو تبرئهم به، كما نبه إليه القاضي أبوبكر (ابن العربي).

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ السَّيَّارَةُ هنا مؤنث سيار، والمراد بها القافلة من المسافرين، و(الوارد) هنا هو الذي يستقي الماء للجماعة.

وقوله تعالى: ﴿وَشَرَّوهُ﴾ - أي باعوه - ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَّهَمٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ عبارة عن قلتها، وهو يفيد أن الأثمان عندهم كانت تجري عدداً لا وزناً، ولا شك أن في العدد تخفيفاً عن الخلق، لكثرة المعاملة ومشقة الوزن.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَاوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ المراد بالأرض هنا أرض مصر، والمراد

«بتأويل الأحاديث» البراعة والاصابة في تعبير الرؤيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى عزم امرأة العزيز على الإيقاع بيوسف في شركها، لكن يوسف لم يقع في ذلك الشرك بإعانة الله له، فتغلب على حديث النفس الذي لم يبلغ إلى درجة العزم، وحصّنه الله من الوسواس الخناس، وصرفه عن السوء والفحشاء. والتعبير بلفظ «همّت به» و«همّ بها» بالنسبة لكل من الاثنين إنما هو من باب (المشاكلة) اللفظية لا غير، لاختلاف الموقفين واختلاف المعنيين. قال ابن جُزَيّ في تفسيره: «أكثر الناس الكلام في هذه الآية حتى ألفوا فيها التآليف، فمنهم مفرط ومفرط، والصواب إن شاء الله أنها همت به من حيث مرادها، وهمّ بها كذلك لكنه لم يعزم، بل كان همه خَطْرَةٌ خَطَرَتْ عَلَى قلبه لم يُطْعَمْها ولم يتابعها، ولكنه بادر بالتوبة عن تلك الخَطْرَةِ حتى محاها من قلبه، لما رأى برهان ربه، ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾».

الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

قَالَ رَبِّ السَّبْحُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي
 إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ
 الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ
 هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوْا آيَاتِ
 لَيْسَ جُنَّتْهُ وَحَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّبْحُ فَذِينَ قَالَ
 أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِيتِي أُعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِيتِي أُحْمَلُ
 فَوْقَ رَأْسِهِ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَاوِيلِهِ ؕ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقْنِيهِ ؕ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا
 بِتَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ
 قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾
 وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ

لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَاكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السَّبْحُ
ءَازْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَمَا آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَاكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السَّبْحُ أَمَّا أَحَدُكُمَا
فَيَسِّقِي رَبَّهُ وَخَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ
مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِينَ ﴿٤١﴾ وَقَالَ
لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْبِيَهُ
الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَيْثَ فِي السَّبْحِ بَضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ
عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ

فَأَرْسَلُونَهُ ﴿١٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ بَابِ سِتِّ
لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ
دَابَأَهَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ
النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ لِيَتُونِي بِهِ فَأَمَّا جَاءَهُ
الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ
رَأَوْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ
مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنِّي حَصَّصْتُ لِحَقِّهِ ثَوْبًا مِثْلَ
عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصِّدِّيقِينَ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي
لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْعَجْبَانَ ﴿٢٢﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنَنْ حَاصِحَصَ الْحَقُّ، أَنَا زَوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾.

ترتبط الآية الأولى من هذا الربع ارتباطاً وثيقاً بالآيات السابقة قبلها في نهاية الربع الماضي، ذلك أن امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه فصرف الله عنه السوء والفحشاء، ابتدأت تَرُوجُ الإشاعات عن مراودتها له بين نسوة كبار القوم، مع توجيه اللوم لها والتشنيع عليها سراً.

وسعيّاً منها في إيقاف تلك الإشاعات عند حدها، والقضاء عليها في مهدها دعتهن إلى مأدبة في قصرها، وكان من جملة ما قدمت إليهن في تلك المأدبة فواكه وسكاكين صغيرة معدة

لتقشيرها وقطعها، وعندما كانت بأيديهن الفواكه والسكاكين الخاصة بها، أمرت فتاها يوسف - وكان إذ ذاك لا يزال مملوكاً لزوجها - بالخروج فجأة على النسوة الحاضرات والمرور أمامهن، فما كاد يُباغتهن يوسف مقبلاً ومدبراً، حتى بُهتَ ضيوف امرأة العزيز من مرآه، وجَرَحَنَ بالسكاكين أيديهن، بدلاً من تقشير الفواكه، دون شعور منهن، وعند ذلك اتجهت إليهن امرأة العزيز، مبررةً أمامهن ما وقع لها قبلهن من الشغف به، ثم أخبرت ضيوفها بأنها قد راودته فعلاً، لكنه امتنع امتناعاً باتاً، ومضت في حديثها أمامهن تهدده بالسجن والإهانة إن لم يفعل ما تأمره به، ولم يلبث ضيوفها من النساء أن عذرنها ووقفن إلى جانبها ينصرنها، ويطالبن يوسف معها بإلحاح أن يستجيب لامرأة العزيز، وأن يحقق رغبتها، وذلك بعدما كنَّ يُلْمَنها قبل رؤية يوسف، لكنَّ يوسف لم يتراجع عن موقفه أمام تهديد امرأة العزيز، ولا أمام إغراء ضيوفها، وأصرَّ على الاعتصام بحبل التقوى والعفاف، وأخذ يتضرع إلى الله أن يصرف عنه كيد امرأة العزيز وصاحباتها حتى لا يقع في الشرك.

وإلى هذا الجزء من قصة يوسف تشير الآيات الكريمة التالية: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَيْسَرُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ والمراد «بالتفتي» هنا الخادم المملوك ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا ﴾ أي أعدت لهن مجلساً مفروشاً ﴿ وَعَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتُ اخْرِجْ عَلَيْنَ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمن شأنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي حزنن أيديهن بالسكاكين،

من فرط الدهشة وشدة الإعجاب ﴿ وَقُلْنَ حَسْبَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً لله وتعجباً من قدرته على خلق مثل يوسف ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي طلب العصمة وامتنع مما أردته منه ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي يعامل بالصغار، والإهانة والاحتقار ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ . يقال صَبَا يصبو إذا مال إلى الشيء ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وقول يوسف هنا فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ - إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ لا يقصد من قوله (أحب) المعنى الحقيقي للتفضيل، وإنما هو وارد هنا على غرار قول القائل: «الجنة أحب إلي من النار، والعافية أحب إلي من البلاء» .

إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد أخذ خبر امرأة العزيز يزداد انتشاراً، ورأى العزيز وصحبه أنه لا بد من اتخاذ تدبير زجري ضد يوسف، ولو كان هذا التدبير تدبيراً ظالماً، وذلك دفاعاً عن شرف امرأة العزيز، وصرفاً للأنظار عنها إلى تثبيت التهمة في يوسف، رغم براءته عندهم وعند الله ، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

ومن حكم الأقدار أن يوسف دخل السجن معه فتيان آخران، وكلاهما من فتیان قصر الملك، وكانا يصحبانه ويرافقانه في

السجن، وأدرك أن ليوسف مواهب خاصة، وأن له قدرة على تعبير الرؤيا، فقصاً عليه ذات يوم رؤياهما، وكانت رؤيا الأول أنه رأى نفسه يعصر خمراً، فعبر له رؤياه بأنه سيفارق السجن بعد قليل، وسيستقي بعد إطلاق سراحه سيده خمراً ويكون ساقية الخاص، وطلب إليه إذا عاد إلى القصر أن يذكر لملكه أمر يوسف ويحدثه عنه، عسى أن ينصفه من امرأة العزيز ويطلق سراحه.

وانتهز يوسف فرصة اهتمام صاحبيه في السجن بتعبير رؤياهما وإصغائهما إليه، ليحدثهما بشيء من عقيدته ودينه، وهما أهم شيء لديه، عسى أن يهتديا على يديه إلى عقيدة التوحيد، وينصرفا عن عبادة الأصنام والأوثان. غير أن الفتى الذي فارق السجن ما كاد يعود إلى قصر سيده حتى نسي وصية يوسف الذي عبر له رؤياه، فلم يذكر لملكه أمر يوسف، ومضت سنوات أخرى على يوسف وهو في السجن دون أن يتذكره أحد، إلى أن رأى ملك مصر نفسه رؤيا أقضت مضجعه، وأثارت وساوسه، فأخذ يبحث عن من يعبرها له التعبير اللائق. وعندئذ تذكر ساقية الخاص - وهو الفتى الذي كان في السجن مع يوسف، والذي عبر له يوسف رؤياه تعبيراً صادقاً - أن يوسف لا يزال في السجن، وأنه أحسن من يعبر لملك مصر رؤياه، فاستأذن سيده، وذهب إلى السجن يسأل عن يوسف ويعرض عليه رؤيا الملك، فما كان من يوسف إلا أن عبر له الرؤيا أحسن تعبير، وما كان من ملك مصر إلا أن دعاه إلى مجلسه، لكن يوسف أصر على عدم مغادرة السجن إلا بعد نظر الملك نفسه في قضيته، وإعلان براءته، واعتراف الجميع

بعفته وعصمته، وذلك ما تشير إليه الآيات الكريمة: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيْنِ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِئِنِّي أَخْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِئِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَاوِيلِهِ، إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقُنِيهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَصْحَبِي السَّجْنِ آرِبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا مِ اللَّهِ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَصْحَبِي السَّجْنِ أُمَّةٌ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِينَ، وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴿ أَيُّ عِنْدَ سَيْدِكَ، لَكِنْ ذَلِكَ الْفَتَى نَسِيَ أَمْرَ يَوْسُفَ بِمَجْرَدِ مَا فَارَقَ السَّجْنَ ﴿ فَانْسِيَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿ أَيُّ قَضَى يَوْسُفَ فِي السَّجْنِ سِنُونَ أُخْرَى مِنْ جَرَاءِ نَسْيَانِ صَاحِبِهِ لَهُ وَإِهْمَالِ أَمْرِهِ ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴿ أَيُّ تَذَكَرَ بَعْدَ مَدَّةٍ ﴿ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَاوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

أما رؤيا الملك فخلاصتها أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات مهازيل، ضعاف في غاية الهزال، كما رأى

سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات، وهذه الرؤيا هي التي جاء يعرضها على يوسف رفيقه في السجن من قبل، ذلك الرفيق الذي أصبح ساقياً للملك عقب إطلاق سراحه، فقال له فيما حكته الآيات الكريمة ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فما كان من يوسف عليه السلام إلا أن أفتاه في أمر هذه الرؤيا وعبرها له أصدق تعبير، مبيناً للملك وملائته أنهم سيستقبلون سبع سنوات كلها رخاء وخصب، تزدهر فيها الحقول، وتزكو الغلات، ويصفو العيش وتطيب الحياة، ثم يستقبلون في أعقابها سبع سنوات من الجذب والقحط، لا يفي فيها (النيل) بوعده، ولا يمدهم برفده، ولا يجدون قائماً يحصد، ولا حصيداً يُحزَن، ثم بعد سنوات الجذب السبع يُظلمهم عام خصيب يغاثون فيه، فتجود عليهم الأرض بما يأكلون، ويجدون ما يأندمون به ويعصرون، ومنبهاً لهم في نفس الوقت إلى أنه من الخير لهم أن لا يأكلوا كل ما يأتيهم من محاصيل سنوات الرخاء، وأن يدخروا أكبر قسم منها في أهرائهم ودورهم دون أن يُخرجوه من سنابله، حتى يبقى مصوناً فيها من فعل الحشرات وفعل الرطوبة، وذلك احتياطاً لسنوات الجذب التي تليها.

وهذه المعاني هي التي تشير إليها بقية الآيات الكريمة: ﴿قَالَ﴾ أي يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي على الدوام وبغير انقطاع، من (دأب) على العمل إذا داوم عليه ﴿فَمَا

حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٠٠﴾ أي اتركوه بعد الحصاد في سنبله غير مدروس، ولا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون لأكله، علماً منه بأن الحبة إذا بقيت في غشائها انحفظت، وهذا المعنى يتفق معه ما وصل إليه العلم الحديث، من أن ترك الحَبِّ في سنبله عند تخزينه فيه وقاية له من التلف، الذي يحدث عادة بسبب العوامل الجوية وغيرها من الآفات. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي ثم تأتي بعد ذلك سبع سنين ذات شدة وجوع، تستهلكون فيها ما ادخرتموه في سنبله من سنوات الرخاء السبع، إذ تجدونه صالحاً للأكل والاقتيات ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي لا يفضل لكم مما كنتم خزنتموه وادخرتموه إلا القليل ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الغيث بمعنى المطر، أو من الغوث بمعنى الفرج ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ إشارة إلى ما سيكون فيه من غلات صالحة للعصر في المعاصر كالزيتون والعنب والسَّمْسِم.

فلما بلغ ساقى الملك الخاص إلى سيده تعبير يوسف لرؤياه، وفطن لما في تعبير يوسف من نصح بالغ وحسن تدبير، أدرك أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن يوسف ليس شخصاً عادياً، فبالإضافة إلى عفته التي يعلم عنها الحقيقة ها هو يخترق حُجُب الغيب بما علمه الله من تأويل الأحاديث، وها هو يرى البعيد قريباً، ولا يكون في النهاية إلا مصيباً ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿١٠١﴾ أَي سِيدِكَ ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فلم يسع

الملك إلا أن يدعو امرأة العزيز وصاحباتها، ويحقق معهن بنفسه من جديد ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، فكان جوابهن تأكيداً لعفته، وإعلاناً لبراءته ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تبرئة ليوسف ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ ، قالت امرأت العزيز الن حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴿ أي تبين وظهر ﴾ ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي من الصادقين في كونه بريئاً من مراودتي، أو محاولة الاعتداء على كرامتي .

ومضت توضح السر في اعترافها بمحاولتها مع يوسف دون أدنى نتيجة، معلنة براءة يوسف براءة مطلقة، مؤكدة أنها لا تريد أن تصر على اتهامه كذباً وزوراً بعدما تجلّى الحق وظهر ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين
في المصحف الكريم

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي
 إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ آيَتُوْنِي بِرَبِّهِ أَسْتَخِصُّهُ
 لِنَفْسِي فَمَا كَلَّمَهُ، قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْتَا مَكِيْنٌ أَمِيْنٌ ﴿٥٤﴾
 قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
 وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوْنَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ
 نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ﴿٥٦﴾
 وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَكَانُوْا يَتَّقُوْنَ ﴿٥٧﴾
 وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوْا عَلَيْهِ فَعَرَفُوْهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُوْنَ ﴿٥٨﴾
 وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ آيَتُوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ إِلَّا
 تَرَوْنَ أَنِّيْ أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَّا خَيْرُ الْمُنْزِلِيْنَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُوْنِي بِهِ
 فَلَا يَكِلْ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُوْنَ ﴿٦٠﴾ قَالُوْا سَنُرْوِدُّ عَنْهُ أَبَاهُ

وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ لِفِنْيَتِهِ إِجْعَلُوا بَضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾
 فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ آبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ وَحَفِظُونَ ﴿١٣﴾
 قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ
 فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا فَخَّخُوا مَتَعَهُمْ
 وَجَدُوا بَضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
 بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزْدَادُ
 كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ
 حَتَّىٰ تَوْتُونَ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِيَّائِي أَن يُمْحَاطَ
 بِكُمْ فَامْتَأَآتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾
 وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ
 مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ
 إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا
 دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضِيهَا

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ
 قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
 فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
 ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾
 قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَوْ أَنفَقْنَا
 صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَّا بِهِ رَعِيبٌ ﴿٧٢﴾
 قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
 وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ ؕ إِن كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾
 قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ؕ كَذَٰلِكَ
 نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ
 اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ
 لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
 مِّن نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

في بداية هذا الربع أورد كتاب الله ضِمنَ ما حكاه من كلام امرأة العزيز اعتذارها الصريح عما أصابها من نزغات الشيطان، إذ قالت: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فهذا الاعتذار على لسانها، بعد اعترافها ببراءة يوسف مندرج في كلامها، فحكاه كتاب الله في جملة ما حكى من أقوالها. قال ابن كثير: «وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على جِدَّة».

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ايتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ إشارة إلى قرار ملك مصر، الصادر بجعل يوسف من حاشيته وخاصته، وأهل مشورته ووزارته، تقديراً لمواهبه، وانتفاعاً بملكاته.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ إشارة إلى ما قاله الملك ليوسف عند تنصيبه له، وتعريفه إياه بأنه قد أصبح يتمتع لدى مملكته بسلطة ونفوذ، فهو (مكين) أي متمكن وذو سلطان، وهو في نفس الوقت (أمين) أي مؤتمن على شؤون الدولة، التي أصبح من كبار رجالها، وصفة (الأمانة) صفة أساسية في كل من يراد الانتفاع بمشورتهم ونصيحتهم، إذ «المستشار مؤتمن».

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ غَلِيمٌ ﴾ هذا ليس طلباً من يوسف للولاية من أصلها، فقد ولّاه الملك بمجرد ما دعاه إليه وقال: ﴿ ايتُوني بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾، وإنما هو تنبيه من يوسف للملك إلى نوع العمل الخاص الذي يرى نفسه أهلاً للقيام به، بعد تكليفه من طرف الملك تكليفاً عاماً، فقد كان يوسف يعلم أنّ مصر مقبلة على أيام شدة وأيام رخاء، كما فهمه من رؤيا الملك التي عبّرها له أحسن تعبير، وكان يُحسُّ من أعماق نفسه أنه إذا وُضِعَت خزائن مصر تحت إشرافه المباشر تصرّف في غلاتها التصرف الأحوط والأرشد والأصلح لعموم الناس، واستعدّ الاستعداد اللازم للطوارئ المنتظرة في السنوات المقبلة.

فلفت نظر الملك إلى نوع المسؤولية التي يستطيع تحملها على بيّنة وعن جدارة، حتى لا يكلفه الملك بمسؤولية أخرى يكون حظ نجاحه فيها أقل.

وقوله في هذا السياق ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ تبرير منه لهذا الاختيار، فهو يعرف من نفسه أنه موصوف بالحفظ والصيانة، اللازمين لكل خزانة، وهو على خبرة بالعلم المناسب لهذا النوع من العمل، ولكل عمل علمه الخاص به. وقد اعتمد يوسف في مجال المسؤولية والخدمة العامة على ما أكرمه الله به من حفظ وعلم، وهما من الخصال المعنوية البحتة، ولم يعرج مطلقاً على ما آتاه الله من حسن وحسب ونسب، إذ لا دخل لها في الموضوع.

وهذا المعنى الذي فسرنا به الآية لا يتعارض في شيء مع قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرة فيما رواه مسلم: «لا تسأل الامارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنتَ عليها»، ولا مع قوله ﷺ في حديث آخر رواه مسلم أيضاً «إننا لا نستعمل على عملنا من أَرادَه». إذ موضوع الحديثين هو التهالك على الولاية العامة وطلبها من أصلها، لا مجرد اختيار نوع العمل، بعد الاستدعاء لها والتكليف بها.

وتساءل البعض كيف استجاز يوسف عليه السلام لنفسه أن يقبل الولاية من كافر، وأجيب عنه بأنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، إذا علم أنه يصلح بعض الأحوال (نص على ذلك أبو القاسم ابن جرّي في تفسيره). كما أجيب عنه بأن

معاملة الأنبياء لغيرهم لم تكن على وتيرة واحدة، بل كانت أحياناً بالسلطة والاستعلاء، وأحياناً بالسياسة والابتلاء، وهذا منها، كما نص عليه أبو بكر (ابن العربي) في أحكام القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى ما أكرم الله به يوسف من الحرية والسعة والنفوذ والتصرف في أرض مصر، بعدما ابتلاه فيها بالرق والضيق والسجن الطويل. ثم عقب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، إشارة إلى الفرج والنصر، اللذين يأتيان في أعقاب الثبات والصبر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ اخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ إشارة إلى قدوم اخوة يوسف إلى مصر بقصد الحصول على القوات اللازم لهم، إذ كانت بلاد كنعان حيث يستقر يعقوب عليه السلام قد أصابها القحط والجذب، وكانت أخبار عزيز مصر وإحسانه إلى الناس قد بلغت أصدائها إليهم، وبهذه المناسبة دخلوا على يوسف وهو في أبهة الرياسة وهيبة السلطة فعرفهم يوسف، دون أن يتعرفوا عليه، على خلاف العادة في الجماعة.

والسر في ذلك أنهم فقدوا يوسف وهو في سن الصبا، فتغيرت ملامح وجهه عما كانت عليه، ومنذ اشتراه العزيز لامرأته واتخاذها فتى لهما كان كالمكتوم عن الناس، ثم أقام محبوساً ما شاء الله أن يقيم، ويطول المدة عمى أمره، وخفي خبره على أبيه

واخوته. يضاف إلى ذلك أن أحداً منهم لم يكن يتخيل أن يصل الأمر بمثله إلى ما وصل إليه من الجاه والنفوذ ومظاهر السلطان، ثم إن المركز الذي أصبح يحتله في الدولة يدعوهم إلى أن يتهيبوه عند المخاطبة لشدة حاجتهم إليه، وكلُّ هذه أسباب تجعل تعرفهم عليه، فضلاً عن إطالة النظر إليه، أمراً عسيراً، بينما يوسف في هذه الحال متمكن من الأمر، متفرغ الذهن، لا يصعب عليه تأمل ملامحهم وملاحظة أحوالهم ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى حكايةً عن اخوة يوسف لأبيهم ﴿ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ إشارة إلى ما طالبهم به يوسف من احضار أخ لهم من أبيهم، ومراده بذلك أخوه الشقيق (بنيامين) كشرط للسماح لهم بالحصول في المستقبل على التموين الضروري لأسرتهم، وكان هذا الإجراء من يوسف تلطفاً في احضار أخيه ثم لقاء أبيه بالوجوه التي أباحها الله .

ومما تنبغي ملاحظته في هذا السياق استعمال أخوة يوسف - بغية اطمئنان أبيهم يعقوب على أخيهم بنيامين - نفس العبارة التي استعمالوها ليطمئن على أخيهم يوسف من قبل، فكما قالوا لأبيهم أولاً بخصوص يوسف ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ قالوا لأبيهم أخيراً بخصوص بنيامين شقيق يوسف ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ . وهذا هو السر فيما رد عليهم به أبوهم يعقوب، إذ قال لهم فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ . ثم عقب على تعهدهم القديم بحفظ يوسف، وتعهدهم الجديد بحفظ أخيه

بنيامين، مؤكداً لهم أن الحافظ من كل سوء على وجه التحقيق هو الله تعالى وحده دون سواه ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾. ثم صارحهم بعد ذلك بأنه لن يغامر بإرسال ابنه بنيامين معهم هذه المرة، إلا إذا أعطوه الموائيق والعهود، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقون الإتيان به ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ: اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وقوله تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام مخاطباً لأولاده ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ وَلَا تَدْخُلُوا مِنِّي مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ تنبيه من يعقوب لأبنائه إلى عدم الدخول إلى مصر من باب واحد، حتى لا يستلفتوا الأنظار، وحتى لا تصيبهم الأعين الشريرة بشررها.

قال ابن قيم الجوزية: «فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود. فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا: الأفعى، فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية». وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: «لأخلاف بين الموحدتين أن العين حق، ومن أبداع ما خلق الله النفس، ركبها في الجسم، وجعلها معلومة للعبد ضرورة، لكنها مجهولة الكيفية، إن جاء ينكرها لم يقدر، لما يظهر من تأثيرها على البدن وجوداً وعدمًا، وإن أراد المعرفة لها لم يستطع، لأنه لا يعلم لأي شيء ينسبها، ولا على أي معنى يقيسها... ولها آثار

يخلقها الباري في الشيء عند تعلقها به، منها العين، وهو معنى يحدث بقدرة الله على جَرِي العادة في المَعِين إذا أعجب منظره العائن فيلفظ به. ولهذا المعنى نُهي العائن عن التلطف بالإعجاب، لأنه إن لم يتكلم لم يضرَّ اعتقاده عادة. وكذلك سبق من حكمة الله أن العائن إذا بَرَّك - أي قال تبارك الله - أسقط قوله بالبركة قوله بالإعجاب، وامتنع ضرره، وإن اغتسل العائن سُفِي مَعِينه، وهذه خواص شرعية، بِحَكَم إلهية، يشهد لصدقها وجودها كما وصفت» انتهى كلام ابن العربي. وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المَعِين».

وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام في نفس السياق ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٦٧] إشارة إلى أن هذا التدبير الذي نصحهم به أبوهم إنما هو تدبير احتياطي مظنون النفع، وإلا فإن الأمر في الحقيقة بيد الله «ولا ينفع حذر من قَدَر»، ولذلك وقع التعقيب بعده بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضِيهَا﴾. والمعنى أن ذلك الاجراء الذي نصحهم به يعقوب لا يدفع قضاء الله، وإنما هو قضاء لحاجة في نفس يعقوب، وهذه الحاجة التي كانت في نفسه هي شفقتة عليهم من أن يصيبهم في هذه المرة ما أصابهم في المرة الأولى،

فيرجعوا إليه وقد فقدوا أخاهم بنيامين، كما رجعوا إليه من قبل وقد فقدوا أخاهم يوسف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى ما قابل به يوسف إخوته جميعاً من كرم الضيافة وحسن الصلة، وإلى ما قابل به أخاه الشقيق بنيامين بالخصوص من عطف خاص، عندما اختلى به وعرفه بأنه هو أخوه يوسف، وطمأنه على مصيره، رغباً عن الاجراءات الظاهرة التي سيتخذها للاحتفاظ به عنده، كرهينة خاصة في مقابل (صاع الملك) الذي سيوجد في رَحْلِهِ، والذي سيكون وَضَعُهُ فيه بمعرفة يوسف ومساعدته الأقربين، ﴿قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ وذلك في انتظار أول فرصة يستقبل فيها أباه وإخوته جميعاً، حيث يرتفع الستار عن آخر مشهد لهذه القصة الخالدة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ، مَا كَانَ لِيَآخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين
في المصحف الكريم

قَالُوا إِنْ

يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ
فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا
كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ
إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا
مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ
حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾
ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَمِينَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

وَسَعَلَ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
 وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْوَأَنْفُسُكُمْو
 أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
 إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ
 يَا سَفِي عَلَى يُونُسَ وَابْيَضَّتْ عَيْنُهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ ﴿٨٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكُرُ يُونُسَ حَتَّى
 تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا
 بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾
 يَبْنِي إِذْ هَبُوا فْتَحَسُّوْا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ
 رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٢﴾
 فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا
 الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجِيَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ
 وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٩٣﴾ قَالَ
 هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
 جَاهِلُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا أَأَنْتَ يَا يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ
 وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ اِثْرَكَ
اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
إِذْ هَبُوا بِقَمِيصِهِ هَذَا فَاَلْقَوْهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَاتِ
بَصِيرًا وَاتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمُ: إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ وَإِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا
مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ
وَخَرَّوْا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ
قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ
السِّبْيَانِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَحْمَةَ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

في بداية هذا الربع تشير الآية الكريمة إلى قول إخوة يوسف بعد أن وُجد (صاع الملك) في رَحْل بنيامين شقيق يوسف، وكان وضعه في رَحْله بمعرفة يوسف نفسه، كمبرر للاحتفاظ بأخيه عنده، في انتظار الفرصة المواتية لدعوة أبيه وجمع الشمل مع أعضاء عائلته كلهم في المستقبل القريب ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وغرضهم من هذا القول فيما يظهر هو أن يبرئوا ساحتهم، ويلقوا المسؤولية على أخيهم بنيامين شقيق يوسف، مع ادعاء أن أخاه من قبل - ويعنون به يوسف - كان قد سبق منه نفس العمل، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن هناك استعداداً نفسياً أو وراثياً خاصاً في كل من هذين الأخوين لمثل

هذا التصرف، مَرَدُّه إلى أنهما تناسلا من أم أخرى غير الأم التي تناسلوا هم منها، ولذلك كانوا براءء، وكان يوسف وشقيقه متهمين ﴿ فَاسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ عندما قالوا ذلك وهم مائلون أمامه بصفته عزيز مصر، وكانوا لم يعرفوا بعد أنه هو يوسف نفسه، لكنه فيما بينه وبين نفسه ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تعليقاً على زعمهم في تبرئتهم لأنفسهم.

ثم أخذ إخوة يوسف يستعطفون عزيز مصر - وهو نفس يوسف في هذا العهد - محاولين استرجاع أخيهم للأب، ولو بتعويضه بآخر منهم ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، لكن خطة يوسف الحكيمة كانت تقتضي الإحتفاظ بشقيقه بنيامين بالخصوص إلى نهاية المطاف ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴾. وها هنا أكد يوسف عليه السلام مبدأ المسؤولية الفردية، والتبعية الشخصية، وهو أنه «لا تزر وازرة وزر أخرى» ولا يؤاخذ أحد بما فعل غيره، انسجاماً مع ظاهر الحال في هذه الواقعة.

ولما أدرك إخوة يوسف اليأس من نجاح محاولتهم في استرداد بنيامين، أو تعويضه بآخر منهم، اجتمعوا وتناجوا فيما بينهم ماذا يكون موقفهم تجاه أبيهم يعقوب، وماذا يبررون به حجز أخيهم بنيامين، وبقاءه في مصر دونهم، وكان من شدة وقع هذه الحادثة في أنفسهم أن انفصل عنهم أخ ثالث هو أكبرهم

جميعاً، إذ أحس بثقل المسؤولية، وتذكر الموثق الذي واثقوا عليه أباهم يعقوب، ولم يعد يستطيع أن يواجه أباه، خجلاً منه، وخوفاً من مؤاخذته، فقرر البقاء في مصر، إلى أن يسمح له أبوه ويأذن له بالعودة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أي انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ، وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ، فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ يريد الموضع الذي وقعت فيه الحادثة ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ . ثم قال لباقي اخوته ﴿ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ أي بما علمنا من ظاهر الحال ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴾ إشارة إلى أنهم حين أعطوا الميثاق لأبيهم في شأن المحافظة على أخيهم لم يكونوا يعرفون أنه سيسرق، أو إشارة إلى أنهم لا يعرفون حقيقة الأمر الواقع في شأن السرقة المتهم بها أخوهم بنيامين ﴿ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ أي اسأل أهل القرية ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي اسأل أصحاب العير الذين رافقناهم في السفر، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

وعاد إخوة يوسف من رحلتهم المثيرة، وقد تركوا وراءهم بنيامين في قبضة عزيز مصر ظاهراً، وفي ضيافة شقيقه يوسف باطناً، وانفصل عنهم كبيرهم، فبقي في عين المكان الذي وقعت فيه الحادثة، فراراً من مواجهة أبيه يعقوب، وبذلك أصبح أبوهم فاقداً لثلاثة من أبنائه بدلاً من واحد، ولم يسعه إلا أن يتهمهم بأن

في الأمر مكيدة جديدة، كما اتهمهم من قبل بالمكيدة بالأولى .

وكما قال لهم في شأن الواقعة الأولى بخصوص يوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ قال لهم في شأن الواقعة الثانية بخصوص بنيامين ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ . و«الصبر الجميل» يطلق على الصبر الذي لا يصحبه جزع ولا شكوى. لكن أباهم يعقوب لم يفقد رجاءه في الله، ولا في حسن العاقبة له ولأبنائه الثلاثة، فقال ﴿ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وثارت في نفس يعقوب بهذه المناسبة ذكريات ابنه يوسف الذي لم يعد يعرف عنه شيئاً منذ فقده في طفولته، وكاد يفقد بصره من شدة الحزن عليه وكثرة البكاء، وهذا الحزن البالغ من طرف يعقوب على ابنه يوسف لا يستغرب منه، إذ اذكرنا أمرين في هذا المقام:

أولهما ما كان عليه ابنه يوسف من الصفات والخصال النادرة التي امتاز بها عن بقية اخوته، حتى قالت في شأنه صاحبات امرأة العزيز ﴿ مَا هَذَا بَشِراً، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ مما يحمل أي والد كان على الاهتبال بولد ممتاز من هذا النوع، ويدفعه إلى الشغف به والحزن على فقده إلى أقصى حد .

وثانيهما ما ظنه يعقوب نفسه من أنه ارتكب في حق يوسف نوعاً من التقصير والإهمال، عندما تركه أول مرة يرافق إخوته في سفرهم، ويوسف لا يزال في سن مبكرة، وهو يعرف أن اخوته يغارون منه أشد الغيرة، وكل واحد من هذين الأمرين كافٍ لأن

يضاعف الكمد ويزيد في الحزن ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عن أبنائه بعدما سمع كلامهم واعتذارهم دون أن يُصدّقهم فيما قالوا ﴿ وَقَالَ يَا سَفِيَّ عَلَىٰ يُوْسُفَ، وَابْيَضَّتْ عَيْنُهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي من البكاء الناشئ عن الحزن العميق، حيث يزداد الضغط على العينين وتبدو العين بيضاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي كظم غيظه، وأقبل على الله يشكو إليه دون سواه، لكن أبنائه قاطعوه في غمرة الحزن، خوفاً من أن تزداد حالته سوءاً بذكر يوسف والأسف عليه، ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوًّا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي ضعيف القوة مشرفاً على الهلاك ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾. فما وسع يعقوب إلا أن رد عليهم في الحين قائلاً: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ و«البث» هنا بمعنى الهم.

وقوله في نفس السياق ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تلويح إلى أنه لن يسيء ظنه بالله، وإشارة إلى شعوره الخاص بأن يوسف لا بد أن يكون على قيد الحياة، ولا بد أن تتحقق رؤياه في يوم من الأيام، مهما كانت الظواهر لا تدل على شيء، ولذلك دعا أبنائه إلى المزيد من البحث عن يوسف وأخيه بنيامين، ونهاهم عن اليأس من رحمة الله، اعتماداً على المعهود من لطفه الخفي بعباده المخلصين ﴿ يَبْنِيْ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ و«التحسس» التعرف إلى الشيء عن طريق الحواس، والمراد هنا تتبع أخبار يوسف وأخيه ﴿ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُّوحِ اللَّهِ ﴾ أي من رحمته ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

وامثالاً لأمر أبيهم يعقوب أعاد فريق من أبنائه الكرة، تاركين الفريق الآخر مع أبيهم، فرحلوا إلى مصر من جديد، واتخذوا جميع الوسائل للمثول مرة أخرى بين يدي عزيز مصر - وهو في الحقيقة أخوهم يوسف - طالبين منه إسعافهم بالتموين اللازم لهم، مقابل أخذه منهم بضاعة قليلة جاؤوا بها، ولم يكتموا عنه طمعهم في أن يُوفى لهم الكيل، ورجاءهم في أن يتصدق عليهم بما تجود به نفسه الكريمة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ ﴾ والضر يشمل المجاعة التي أصابت بلادهم، والهـم الذي نزل بعائلتهم ﴿ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجِيَةٍ ﴾ أي بضاعة قليلة ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

وفي هذه المناسبة انتهز يوسف الفرصة، فكشف عن وجهه النقاب، وعرفهم بأن «عزيز مصر» الذي يتحدثون إليه الآن هو أخوهم يوسف بالذات، وأن أخاهم الذي حجزه عنده في المرة الماضية هو أخوه بنيامين، وإذن فهم الآن بين أفراد أسرتهـم، وأمام واحد منهم، وذكّرهم بما فعلوه به وبأخيه، ناسباً ذلك الفعل إلى ما كانوا عليه في حال الفتوة من جهل بحقائق الأمور، وغفلة عن خفايا الأقدار، واستعرض أمامهم نعمة الله عليه وعلى أخيه، وأن مصير كل من اتقى وصبر، هو الفوز والظفر ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، قَالُوا أَى نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وعندما عرفوا حقيقة الأمر اعترفوا بفضل الله على أخيهم يوسف، وبإيثار ربه له عليهم، لحكمة يعلمها - ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ﴾ [الانعام: ١٢٤] واعترفوا في نفس الوقت بالخطيئة التي ارتكبوها في حقه، لكنه أجابهم بجواب كله حلم وصفح، وعفو ورحمة ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ من «الخطيئة» بمعنى المعصية، لا من «الخطأ» ضد الصواب، فمن الخطأ يقال «مخطيء» لا «خاطيء». ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي لا ملامة عليكم، ولا تعنيف لكم ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾.

ثم أعطى يوسف لإخوته بعد اعترافهم واعتذارهم قيمصه الخاص ليحملوه إلى أبيه يعقوب، شاهداً بحياته، مع دعوة رسمية منه إليه وإلى كافة أفراد عائلته بالقدوم عليه إلى مصر ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَاتِ بِصِيرًا وَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وما كادت العير التي يرافقها أبناءه تفارق أرض مصر وهم في طريقهم إليه يحملون معهم قميص يوسف، حتى أخذ يعقوب يحدث بقية أبناءه الذين بقوا ملازمين له بأنه يجد رائحة قميص يوسف من بعيد، وخشي من استبعادهم لهذا الإحساس الخاص، ومن تنفيذهم له، لأنهم لا يدركون سره ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي فارقت مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي لمن بقي معه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ﴾.

وما كاد من معه من أبناءه يسمعون مقالة أبيهم يعقوب، حتى

استغربوها، وتذكروا قولة اخوتهم في شأنه من قبل ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ استغراباً منهم لإفراطه في محبة يوسف والشغف به، فرددوا مثلهم نفس الفكرة والعبارة، ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ . قال قتادة: أي من حُب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه. «يقال سلى يسلى وسلا يسلو». ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أي ما كاد البشير يُلقِي أمامه «قميص الفرحة» حتى شفاه الله من كل أثر «لقميص الفرحة». وهكذا اختار يوسف أن تكون بشرى أبيه في النهاية بقميص، كما كانت فاجعته في البداية بقميص ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

ولم يلبث يعقوب عليه السلام أن ذكّر أبناءه جميعاً بقوله من قبل ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ والتفت إليهم قائلاً: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . فما كان منهم إلا أن أقبلوا عليه يسألونه العفو عنهم، وطلب المغفرة لهم، معترفين بخطيئتهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ولبى أب يوسف وأمه وإخوته جميعاً دعوته، فاستقبلهم رُسل يوسف أحسن استقبال، وبمجرد ما مثّلوا بين يديه رغبهم في الإقامة معه بمصر آمنين مطمئنين، أعزاء محترمين ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَاْمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ أي انحنوا أمام يوسف بصفته «عزيم مصر»، انحناءة الإجلال والتوقير، طبقاً «للتشريفات» المعتادة في ذلك العصر، وليس المراد أنهم سجدوا له السجود

المعهود في عبادة الله ﴿ وَقَالَ يَا بَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ يشير إلى رؤياه «إني رأيت أحد عشر كوكباً» وهم إخوته «والشمس والقمر» وهما أبوه وأمه «رأيتهم لي ساجدين». ثم حكى كتاب الله ما نطق به يوسف، من شكر الله على فضله ولطفه إذ قال: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ، مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، أَنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

رَبِّ قَدْ اتَّيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَظَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
 الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
 الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ
 وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
 وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾
 وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
 وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا يَوْمُنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
 مُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
 أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ قُلْ هَذِهِ
 سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ابْتَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ
الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى
مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ
كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْفِرِي وَلَا يَكُنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمِثْرَتِكَ آيَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
بِمَجْرَىٰ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا لِئَنْبِيَّ يُغْشَىٰ الْبَيْلَ النَّهَارَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ
 مِّمَّجُورَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَّرَعَ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ
 تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّهَا عَلَى بَعْضِهَا فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصه هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، وبدأته قوله تعالى في سورة يوسف المكية ﴿رَبِّ قَدْ - اتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ونهايته قوله تعالى في سورة الرعد المكية أيضاً ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٍ غَيْرِ صِنَوَانٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ، وَنُفُضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أول آية في هذا الربع هي آخر آية وردت في موضوع قصة يوسف بالذات، وهي تشير إلى الأثر العميق الذي تركه في نفس يوسف جمع شمله مع أبويه وإخوته، وتوذن ببالغ شكره لله على سابع نعمته، واعتماده المطلق على رعايته وولايته:

﴿رَبِّ قَدْ - اتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾ في هذا إشارة إلى ولايته

لمنصب العزيز لدى ملك مصر، وما أدركه من السلطة والنفوذ فيها بحكم ذلك المنصب.

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ في هذا إشارة إلى ما أكرمه الله به من نفاذ البصيرة، وصدق الفراسة، مما ظهر أثره في تعبيره رؤيا ملك مصر، وتعبير رؤيا صاحبه في السجن، وتأويل رؤياه نفسه التي جاءت مثل فلق الصبح.

﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ هذه مناجاة من يوسف لربه، وتضرع بين يديه، وتوكل عليه.

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ هذا دعاء من يوسف إلى الله بحسن الخاتمة والموت على الإسلام، واللحاق بالصالحين في دار السلام، حتى يتم الله عليه نعمته في الآخرة كما أتمها عليه في الدنيا.

وكلمة (الصالحين) متى وردت في الذكر الحكيم فالمراد بها كل مومن أدى ما عليه من حقوق الله وحقوق العباد، من أي جيل كان، قديماً أو حديثاً، ولو كان مجهول القبة مجهول التاريخ، لأقبة عليه ولا ضريح، فالعبرة في هذا اللقب لقب «الصلاح» و (الصالحين) إنما هي بمجرد العمل الصالح المقبول عند الله، لا بما سواه.

وقوله تعالى هنا حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ لا يلزم أن يكون سؤالاً ناجزاً للموت وتمنياً لها في الحين، كما فهمه بعض المفسرين، وإنما هو من باب الدعاء

المعتاد كقول الداعي: (اللهم أحيِنَا مسلمين، وتوفِنَا مسلمين؛ وألحقنا بالصالحين). وقد نهى رسول الله ﷺ عن سؤال الموت وتمنيها. روي في الصحيحين وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعيب - أي يسترضي ربه ويتوب - ولكن ليقل: اللهم أحيِنِي ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفِنِي إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وقوله تعالى عند انتهاء قصة يوسف ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ تعليق على هذه القصة وما شابهها من قصص الأنبياء، بأن العلم بها والاطلاع على دقائقها، دليل جديد يضاف إلى دلائل النبوة، فهي من قبيل العلم بالمجهول، الذي كان مغيباً عن الرسول، إذ الرسول عليه السلام لم يعاصر يوسف ولا إخوته، ولم يشاهد الظروف التي لابست قصته، ومع ذلك فإن الوحي يأتيه بلبها، ويكشف له عن سرها، لما فيها من حكم وعبر، يتعظ بها من تقدم ومن تأخر.

ثم عقب كتاب الله على ذلك كله بأنه مهما كان حرص الرسول عظيماً على إيمان الناس وهدايتهم بجميع الوسائل، فإنه لا سبيل إلى إلجائهم للإيمان وإكراههم عليه ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أن نصح الرسول للناس، وقيامه بدعوتهم

إلى الحق إنما هو تطوع منه في سبيل الله، امتثالاً لأمره، وقياماً بحقه، فلا مطمع له من ورائه في مال أو جاه، وإنما هدفه الوحيد منه ربط صلتهم بالله، وكلما كانت دعوة الداعي لغيره خالية من الطمع فيه، كانت أقرب إلى التأثير عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ - آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ إشارة إلى ما عليه عمي البصائر والأبصار من الغفلة عن ملكوت الله، والذهول عن آياته الباهرة، رغماً عن كونها معروضة على أقوى وجه وأحسنه في كتاب الكون الفسيح، وهي بمرأى ومسمع من جميع الناس، في جميع الأزمان، وفي كل مكان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ يندرج تحته مشركو العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام ويقولون إنها تقربهم إلى الله زلفى، ويندرج تحته اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، والنصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، كما يندرج تحته كل من نسب الضر والنفع والعطاء والمنع إلى غير الله، وكل من علّق أمله ورجاءه على المخلوق، لا على الخالق، وكل من حلف بغير الله، بدلاً من أن يحلف باسم الله، وكل من عمل عملاً لئراى به الناس، دون أن يقصد به وجه الله، فهؤلاء جميعاً يندرجون بوجه أو آخر تحت قوله تعالى هنا ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾. روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك». وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرقى والتّمائم

والتَّوَلَّى - أي السحر وما أشبهه - شِرْكٌ». وروى أحمد والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «من تعلق شيئاً وُكِّلَ إليه». وروى أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّقَ تميمه فقد أشرك». وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». وروى أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله. قال: الرياء». وخطب أبو موسى الأشعري فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دَيبِ النمل».

ومن هنا رفع عدد من علماء الإسلام عقيرتهم ضد بعض المظاهر المبتدعة التي يرتكبها العوام عند زيارة مدافن أهل الفضل وأضرحتهم، وإنما رفع أولئك العلماء عقيرتهم ضدها، نصحاً منهم لعوام المسلمين، حتى لا يقعوا بسببها تحت طائلة الشُّرْك الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي طليعة العلماء الذين جاهروا بالنصح في هذا السبيل حجة الإسلام الغزالي نفسه، وهو من كبار العارفين، في كتابه الشهير (الاحياء)، فقد قال رحمه الله في أواخر كتابه (الاحياء) عند كلامه على زيارة القبور ما نصه: «زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، والمستحب في زيارة القبور أن يقف - أي الزائر - مستدبر القبلة، مستقبلاً بوجهه الميِّت، وأن يُسَلِّم، ولا يمسح القبر، ولا يمسه، ولا يقبله، فإن ذلك من عادة

النصارى» وكفى «بحجة الإسلام» حجةً في هذا المقام.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ إشارة إلى ما يترتب على الغفلة عن الله، والإعراض عن تدبر آياته، وعدم الاعتبار بسُننه التي جرى عليها في خلقه، من مdahمة العذاب، والمفاجأة بالعقاب، بينما العقل السليم يقضي بوجوب الاستعداد لكل الطوارئ، والتسلح لمواجهةها بالإيمان الخالص، والعمل الصالح، والتزود بزاد التقوى، لكن الغفلة التي استولت على الغافلين، جعلتهم آمنين مكر الله، أو شبه آمنين، ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الاعراف: ٩٩].

ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم قائلاً: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وفي هذا الخطاب يأمر الله رسوله بأن يبلغ الناس أجمعين أن ملة الإسلام هي السبيل الوحيد إلى الله ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] كما يأمره بأن يبلغ الناس أجمعين أن الدعوة التي جاء بها هي دعوة إلى الله، مجردة من كل غرض، إلا ابتغاء مرضاة الله ﴿ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وأن دعوته منبثقة عن إيمان صحيح، ويقين تام، وحجة قائمة، فهو منها على بينة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾، وأن هذه الدعوة دعوة خالدة مستمرة، يقوم بها ويبلغها إلى الناس ما دام على قيد الحياة، ويقوم بها من بعده ورثته وأتباعه

إلى يوم الدين ﴿ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ أي أدعو إلى الله أنا ومن اتبعني .

وقوله تعالى على لسان رسوله ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ضرب للمثل، حتى يقوم كل داعٍ إلى الله بتنزيهه عما لا يليق به، وحتى يتبرأ من الشرك وأهله براءة تامة .

ثم تحدث كتاب الله عن الرسل السابقين، وعن عاقبة الكافرين بهم والمكذبين، داعياً الذين خالفوهم من بعدهم، وساروا على نهجهم، أن يعتبروا بهم، ويتراجعوا عن غيرهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وقوله تعالى في بيان عاقبة المتقين ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أضيفت فيه «الدار» إلى «الآخرة» على غرار قولهم: مسجد الجامع ويوم الخميس كما نص عليه ابن كثير.

ثم بين كتاب الله أن الله تعالى لا يخذل رسله أبداً، وأن نصره ينزل عليهم في أخرج الأوقات وأشد الأزمات، وذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ومعنى الآية: حتى إذا استيأس الرسل من كفار قومهم، واستأخر العذاب عن أولئك الكافرين، وظن الكافرون أن الرسل كاذبون في إنذارهم، جاء النصر من عند الله، فنجى الله القوم المومنين، وعذب القوم المجرمين ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وكما بُدئت سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ خُتِمت أيضاً بتأكيد ما في عرضِ قصص الرسل وأمهم من عبر وِحكم، وما يستفاد منها من هدى وبيان، مما يوجب تلاوة كتاب الله بمزيد التدبر والإمعان، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ ﴾ - أي في حكاية أخبارهم - ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ - أي العقول - ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين
في المصحف الكريم

وَإِنْ تَجَبَّ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أ. ذَا كُنَّا
 مُرَبًّا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
 الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾
 وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ
 الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
 إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
 وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ
 الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ
 هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مِعْقِبَاتٌ مِنْ

بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ
اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ آفَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْجِي الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ
يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَجَالِ ﴿١٣﴾
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ
بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا
دُعَاءُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْإِصَابِ ﴿١٥﴾ هُوَ قُلُّ مَنْ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِّ اللَّهُ قُلُّ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلِّ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ
خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِّ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ
الْوَحْدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا

فَاحْتَمِلِ السَّيْلُ زَبْدًا رَابِيًا وَمِمَّا تُوَقَّدُونَ عَلَيْهِ فِي الْبَارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ
 أَوْ مَتَعِ زَبْدٌ مِّثْلُهُ ۖ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
 فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَمُكُتْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
 يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ
 لَمْ يُسْتَجِيبُوا لَهُ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا
 بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَبْتَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرْبًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

في الحصة الماضية فرغنا من تفسير سورة يوسف المكية، ولم يتسع الوقت للشروع مباشرة في تفسير سورة الرعد المكية أيضاً، واليوم نشرع في تفسيرها مستعينين بالله، إنه وليُّ التوفيق.

وأول ما نلفت إليه النظر تسمية هذه السورة الكريمة باسم «سورة الرعد» أخذاً من قوله تعالى في هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.

وثاني شيء نلفت إليه النظر، بمناسبة ابتداء هذه السورة بحروف الهجاء المقطعة «أ. ل. م. ر» أنه ما من سورة بدئت

بهذه الحروف إلا وجاء في أعقابها الانتصار للقرآن، وتبين أنه نزل من عند الله، وأنه حق لا شك فيه ولا ريب، كما نص على ذلك كثير من المفسرين، ولا سيما ابن كثير، بناءً على استقرائه في التفسير.

وثالث شيء نلفت إليه النظر التناسب الواقع بين نهاية سورة يوسف، وبداية سورة الرعد المكيّتين، فقد خُتِمَت سورة يوسف بالحديث عن القرآن ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ كما افتتحت سورة الرعد بالحديث عن القرآن ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾.

وتحدث كتاب الله عما أبدعه بديع السماوات والأرض من مختلف الأكوان في العالم العلوي والعالم السفلي، داعياً كل الناس، على اختلاف الألوان والأجناس، إلى تأمل آياته الكونية، تمهيداً للإيمان بآياته الدينية، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ، وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا ثَمِينًا، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ، وَنُفَّضُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة عرض سريع وخاطف لمظاهر متنوعة من صنع الله العجيب، وظواهر دقيقة من تدبيره المحكم، مما يبعث على التفكر والتدبر كل من عنده عقل أو فكر.

والوحي الإلهي الذي امتاز به الإسلام لا يتهيّب أن يحتكم دائماً إلى العقل الناضج والفكر السليم، وأن يعتمد عليهما، بل هو واثق بانتصاره أمام فحصهما، مطمئن إلى إقناعه لهما، لأنه منبثق من صميم الفطرة الأصيلة التي فطر الله الناس عليها، ولا يوجد أي تعارض أو تناقض بينه وبينها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى هنا ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا﴾ على غرار قوله تعالى في سورة لقمان ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا﴾ [الآية: ١٠]، وقد فهم بعض المفسرين أن الضمير في كلمة «ترونها» يعود على السماوات، تأكيداً لنفي العمَد عنها، أي أن السماوات مرفوعة بغير عمد، كما ترونها، فهي لا تتركز على أي شيء، ما عدا قدرة الله التي تمسكها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الضمير في (ترونها) عائد على العمَد لا على السماوات، فيكون معنى (بغير عمد ترونها) أن السماوات ليس لها عمَد مرئية، ومفهوم ذلك أن للسماوات عمداً، لكن عمدها لا تُرى، وإلى هذا التأويل ذهب

ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم إذ قالوا: «لها عمَد، ولكن لا تُرى».

وهذا التأويل الثاني هو الذي يتمشى معه ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير هذه الآية، من أن كُتِلَ الأجرام السابحة في الفضاء الفسيح، الهائلة ثقلاً وكثافة وحيزاً، وإن كان يظهر لنا أنها لا تتركز على شيء يَدْعَمُها ويرفع ثقلها الهائل، فإن هناك شيئاً محققاً يمسكها ويتحكم فيها قبضاً وبسطاً، بإرادة الله وحسن تدبيره، وهذا الشيء الخفي هو (قانون الجاذبية)، الذي اهتدى إلى ادراكه علماء الطبيعة بعد جهد جهيد، فالعمَد التي لا تُرى هي «الجاذبية» التي تجذب الثقيل إلى الأثقل، والكبير إلى الأكبر، وصدق الله العظيم.

وقوله تعالى هنا ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لا يناقض مبدأ أن الأرض مكورة، فالمدُّ واقع من جهة أن كل قطعة من الأرض على حدها ممدودة، والتكوير واقع من جهة أن جملة الأرض لها شكل كروي، ولا تعارض بين الأمرين.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ معناه الظاهر، والمحسوس، أنه سبحانه خلق من الثمرات أنواعاً متعددة، وخلق من نوع الثمرة الواحدة عدة أصناف، مختلفة الأشكال والألوان والروائح والطعوم والأحجام والمنافع، مما يدل على عظيم قدرته، وجليل حكمته، فهناك مثلاً عنب أسود وأبيض، وتفاح حلو وحامض، وهناك تمرٌ تجاوز أصنافه العشرات

حتى تصل إلى المآت، إلى غير ذلك من مختلف الثمرات، وأعمُّ من هذه الآية قوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ [الآية: ٥٣].

ويمكن أن تفسر هذه الآية بالمعنى العلمي الدقيق الذي كشف عنه النقاب «علم الحياة النباتي الجديد»، ألا وهو أن الله أودع في الثمرات عناصر ذكورة وعناصر أنوثة، وجعل بينها تزاوجاً وتلاقحاً مستمراً ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] وسيأتي في سورة يس وسورة الذاريات ما يفيد تعميم هذا المعنى بالنسبة للثمرات وغيرها، وذلك قوله تعالى في الأولى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٣٦] وقوله تعالى في الثانية: ﴿ وَمِنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٤٩].

وقوله تعالى ﴿ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ ﴾ المراد بالصنوان الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، والمراد بغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار.

وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ من الممكن أن تُحمَل الأغلال هنا على معناها المجازي، إشارةً إلى ما هم مقيدون به من سلاسل التقليد الأعمى، التي تشدهم إلى الأوهام الباطلة، والمعتقدات الضالة، مما يحول بينهم وبين تفتح الأذهان، وإدراك حقيقة الإيمان، وهذا المجاز يجري مجرى «الطبع» و«الختم على القلوب»، الواردين في

مثل هذا السياق في عدة آيات كريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ أي يستعجلون النعمة بدلاً من النعمة، والغاشية بدلاً من العافية، وذلك على سبيل التحدي للرسول والاستخفاف بعذاب الله. و«المثلات» جمع مُثَلَّة بفتح الميم وضم الثاء، وهي العقوبة العظيمة من الله، التي تُماثل الذنب وتجعل من نزلت به مضرب الأمثال بين الناس.

وقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ عقب قوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ يشبهه قوله تعالى في آية أخرى ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدْيُهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم»، فالمعنى إذن إنما عليك الإنذار، والله هو الهادي لمن يشاء إذا شاء. قال أبو القاسم ابن جُرَيِّ في تفسيره: «وقد يكون المعنى: إنما أنت نبي منذر، ولكل قوم هادٍ من الأنبياء ينذرهم، فليس أمرُك ببدع ولا مستنكر». وهذا المعنى يشبهه قوله تعالى في آية أخرى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عما انفرد به الحق سبحانه وتعالى من علم الغيب والاطلاع على «سر السر»، بحيث لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك خفايا الأرحام وما تنطوي عليه عند الإنسان وغيره من الحيوان، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ فالله

تعالى هو المنفرد بعلم ما في الأرحام على وجه التحقيق، أذَكَرَ أم أنثى، أو حِيدَ أم توأم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾، وهو المنفرد وحده بعلم ما يقع في الأرحام من زيادة أو نقص، وسلامة أو آفة، وتعجيل أو تأجيل ﴿وَمَا تَعْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وهو المنفرد وحده بعلم ما تضعه كل ذات حمل في العالم كل طرفة عين من ملايين النسمات ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى عدل الله المطلق وحكمته البالغة، وأنه لا يسلب النعم، وبيتلي بالنقم، إلا من غيّر طريقته في الشكر والطاعة، فأعرض عن الله، ونأى عنه بجانبه، فإذا انتقل من المعصية إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الشكر، ومن الانحراف إلى الإستقامة، أكرمه الله بعفوه ورضاه، وسلك به مسالك النجاة، فرداً كان أو أمة.

وقوله تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يُشَبِّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي نَفْسِ السِّيَاقِ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾. والمراد التنبيه إلى أصوات الرعد الهائلة المماثلة للانفجار، وإلى ما يرافقها أحياناً من صواعق تحرق الأخضر واليابس، الأمر الذي يدل على قدرة الله، ويشير في النفوس الخوف من عذاب الله، مما يهز كيان الإنسان، ولو كان ضعيف الإيمان، ويضطره إلى تسبيح الله وتنزيهه ولو لم يكن ذلك باللسان.

وسجوداً من في السماوات والأرض معناه الانقياد المطلق
لقضاء الله وقدره، أحب من أحب وكره من كره، فالعارف بالله
يخضع له طوعاً، وغيره يخضع له كرهاً. أما سجود «الظلال» غدوة
وعشية ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ فمعناه انقيادها في القبض والبسط
لمشيئة الله، طبقاً لما في كلتا الحالتين من مصلحة «لخلق الله»،
بما في ذلك الإنسان والحيوان والنبات.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه: هي التوحيد، أي أن إفراد الله بالعبادة والدعاء دون
سواه هو الحق الذي لا حق دونه، أما التوجه إلى غيره سبحانه
بهما أو بأحدهما فهو أبطل الباطل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ إشارة
إلى ضياع عبادتهم في الدنيا، لأنهم يقومون بها لمعبودات باطلة،
وإلى إحباط أعمالهم في الآخرة، لأنهم يبنون أعمالهم على
أساس فاسد ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا
فَاخْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا، وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ
أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾. قال أبو
إسحاق ابن جزي في تفسيره: «هذا مثل ضربه الله للحق وأهله،
والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء،

فتسيل به الأودية ويتفجع به أهل الأرض، وبالذهب والفضة والحديد والصففر - أي النحاس الأصفر - وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس، وشبهه الباطل، في سرعة اضمحلاله وزواله، بالزبد الذي يرمي به السيل، وبزبد تلك المعادن، الذي يطفو فوقها إذا أذيت، وليس في الزبد منفعة، وليس له دوام».

وقوله تعالى: ﴿ فَسَأَلَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا ﴾ أي أخذ كل وادٍ من الماء بحسبه، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها من جهة استعدادها سعة وضيقاً، وقوله ﴿ ابْتِغَاءَ جَلِيَّةٍ ﴾ مثل معدن الذهب والفضة، وقوله ﴿ أَوْ مَتَعٍ ﴾ مثل معدن الحديد والنحاس، وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أي إذا اجتمع الحق والباطل فإن الباطل لا يثبت أمام الحق ولا يدوم، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع ما يسبك في النار من مختلف المعادن، بل يذهب ويضمحل.

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ فِقْهِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي، وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلٌ مِنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ،

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ، لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى،
وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَافْتَدَوْا بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ
الْمِهَادُ ﴿١٠﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

أَفَمَنْ يَعْلَمُ مِمَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا تَدَّكُرُ أُولُو
 الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ
 يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
 الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
 أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ
 مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
 مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ
 يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
 أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْعَنَةُ وَلَهُمْ
 سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصِفُ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَىٰ إِلَهِهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُ
 كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا
 عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا أَوْحِينَا إِلَيْكَ وَهُمْ يُكَفِّرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا
 سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْآرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلَّ
 اللَّهُ الْأُمَمَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
 لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا
 قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمْ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣١﴾ أَفَمَنْ
 هُوَ قَابِئُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ
 سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرِ

مِّنَ الْقَوْلِ بَلِّغُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَاصْدُوا عَنِ السَّبِيلِ
 وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصه هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾، ونهايته قوله تعالى: ﴿ بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ، لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾.

في الآية الأخيرة من الربع الماضي تحدث كتاب الله عن فريقين لا ثالث لهما ينقسم إليهما الناس بالنسبة لموقفهم من الدعوة والرسالة، الفريق الأول فريق الذين استجابوا لله، والفريق الثاني فريق الذين لم يستجيبوا له، وبين كتاب الله عاقبة الفريق الأول وهي حُسن الجزاء، وعاقبة الفريق الثاني وهي سوء الحساب، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

وفي الآية الأولى من حصة اليوم بين كتاب الله أن الفريق الذي استجاب لربه، والفريق الذي لم يستجب إليه، لا يستويان في شيء، بل هما على طرفي نقيض، فالذي آمن بأن ما أنزل إلى الرسول حق وصدق سليم البصر والبصيرة، ولذلك عرف الحق وصدقه واهتدى به، والذي كذب بما أنزل إلى الرسول أعمى البصر والبصيرة، لأنه قد عطل جميع ملكاته عن النظر والبحث والمقارنة، وهل يستوي الأعمى والبصير ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ .

ثم تولى كتاب الله وصف النوع المتبصر الذي يوجد عنده استعداد خاص للتأمل والتدبر في آيات الله الكونية والدينية، وحلّ الصفات التي تميّز بها هذا النوع من الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ .

وأول صفة وصف الله بها هذا النوع المتبصر المفضل من الناس - وهم ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ في لغة القرآن - هي صفة الوفاء بالعهد، التي تعتبر بالنسبة إلى غيرها بمنزلة الأصل من الفرع، إذ الوفاء بالعهد يستلزم القيام بجميع الفروض والواجبات، والوفاء بكل العقود والالتزامات، والأداء لكافة الحقوق والأمانات، وفي طليعتها العهد الأول الذي أخذه الله على الإنسان، وهو لا يزال في صلب أبيه آدم بالتزام الإيمان، ثم العهد الذي يترتب على

الإقرار بالشهادتين، الذي هو شرط أساسي للدخول في الدين (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) فإن الإقرار بهما يُلزم عهداً، ويربط عقوداً، وينشئ تكليفاً بعدة أنواع من الالتزامات الشرعية، الأدبية والمادية، ومنها كما قال أبو بكر (ابن العربي): «الوفاء بالعرفان، والإنكفاف عن العصيان، والقيام بحق الاحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وإلى صفة الوفاء هذه يشير قوله تعالى هنا: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.

وثاني صفة وصف الله بها من أراد أن يكون من أولي الألباب صفة الحنان والمروءة ورقة الشعور، التي تتجلى في سلوكهم العام، ولا سيما في صلة الأرحام، وبذل المعروف للفقراء والمحتاجين والعطف عليهم، مما يعين على إقامة مجتمع متحاب فاضل ومتكافل، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

وثالث صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يكون لهم وجدان حي، قوي الحساسية، عميق الشعور، بحيث يراقبون الله في أعمالهم كل المراقبة، ويحرصون على الاستقامة في أحوالهم كل الحرص، سواء ما كان منها خصوصياً أو عمومياً، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

ورابع صفة وصف الله بها أولي الألباب أن تكون لهم قدرة على ضبط النفس والصبر الجميل، فهم بالمرصاد دائماً لأنفسهم

وشهواتهم، لا يطلقون لها العنان، ويلتزمون إزاءها حدود الاعتدال والمشروعية دون كبت ولا طغيان، وهم في حالة الرخاء صابرون، بحيث لا يطغون ولا يتعدون الحدود، وفي حالة الشدة صابرون، بحيث لا يسخطون على الموجود طمعاً في المفقود. وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فهم صابرون عن رضا لا عن سخط، وعن اختيار لا عن مجرد اضطرار، وهم قاصدون بصبرهم وجه الله ورضاه، أولاً وأخيراً.

وخامس صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يقيموا الصلاة، أي يقوموا بها على وجهها الكامل، بحيث لا يتركونها ولا يهملونها، ولا يقومون إليها كسالى، فهم على صلة بالله دون انقطاع، يناجونه ويشكرونه، ويؤدُّون حقه، ويطلبون عونه على الدوام والاستمرار، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

وسادس صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يحسنوا التصرف فيما آتاهم الله من رزق، واثمتهم عليه من مال، بحيث يكونون أسخياء النفوس، ذوي قُتوة وشهامة وكرم، يعتبرون المال وسيلة لا غاية، وغايته نفعهم ونفع الناس أجمعين، ولذلك فهم لا يبخلون بإنفاقه في وجوه الخير، وسبل النفع، وهم ينفقونه سراً كما ينفقونه علانية، حسب الظروف الطارئة والحاجات الملحة، والوضع الذي يكون فيه المنفق والمنفق عليه، لا يتقيدون بوجه دون وجه، ولا باب دون باب، فلأزواجهم وأولادهم وأقربائهم من أموالهم حظ معلوم، كما أن فيها حقاً ثابتاً للسائل والمحروم،

وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وسابع صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يكونوا على درجة كافية من الانتباه الشديد، والمحافظة على رصيدهم الخاص من الحسنات، حتى يظل رصيدهم لا عجز فيه ولا تطفى عليه السيئات، بحيث يكونون ذوي وعي عميق وانتباه تام، وولوع بمحاسبة أنفسهم ونقدتها الذاتي على الدوام، وهكذا كلما عملوا سوءاً بجهالة أو تحت تأثير نزوة من النزوات، اهتموا بأن يعملوا في أعقابه مباشرة ما يمحو أثره، ويزيل مفعوله، من صالح الحسنات. وإذا أساء إليهم مسيء لم يقابلوا إساءته بالمثل، بل قابلوا إساءته بالإحسان، مساهمةً منهم في وضع حد لروح الشر والعدوان، وإشاعةً لروح التسامح والغفران، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَيَذَرُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة، مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهذه هي الصفات الرئيسية التي يعتبر من اتصف بها في نظر الإسلام - طبقاً لمعيار الذكر الحكيم - من «أولي الألباب» أي من أصحاب العقول الناضجة والأفكار السليمة، ويقدر ما ينقص منها عند الشخص يكون ناقص العقل، فاقد اللب، غير محدود

في عداد العقلاء الراشدين، فمن أراد أن يعرف نفسه أهو في عداد العقلاء الراشدين، أم في عداد السفهاء والحمقى والمجانين، فليعيِّرْها بمعيار القرآن، فإنه خير معيار يعيِّرُ به النقصان والرجحان في ميزان الإيمان. قال القاضي عبد الجبار: «حكى بعض الأئمة أنه سئل عن وصف (المومن) فتلا هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ إلى آخرها.

وبعدما حلَّ كتاب الله الصفات المعتبرة في أولي الألباب من المومنين الصادقين عرَّج على وصف ما ينتظرهم ومنتظر الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم من النعيم المقيم في دار السلام، فقال تعالى: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.

وقوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ فيه إشارة واضحة إلى أن البيئة التي تشيع فيها مثل هذه الخصال ينتشر فيها الخير والبر، حتى يشمل جميع أعضائها وأفرادها، لأنهم يتنفسون في جو مفعم بالطهر والصلاح والقدوة الحسنة، فيرثون الصلاح خلفاً عن سلف، وأباً عن جد.

وكما تحدث كتاب الله عن أولي الألباب وصفاتهم المثلى وما ادخر الله لهم من حسن العاقبة تعرض لمن هم على عكسهم عقيدة وعملاً وسلوكاً، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿١٠﴾ .

وتناول كتاب الله الرد على المصرين المعاندين من مشركي العرب الذين قالوا للرسول: «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح»، ومرادهم تسخير الريح لهم، «أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه». فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أي لما آمنوا به، ما دام تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى بالنسبة لهؤلاء المعاندين المصرين إنما هو مجرد تحدٍ وإصرار، وعتو واستكبار، وليس الأمر أمر استجلاء للحقائق أو تطلع إلى استكناه الأسرار، فالمعنى المراد إذن أنهم «لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ مواساة من الله لرسوله والمومنين، وتعريف لهم بأن الحرب التي تدور رحاها بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، مستمرة إلى يوم الدين، وأن أعداء الله وخصوم دينه لا بد أن يلاقوا جزاءهم، بشكل أو آخر على مر الأيام، فكلما انجلت عنهم قارعة وأمناوا مكر الله حلت بساحتهم قارعة أخرى أدهى وأمر، وهم بين القارعتين الماضية والآتية في خوف وهلع، واضطراب وجزع، كما جرى في حروبهم المتتالية، ولا سيما في الحربين العالميتين الأولى

والثانية، وإن لم تحلَّ القارعة بدارهم وتقضِ عليها، حلتُّ بأقرب مكان إليها، وهكذا يمهلهم الله ولا يمهلهم، وهو القاهر فوق عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين
في المصحف الكريم

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا
 دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٢٥﴾
 وَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ
 الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ وَقُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ
 وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ؕ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٦﴾ وَكَذَلِكَ
 أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ
 مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
 لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾
 يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ مَا
 نُزِينَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٦﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ
 نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٤٧﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
 يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكٰفِرِينَ لِمَنْ عُقْبَى الْبَارِ ﴿٤٨﴾
 وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبُرْ كُنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي
 لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
 عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى
 الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
 أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
 بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
 مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
 بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ

بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَإِذْ يَجْهَرُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ
بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِنَمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الرعد المكية: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ إلى قوله تعالى في سورة إبراهيم المكية أيضاً: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي آفْوِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

والآية الأولى في هذا الربع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآية الأخيرة في الربع الماضي، فقد كان الحديث يدور حول الكافرين الماكرين الذين يصدون عن سبيل الله وحول ما ينتظرهم من عذاب في الدنيا، وعذاب أشق منه في الآخرة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾. ثم واصل كتاب الله الحديث عن المومنين المتقين، وما ينتظرهم من نعيم دائم في جنات النعيم، وذلك قوله تعالى في أول هذا الربع: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ أَكْلَهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿١٥﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ ليس المراد به ضرب
المثل لها فحسب، بل المراد به وصفها بالذات وما تكون الجنة
عليه فعلاً، وكلمة (مثل) في الآية مبتدأ خبره محذوف مقدم،
تقديره «فيما يتلى عليكم صفة الجنة» كما أعربه الإمام سيبويه
رحمه الله. وذهب الفراء إلى أن كلمة (مثل) مبتدأ وقوله تعالى في
نفس الآية: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جملة خبرية هي خبر
عن (مثل)، وكما جاءت كلمة (مثل) بهذا المعنى في الآية التي
فسرناها وردت أيضاً بنفس المعنى في «سورة محمد»، فقال تعالى:
﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَّ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ
وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ [الآية: ١٥] إلى آخر الآية،
فالمراد فيها أيضاً بمثل الجنة صفة الجنة.

وقوله تعالى في وصف الجنة ﴿أَكْلَهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ تنبيه إلى أن
ما فيها من الخيرات والنعم لا انقطاع له ولا فناء، والأكل بضم
الهمزة معناه المأكول، ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى في
آية ثانية: ﴿وَفِيهَا كَثِيرَةٌ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾
[الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ
مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ
النَّارُ﴾ جارٍ على طريقة القرآن الكريم في الجمع غالباً بين صفة

الجنة وصفة النار، ترغيباً فيما يوصل إلى الأولى، وترهيباً مما يورط في الثانية.

ثم تحدث كتاب الله عن موقف المومنين وموقف المنافقين من القرآن الكريم، وكيف يستقبل نزوله كل من الفريقين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾. والمراد أن المومنين الصادقين يستقبلون الوحي المنزل من عند الله بفرح وابتهاج، وثقة وتصديق، وأنهم لا يزيدون به إلا إيماناً، ولا يزدادون به إلا تمسكاً، ولا يبدون عليه أي اعتراض أو امتعاض، إذ لا يأتيهم إلا بما فيه الصلاح والفلاح دنيا وأخرى، بينما المنافقون يستقبلونه بالإقرار والرضا حيناً، وبالإنكار والسخط أحياناً، إذ يعيرون الوحي بمعيار أهوائهم وشهواتهم ودسائسهم، فمتى نزل القرآن بما يقف حجر عثرة في طريق تلك الأهواء والشهوات تمارضوا واعترضوا، ومتى كشف القرآن النقاب عن دسائسهم لَوُوا رؤوسهم وأعرضوا، ولا يزال موقف الفريقين من كتاب الله على هذا الحال إلى الآن وحتى الآن، فالمومنون به يرون في مبادئه ومناهجه وشعائره وشرائعه المثل الأعلى، والنظام الأصح والأفضل، الذي يجب أن يسود العالم، والمنافقون يسلمون بعضه، وينكرون بعضه أو ينكرونه بالمرة، لأنهم يريدون قرآناً يطاوع أغراضهم ويساير أهواءهم ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

وقوله تعالى هنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُوا، وَإِلَيْهِ مَّآبٍ﴾ يشبه قوله تعالى فيما سبق: ﴿قُلْ

هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴿ [يوسف: ١٠٨]، فهو تأكيد لأن دعوة الرسول دعوة خالصة إلى الله، مجردة من كل غرض ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا، وَإِلَيْهِ مَأْبٍ﴾ . وكلمة (مآب) من الأوب وهو الرجوع، أي إليه مرجعي ومصيري على غرار قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ معناه كما أنزلنا كتباً أخرى على رسل سابقين أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، بلسان عربي مبين، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] . وواضح أن كتاب الله وذكره الحكيم مهيمن على كل ما سبقه من الكتب والرسالات، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه ناسخ لكثير من التشريعات والأعراف السالفة، فله الكلمة العليا عليها جميعاً، وهو الحكم الأخير الذي لا معقب له، بالنسبة لأحكامها جمعاء .

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ تأكيد للصفة البشرية التي اختار الله أن يكون عليها رسله إلى الناس، فهم من ناحية التكوين الخُلقي بشر عاديون لا ملائكة، ولا أنصاف ملائكة، ولا صنف آخر من أصناف المخلوقات، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] - ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الاسراء: ٩٣]، وهم من ناحية الانتخاب الخُلقي والاصطفاء الإلهي للرسالة بشر لا كالبشر ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

رَسَلْتِهِ ﴿ [الانعام: ١٢٤] .

وتفيد الآية الكريمة في نفس الوقت أن الرسالة لا تستلزم رهبانية ولا انصرافاً عن الحياة الإنسانية العادية، حياة الزوجية وإنجاب الذرية، خلافاً لما ابتدعه المبتدعة في مختلف الأديان والملل، وادّعوا أنه يقربهم إلى الله دون حياء ولا خجل .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ردُّ على المشركين والمنافقين الذين خُيِّلَ إليهم أن الرسالة عمل ذاتي يمكن للرسول أن يتصرف فيه كما يريد، بحيث كلما طُلب إليه شيء من المعجزات وخوارق العادات، جاء به من عند نفسه، ترضية للطلبات وتحقيقاً للرغبات، بينما الرسول في الحقيقة إنما هو مبلِّغ عن الله ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] وإنما ينطق بالوحي عن إذن ربه، متى تلقى الوحي، وصدر إليه الإذن بالتبليغ .

والمراد (بالآية) في هذه الآية ما يشمل آيات الذكر الحكيم، وهي آيات معنوية، ويشمل آيات العذاب الأليم، وهي آيات مادية، فطالما استعجل المشركون نزول عذاب الله الذي أنذرهم به، وطالبوا الرسول بإنزاله أو استنزاله، لكن الأمر في الحقيقة أمر الإرادة الإلهية العليا، فهي التي تحدد لكل شيء أجله، وتأتي به في أجله المحتوم ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾، وقال أبو حيان: «قوله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لفظ عام في الأشياء التي لها آجال، لأنه ليس منها شيء إلا وله أجل في بدئه وفي ختامه،

وذلك الأجل مكتوب محصور، وثم أشياء كتبها الله تعالى أزلية كالجنة ونعيم أهلها لا أجل لها».

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال أبو القاسم (ابن جُزَي): «القاعدة المقررة أن القضاء لا بيدك، وأن علم الله لا يتغير، والمحو والإثبات يندرج تحته المحو والإثبات بالنسبة للأحكام الشرعية، فالإثبات هوبقاؤها ودوامها، والمحو هو النسخ، ويندرج تحته ما يعمل الإنسان من طاعة الله، ثم ينزلق إلى المعصية ويموت عليها، فتمحو معصيته طاعته، وما يعمل من معصية الله، ثم يقبل على الطاعة ويموت عليها، فتمحو طاعته معصيته، مصداقاً للحديث الشريف: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

ومن لطائف التفسير في قوله تعالى هنا ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: ما نقل عن الضحاك والفراء، من أن المراد به (لكل كتاب أجل)، بمعنى أن لكل كتاب أنزله الله من السماء أجلاً معلوماً ومدة معينة عند الله، وهكذا توالى كتبه المنزلة الواحد تلو الآخر، إلى أن نزل الذكر الحكيم، فكان خاتمة الكتب الإلهية يمحو منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ يشبه قوله تعالى في سورة ءال

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ، آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الآية: ٧]. فأم الكتاب هو القسم المحكم من آيات الوحي الإلهي الذي لم يصبه أي محو ولم يلحقه أي نسخ، من العقيدة الأساسية، والشريعة الأصلية، الصالحتين للاستمرار والبقاء، والمتفق عليهما في الكتب الإلهية جمعاء، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وإطلاق كلمة (أم) على ما يجري مجرى الأصل للشيء معروف في اللغة، كقولهم (أم الرأس) للدماغ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ إشارة إلى أن خالق الكون متكفل بتسيير كونه طبقاً لمشيئته العليا، وأن الأمر لا يتوقف على أحد من خلقه، وسواء شاهد الرسول عليه الصلاة والسلام بعيني رأسه ما بشر الله به - على لسانه - المومنين، وأنذر به الكافرين، أو توفاه الله إليه، وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يشاهد ذلك، فالمهم بالنسبة إليه - بوصفه رسولاً - هو أن يقوم بواجب التبليغ عن ربه خير قيام، وحساب الخلق في النهاية موكول إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ كناية عما يصيب البلاد العامرة من خراب، وما يصيب الأراضي الخصبية من قحط وجذب، عقاباً من الله لأهلها على

الظلم والفساد، السائدين في البلاد، على غرار قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الآية: ٤٤]. وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إشارة إلى يوم القيامة حيث ينفرد الحق سبحانه وتعالى بالملك الحقيقي والحكم النهائي: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فلا أحد بعد انتهاء الحساب، يستطيع أن يتعقب حكم الله بالعقاب أو الثواب. و (المعقب) هو الذي يكرُّ على الشيء فيبطله إذا كان فيه خطأ.

والآن لم يبق لنا إلا أن نتقل إلى سورة إبراهيم المكية، وسنلاحظ أنها مبدوءة بحروف الهجاء المقطعة كسورة الرعد التي سبقتها (أ. ل. ر.) وسنجد أن أول ما يذكر فيها بعد هذه الحروف كتاب الله والتنويه به، كما هو المعتاد في السور المبدوءة بمثل هذه الحروف ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وأطلق على هذه السورة اسم (سورة إبراهيم)، لما جاء فيها من الآيات المتعلقة بابراهيم الخليل عليه السلام، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي

وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَّا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ
 تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠١﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى
 فِي نَفْسِ السِّيَاقِ حِكَايَةَ لِدَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿١٠٢﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
 وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿١٠٣﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين
في المصحف الكريم

قَالَتْ رُسُلُهُمْ ؕ أَلْفِي
 إِلَهَ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
 لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
 قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ ؕ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
 عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾
 قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ؕ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَا كُنَّ اللَّهُ
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ؕ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
 بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾
 وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
 عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا
 أَوْ نَتَّعِدَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْجِحُوا إِلَيْهِمْ رَبَّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُصِيبَنَّكُمْ بِالْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ
 ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا
 وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى
 مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ، وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ،
 وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ
 عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ
 كَرَمَادٍ إِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
 مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ
 يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾
 وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
 كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ
 عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
 الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتَنِي لِلْأَمْرِ إِنْ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ
 وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

إِلَّا أَنْ دَعَوْكُمُ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَا تُؤْمِنُوا
 أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ
 بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
 وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ
 فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً
 طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٥﴾
 تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
 كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَبْرٍ ﴿٢٧﴾
 يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا

يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِئَةَ اللَّهِ شَكُّ فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

بعدها تناولت الآيات الكريمة السابقة بالذكر قصة موسى مع قومه باختصار، وبيّنت ما أمر الله به موسى من تذكير قومه بأيام الله، بما فيها من نعم ونقم، وبعد أن حذر الله مشركي العرب وَمَنْ وَالَاهِمَّ مِنْ أَنْ يَصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادَ وَثَمُودَ، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن الرسل وأقوامهم عامة، مَنْ عُرِفَتْ أَسْمَاؤُهُمْ وَقِصَصُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، وَمَنْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِمْ دُونَ خَلْقِهِ، فَلَمْ يَرِدْ عَنْ أَحْوَالِهِمْ أَيُّ بَيَانٍ أَوْ تَفْصِيلٍ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الآية: ٩] - ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِئَةَ اللَّهِ شَكُّ فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ

أَجَلٍ مُّسَمًّى، قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاءَنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤﴾ .

فها هنا يشير كتاب الله إلى الدعوة العامة والوحيدة التي جاء بها كافة الرسل عن الله في جميع العصور والأجيال، كما يشير إلى الرد القبيح المتشابه، الذي توارثه خصوم الرسالات الإلهية من أولياء الشياطين، المتعصبين المتحذلقين ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

وقوله تعالى هنا: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ذهب سيويه إلى أن (من) في هذه الآية للتبعض، وعليه يكون المعنى أن الكافر إذا أسلم غُفر له ما تقدم من ذنبه، أما ما يذنبه بعد دخوله في الإسلام فهو في المشيئة، وهكذا تقع المغفرة في الذنب السالف على الإسلام، ويبقى الأمر معلقاً بمشيئة الله فيما وراء ذلك، ويشبهه هذه الآية قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿يَقَوْمًا أَحْبَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الآية: ٣١] ، وقوله تعالى في سورة نوح: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الآيات: ٢، ٣، ٤] فكلها تقتضي غفران بعض الذنوب للكفار إذا آمنوا، وهذا البعض يشمل جملة ذنوبهم قبل الإيمان، مصداقاً لقوله تعالى في آية

أخرى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الانفال: ٣٨].

وكلمة (سلطان) في قوله تعالى: ﴿ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴾ ترد في القرآن بمعنيين: المعنى الأول: الحجة والبرهان، ويشمل نفس المعجزات، كما ورد في هذه الآيات، والمعنى الثاني: القوة والقهر، كما في قوله تعالى متحدياً معشر الجن والانس: ﴿ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي لا تخترقون أقطار السماوات والأرض وتجاوزونها إلى ما وراءها إلا بقوة وقهر، وأنى لكم ذلك؟.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إشارة إلى ما يحاوله الكفار من الضغط على الرسل بغية التسليم لهم بملتهم، وما يهددونهم به من النفي والإبعاد عن أرضهم إن لم يذعنوا لضغطهم، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الاسراء خطاباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الأيتان: ٧٦، ٧٧]، وإلى قوله تعالى في سورة الانفال خطاباً لرسوله أيضاً: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ [الآية: ٣٠]، وإلى قول ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم. لم يأت أحد بمثل ما

جئت به إلا عُودِي وأُخرج، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً». قال أبو القاسم ابن جُزَي: «والعود هنا - أي في قوله - ﴿لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ بمعنى الصيرورة - أي تصيرون على ملتنا - وهو كثير في كلام العرب، ولا يقتضي أن الرسل كانوا في ملّة الكفار قبل ذلك، (فحاشاهم من ذلك).

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إشارة إلى ما قام به الرسل عليهم السلام من الاستنجاد بالله وطلب نصره لهم على الكفار من قومهم، وإلى أن الله لم يُخلف وعده رسّله، بل نصرهم على خصومهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ البَعِيدُ﴾ إشارة إلى الصفة التي يكون عليها الكفار يوم القيامة، فلفظ (مثل) هنا بمعنى الصفة نفسها، وليس المراد به مجرد ضرب المثل، ومذهب سيبويه والفراء في هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ هو نفس مذهبهما في قوله تعالى في بداية الربع الماضي ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]. فعلى مذهب سيبويه يكون الخبر محذوفاً تقديره - فيما يتلى عليكم - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وعلى مذهب الفراء يكون الخبر هو الجملة التي بعدها ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ [الآية: ١٨]. وشبّهت أعمال الكفار التي يظنونها أعمالاً صالحة بالرماد، لذهابها وتلاشيها وعدم اعتبارها، إذ هي فاقدة للإيمان والإخلاص الذي

هو شرط أساسي لقبول الأعمال .

وفوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى لا يمتنع على قدرته أن يبيد المخالفين ويمحق الكافرين ، ثم يستبدل بهم من يطيع أمره ولا يعصيه ، ومن يؤمن به ولا يشك فيه ، على غرار قوله تعالى ضمن آية ثانية بنفس اللفظ والمعنى في سورة فاطر : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧] ونظير قوله تعالى في آية ثالثة : ﴿ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ [النساء : ١٣٣] ، وقوله تعالى في آية رابعة : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إشارة إلى الخطبة التي سيلقيها إبليس على أتباعه من الضالين والمنحرفين ، والمنافقين والكافرين ، عندما يُرْفَعُ النِّقَابُ ، وَيُهْتَكُ الْحِجَابُ ، وَيُفْصَلُ فِي أَمْرِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، فيعترف إبليس اللعين ، لأتباعه المخدوعين ، بأن الله وحده هو الذي وعد عباده وعد الحق ، وأن إبليس لم يعدهم إلا وعد الباطل ، ثم يتبرأ منهم ، ويلقي المسؤولية كلها

عليهم، ويدعوهم - بدلاً من أن يلوموه - إلى لوم أنفسهم. قال ابن كثير: «الظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار».

والمراد بقوله هنا: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ ما أنا بمغِيثكم، وما أنتم بمغِيثين لي، فليس في استطاعة أي واحد إنقاذ الآخر مما هو فيه من العذاب، بل كل منهما عاجز عن إنقاذ نفسه فضلاً عن إنقاذ الآخر.

ثم أشار كتاب الله إلى عاقبة المومنين المتقين، وما يلقونه عند ربهم من حسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

وأخيراً ضرب الله المثل للعمل الصالح الذي يعمله المومن كلما همَّ بعمل، وللقول الطيب الذي يفوه به كلما فاه بخطاب، ولا سيما كلمة الإيمان، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. كما ضرب كتاب الله المثل للعمل الفاسد والقول الخبيث، اللذين يقوم بهما الضالون والمنحرفون، والمنافقون والكافرون، ولا سيما كلمة الكفر والإلحاد، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ والمراد بقوله (اجتثت) أي استؤصلت، والمراد

بقوله (ما لها من قرار) أي لا أصل لها ولا ثبات.

وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ المراد بالقول الثابت الشهادتان اللتان يقرُّ بهما المومن من أعماق قلبه، ويُشهد عليهما كل جوارحه ومشاعره، وهكذا إذا فُتِنَ الذين آمنوا في الدنيا ثَبَّتَهُمُ اللهُ بالقول الثابت، فلم يُسَلِّبُوا بعد العطاء ولم يزلوا، وإذا فُتِنُوا فِي الآخِرَةِ ثَبَّتَهُمُ اللهُ بالقول الثابت فلم ينسوا ولم يضلوا، وكما بشر الحق سبحانه وتعالى المومنين فقال في شأنهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] أنذر الكافرين ومن سلك مسلكهم من الضالين، فقال تعالى هنا: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

وختِمَ هذا الربع بما يؤكد قدرة الله المطلقة، وتصرفه الشامل في خلقه، فقال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤].

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين
في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
 وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبِيسَ
 الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
 تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
 وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ

لَا تُخْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٧﴾
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ
مِن دُرِّيَّتِي بَوَادِئَ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٩﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ
تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٠﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤١﴾
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن دُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَاءِي ﴿٤٢﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ ﴿٤٣﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ
إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
وَأَفِئْتُهُمْ هَوَاءً ﴿٤٥﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِجَّ
 دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعَ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ
 قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا
 بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ
 وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ
 الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مَخْلَفًا وَعَدِيدُهُ رُسُلُهُ وَإِنَّ
 اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
 وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
 يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قِطْرَانٍ
 وَتَعْبَثُوا وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ
 وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا، وَيَبْسُ الْقَرَارُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

في بداية هذا الربع يلفت كتاب الله نظر كل من له عقل وبصيرة إلى سوء تصرف الأشقياء من العباد، حيث يحيلون نعمة الله نقمة وخيره شراً، وحيث لا يكتفون بالإساءة إلى أنفسهم بسوء تصرفهم، بل تكون إساءتهم سبباً في إيذاء الآخرين وجرحهم معهم إلى الهلاك المحقق، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا، وَيَبْسُ الْقَرَارُ ﴾ أي المقر.

والمراد من هذه الآية إثارة التعجب من حال جميع الذين لا يقدرّون نعم الله حق قدرها، ويعدلون عن شكرها، وإن كانت هذه الآية في رأي بعض المفسرين تشير أولاً وبالذات إلى أئمة

الشرك، وما جرى لهم ولقريش على يدهم من هزائم وخسارات في الأنفس والأموال، وقحط وجدب طيلة سبع سنين، أثناء تصديهم للإسلام، الذي هو أكبر نعمة عليهم وعلى الناس، بالمهاجمة والمقاومة والتنكيل. قال ابن كثير: «إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبل نعمته وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار».

وقوله تعالى هنا: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي بدلوا شكر نعمته كُفْرًا، فهو على حذف مضاف، نظير قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلون شكر رزقكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ جَهَنَّمَ﴾، أي كانوا سبباً في سوء العاقبة لمن اتبعهم وأطاعهم، وحلولهم بدار الهلاك وهي جهنم، ويفهم من هذه الآية أنه إذا كان مآل الأتباع حلول دار البوار، فإن القادة المتبوعين يكونون بحلولها أحق وأولى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارة إلى ما يجب على المومنين من حقوق لله وحقوق للعباد، فحق الله يتجلى في حقه الأول وهو إقامة الصلاة، وحق العباد يتجلى في حقهم الأول وهو الإنفاق على المحتاجين منهم، فرضاً ونفلاً، سراً وعلناً، بالإضافة إلى ما يلزم للأهل والأقرباء، وذوي الأرحام الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا

خِلْلٌ ﴿ إشارة إلى وجوب مبادرة المومنين بأداء ما عليهم من الحقوق لله ولعباده، دون تأخير ولا إمهال ولا إهمال، حذراً من أن يفاجئهم الموت قبل أن يقوموا بها، فلا يمكنهم أن يتداركوها يوم القيامة، إذ إن يوم القيامة يوم لا تنفع فيه فدية بمال ولو كانت ملء الأرض ذهباً ﴿ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ ﴾، ولا تنفع فيه محبة الأحاب وخلة الأصحاب، ﴿ وَلَا خِلْلٌ ﴾.

ثم استعرض كتاب الله جملة من بدائع الصنع الإلهي في العالم العلوي والعالم السفلي، مذكراً بما انطوت عليه من نعم كبرى سخرها للإنسان، داعياً إياه إلى التأمل في عجائبها وتدبر آياتها، إذ كلها دلائل ناطقة بوجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، ومظاهر بارزة لإحسانه ورحمته، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ والمراد بقوله تعالى هنا ﴿ دَائِبِينَ ﴾ أن الشمس والقمر يتعاقبان باستمرار، فلا يفتران في سيرهما، ولا يتوقفان عن حركتهما، وذلك مما يتفق كل الاتفاق وينسجم كل الانسجام مع ما تتوقف عليه حياة الإنسان والحيوان والنبات، ومصالح الأحياء جميعاً فوق سطح الأرض.

وامتن سبحانه وتعالى على الإنسان امتناناً خاصاً بما أكرمه به من جميع النعم، التي يتوقف عليها في تصرفاته، الضرورية والحاجية والكمالية، سواء في ذلك ما سأله منها بلسان المقال،

وما سأله منها بلسان الحال، مبيِّناً أن نعم الله لكثرتها وتنوعها لا يستطيع أن يعدّها عاد، بل هنالك نعم إلهية خفية ودقيقة تخفى حتى عن أدق الأفكار، لأنها من باب اللطف الخفي، فلا يهتدي إليها علم الإنسان المحدود، ولا سبيل لإدراكها فضلاً عن إدراجها تحت العد والمعدود، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾.

ثم عقب كتاب الله على ذلك كله بما يكون عليه حال الإنسان، الفاقد للإيمان، من ظلم في حق الله، بالشرك به، وظلم في حق نفسه، بالكفر بالله، وظلم للخلق، بتعدي حدود الله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وعلاقته بالبلد الحرام والبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾. وبذلك بين كتاب الله أن ما عليه مشركو العرب من عبادة الأوثان والأصنام لا يمتُّ بصلة إلى ملة إبراهيم، وأن عبادة الأصنام إنما هي ضلال في ضلال، وأن ما يتمتعون به من أمن في البلد الحرام إنما هم مدينون به قبل كل شيء لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، لا إلى ما اخترعوه لعبادتهم من الأوثان والأصنام. وبذلك أقام الحجة عليهم، ولم يُبق لهم عذراً، ثم قال تعالى حكاية لتتمة دعاء إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، إشارة إلى أن من اتبع إبراهيم على ملة التوحيد كان منه وإليه،

وإلى أن من عصاه فارتكس في عبادة الأصنام ليس منه، ولو انتسب إليه، بل أمره موكل إلى مشيئة الله، إن اهتدى بعد كفره إلى الإيمان تاب الله عليه وغفر له، وإلاً عاقبه ولو أمهله.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ قال أبو القاسم ابن جزي: «اجنبي: أي امنعني، وبني: يعني من صلبه، وفيهم أجبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام».

وأشار كتاب الله إلى ذرية إبراهيم التي أسكنها بالبلد الحرام، وما أراد أن تكون عليه هذه الذرية، وما دعا لها به من الدعوات الصالحة ديناً ودنياً.

والأمر يتعلق في بدايته باسماعيل بن إبراهيم عندما حمله أبوه رضيعاً مع أمه هاجر من الشام إلى مكة، وتركهما إبراهيم وديعة في يد الله، بأمر من الله، في نفس البقعة التي سيقام فيها البيت الحرام في البلد الحرام، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي عند المكان الذي سبني فيه بيتك المحرم ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

والمراد ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ مكة، والوادي في لسان العرب ما بين جبلين، وإن لم يكن فيه ماء، وحيث أن مكة لم يكن فيها زرع دعا إبراهيم ربه أن يرزقها من ثمرات البلاد الأخرى، إعانة للعاكفين بها والوافدين إليها على عبادة الله وطاعته

وشكره، وقد استجاب الله دعاء إبراهيم الخليل، واستمر البلد الحرام رافلاً في حلل النعيم جيلاً بعد جيل، وامتناناً من الله تعالى على أهله والوافدين عليه، قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا - أَمِنَّا تُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾.

وفي تفسير هذه الآية قال جار الله الزمخشري وهو شاهد عيان لما كان عليه البلد الحرام في القرن الخامس الهجري وأوائل القرن الذي يليه: «لا جَرَمَ أن الله عز وجل أجاب دعوة إبراهيم، فجعله حراماً آمناً تُجِبِّي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضَّله، في وجود أصناف الثمار فيه، على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يُرِيكها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان، من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمة، ووفقنا لشكر نعمه».

وقوله تعالى هنا حكاية عن إبراهيم ﴿فَجَعَلَ أَفِيدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، إشارة إلى ما حبه الله إلى المومنين من حج بيت الله الحرام، وقدمهم عليه من جميع أطراف العالم كل عام.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسيره هذه الآية ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: «لا يجوز لأحد أن يتعلق به في طرح عياله وولده بأرض مَضِيعَة (أي مفازة منقطعة) اتكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم، فإن

إبراهيم فعل ذلك بأمر الله، لقولها (أي هاجر) له في هذا الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال نعم. ولما كان بأمر منه أراد تأسيس الحال وتمهيد المقام، وخطَّ الموضع للبيت الحرام والبلدة الحرام».

وقوله: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خصها من جملة الدين، لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد، قال النبي ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على عباده في اليوم والليلة، فمن جاء بهن لم يضيعْ منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يُدخله الجنة، ومن لم يأتِ بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة». رواه مسلم في صحيحه.

ثم حكى كتاب الله جزءاً آخر من قصة إبراهيم في مرحلة لاحقة، وفي هذا الجزء ورد ذكرٌ ولديه اسماعيل وإسحاق، والإشارةُ إلى فرحه بهما، وشكره لله عليهما، وقد كان إسماعيل أكبر سنّاً من أخيه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وسجّل كتاب الله الدعاء الإبراهيمي الذي يعتبر نموذجاً للدعاء الصالح بالنسبة لكل مومن، فقال تعالى حكاية لدعاء إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. وها هنا نجد إبراهيم عليه السلام يحصر دعاءه للمرة الثانية في إقامة الصلاة التي هي عماد الدين، كما حصره فيها في المرة الأولى إذ قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ونجده يدعو لذريته ووالديه

والمومنين، وهكذا ينبغي لكل داعٍ أن لا يخص نفسه بالدعاء، بل أن يدعو لنفسه ووالديه وذريته وكل من له حق عليه، وأن يدعو لكافة المومنين.

وقد نبه علماء التفسير في هذا المقام إلى أن دعاء إبراهيم لوالديه معاً حسبما ورد في هذه الآية كان سابقاً على معرفته بما سيستقر عليه أمر والده، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [الآية: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ إلى آخر الآية، تنبيه عام من الله تعالى موجّه لكل ذي عقل وبصيرة من عموم الناس، إلى أن الله تعالى إذا أمهل الظالمين فإنه لا يهملهم، إذ إليه يرجعون، وسيعاقبهم على ما يعملون.

وجدد كتاب الله الخطاب لرسوله، يأمره بتبليغ الرسالة وإنذار الخلق، حتى تقوم عليهم الحجة، ولا يبقى لهم أي عذر في التخلف عن إجابة الدعوة، فقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ خطاب عام من الله تعالى موجه إلى كل ذي عقل وبصيرة من عموم الناس، بأن لا يشك أدنى شك في إنجاز أيّ وَعْدٍ وَعَدَّ اللَّهُ بِهِ، أيّاً كان الشخص الموعود به، ولا سيما الوعد الذي وعد الله به رسله أنفسهم. قال أبو القاسم ابن جرّي:

«قدم (الوعد) في قوله ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ وهو المفعول الثاني على قوله (رسله) وهو المفعول الأول، ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: (رسله) ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه، فقدم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل بقصد التخصيص».

وإذا كان توجيه الخطاب إلى عموم الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أمراً مفهوماً ومعقولاً، فإن من غير المفهوم وغير المعقول أن يعتبر الخطاب فيهما موجهاً إلى الرسول نفسه عليه السلام، لأنه لا يتصور في حق الرسول أن يسيء الظن بالله أو يشك في إنجاز وعده الحق، قال أبو حيان في تفسيره: «الخطاب بقوله ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً﴾ للسامع الذي يمكن منه حسبان مثل هذا، لجهله بصفات الله، لا للرسول ﷺ فإنه مستحيل ذلك في حقه، والنهي عن الحسبان في قوله ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ كهو في قوله ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً﴾».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ إشارة إلى ما يعتور الكون من تغيير وانقلاب لا يبقى معهما على صورته المألوفة، وذلك عند قيام الساعة. يقال: تبدل فلان إذا تغيرت أخلاقه، ويقال: بدلت الدراهم دنائير، وبدلت الحلقة خاتماً. وهكذا يطلق (التبديل) ويراد به إما تغيير شيء بآخر بدلاً

منه، وهو التبديل في الذوات، وإما تغيير الشيء الواحد من حالة إلى أخرى ومن شكل إلى آخر، وهو التبديل في الصفات.

أما مظاهر التبديل والتغيير الذي يلحق الكون فقد خصص لها كتاب الله عدة آيات في عدة سور، منها: سور الدخان والطور والقمر والواقعة والحاقة والقيامة والمرسلات والنبأ والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة والقارعة، وفيها القول الفصل فيما سيؤول إليه أمر العالم في اليوم الموعود، طبقاً لمشيئة الله القاهر فوق عباده، كقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ﴾ [القيامة: ٧، ٨، ٩، ١٠]. وقد اضطر العلم الحديث إلى الاعتراف بأمر هذا الانقلاب الكوني المنتظر، فصَدَّقَ الحُبْرُ الخبر.

وكما بُدِئَتْ سورة إبراهيم المكية بالحديث عن كتاب الله والتنويه بمزاياه ﴿أَلر، كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ خُتِمَتْ السورة بنفس الحديث عن كتاب الله، وما يتضمنه من دعوة الناس إلى توحيد الله، وتذكيرهم بالله، فقال تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكُتُبِ وَقُرْءَانَ مُبِينٍ ① زُيْمًا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْآمَلُ
 فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ
 مَّعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ⑤ وَقَالُوا
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا
 بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦ مَا نَنْزَلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا
 بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذْ مُنْظَرِينَ ⑧ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا
 لَهُوَ الْخَفِيُّونَ ⑨ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ⑩
 وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑪ كَذَلِكَ
 نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةٌ

الْوَالِيْنَ ۝ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝
 لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝
 وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝
 وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ
 فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُّبِينٌ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
 رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ
 فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
 خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ
 فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ
 بِخَازِنِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ مُّهِمُّوهُ وَنُهِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ وَلَقَدْ
 عَلَّمْنَا الْمُتَّقِينَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَحْسِنِينَ ۝ وَإِنَّا
 رَبُّكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ وَإِنَّهُ خَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
 مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَالْجَبَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
 مِنْ بَارِ السَّمُومِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا
 مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
 مِنْ رُّوحٍ فَقَعُوْا لَهُ وَسُجِدُوا ۝ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ

أَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾
 قَالَ يَا بَلِيسَ مَا لَكَ الْأَنْتَ تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لِمَ أَكُنْ
 لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
 قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
 يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾
 قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا
 صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
 سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
 مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا
 بِسَلَامٍ - آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا
 عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا
 بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة الحجر المكية: ﴿الر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ، رَبَّمَا يَوْدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ، إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بفضل الله «سورة إبراهيم المكية»، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير «سورة الحجر المكية» أيضاً، وسميت هذه السورة سورة الحجر، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا - أَمِينِينَ، فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وسورة الحجر مبدوءة بحروف الهجاء المقطعة (أ. ل. ر.)

نظير كل من: سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة الرعد، وسورة إبراهيم الواردة قبلها على التوالي دون فاصل بينها، والمفتحة كلها بنفس النوع من الحروف الهجائية المنفصلة، على نفس النهج الذي بُدئت به كل من سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف، وقد تكرر في هذه المجموعة من السور التسع حرف الألف وحرف اللام، وتكرر حرف الراء في ست منها، وتكرر حرف الميم في أربع منها، وورد حرف الصاد في واحدة منها.

وهناك مجموعة أخرى من السور على هذا النمط يبلغ عددها العشرين، وهي حسب ترتيب كتابتها في المصحف الكريم: سورة مريم، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص، وسورة العنكبوت، وسورة الروم، وسورة لقمان، وسورة السجدة، وسورة يس، وسورة ص، وسورة غافر، وسورة فصلت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف، وسورة (ق) وسورة (ن). وقد تكرر حرف الميم في ثلاث عشرة منها، وتكرر حرف الحاء في سبع منها، وورد حرف الطاء وحرف السين فيها أربع مرات، وورد فيها كل من حرف الصاد وحرف الباء وحرف الهاء مرتين، وورد فيها كل من حرف الكاف وحرف القاف وحرف النون مرة واحدة.

وكل هذه السور المفتحة بالحروف المقطعة يأتي في مطلعها الحديث عن معجزة القرآن، والتنويه بها تنويهاً خاصاً، ومن بين من نبّه على ذلك ابن كثير، ودلّ عليه الاستقراء في علم

التفسير، كقوله تعالى هنا في سورة الحِجْرِ التي نحن بصدد تفسيرها ﴿الرَّ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ .

وكان إيراد الحروف الهجائية المقطعة في مطلع هذه السور إشارةً إلى أن حكمة الله البالغة اقتضت أن تُحوَّل الحروف العادية الجارية على السنة الناس، والتي لا يصوغون منها أيّ كلام معجز للبشر، إلى مادة إعجاز إلهي يقف الجنس البشري كله أمامها مبهوراً ومبهوراً، سواء من آمن منه أو من كفر، كما هو الأمر بالنسبة إلى مواد أخرى هي في متناول البشر جميعاً، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا منها أيّ شيء خارق للعادة، بينما القدرة الإلهية تصنع منها أعجب الأعاجيب، وفي طبيعتها الإنسان المخلوق من طين، والطين في متناول كل الناس، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا منه بأيديهم حتى أخس الحشرات، وأضعف الجراثيم، فضلاً عما هو أعلى وأدق، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١] .

وقوله تعالى هنا: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أخباراً عن الكافرين بأنهم سيئدمون على ما هم فيه، وسيتمنون عندما يعرفون حقيقة الإسلام أن لو كانوا مسلمين، ولا سيما عندما يكون أحدهم في حالة الاحتضار وتتجلى أمامه الحقائق الرهيبة، وهذا أمر واقع ما له من دافع، فكم من الكفار يقارنون معتقداتهم الباطلة بعقيدة التوحيد الحق، ويقارنون تشريعاتهم الإباحية بشريعة الإسلام الأخلاقية، ويتمنون لو أنهم كانوا على عقيدة الإسلام الصحيحة، وشريعته الفاضلة، ونفس

الموقف سيقفه الكفار عندما يُواجهون عذاب الله في الدار الآخرة، كما قال تعالى في آية ثانية في سورة الانعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرُدُّ، وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: ٢٧]. ولفظ (رُبُّ) يأتي غالباً للتقليل، وأحياناً للتكثير، و(رُبِّمًا) الواردة هنا من هذا القبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ إشارة إلى سنة الله التي خلت من قبل في الأمم والشعوب عندما ترتكس في أحوال الضلال، وتصر على السير في طريق الخبال، فإن الله يسلط عليها أسباب الإبادة والهلاك، وعلى مدنها وقراها عوامل الخراب والاضمحلال. ويبيّن كتاب الله أن هناك قانوناً ثابتاً لا يتخلف لارتقاء الأمم وسقوطها، وسعادتها وشقتها، وعزّها وذلّها، فقال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ﴾ ومعنى ذلك أن الله جعل لكل أمة عمراً كأعمار الأفراد، وأجلاً لحياتها كأجل العباد.

ثم عرّض كتاب الله بعض الادعاءات والاتهامات التي اعتاد توجيهها إلى الرسل والأنبياء خصومّ النبوات والرسالات، فقال تعالى حكاية عن مشركي قريش - وهم يخاطبون الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام - ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ على غرار ما قالته الأقوام السابقة لمن جاء قبله بالرسالة، إذ وصفوهم بالغباوة والسفاهة والضلالة.

وقول المشركين لرسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ لم يصدر منهم على أنه اعتراف حقيقي بأنه رسول يوحى

إليه من عند الله، وإلا لأصبحوا مومنين، وإنما صدر منهم في صورة استخفاف بدعواه، كأنهم يقولون له: يا أيها الذي يزعم أنه نزل عليه الذكر، وما هم له بمومنين.

ورداً على استخفافهم، وإبطالاً لادعائهم، عقب كتاب الله على قولهم في نفس السياق فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. وهكذا ركز كتاب الله جوابه حول المعنى الذي دار عليه كلامهم وهو: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ فجاء بما يثبت ذلك المعنى ويؤكد تأكيده قاطعاً، وأخبر بأن الله تعالى هو الذي نزل الذكر على رسوله حقيقة لا خيالاً، وصدقاً لا ادعاءً، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾.

ثم أضاف إلى ذلك ما هو أجل وأخطر، وهو أنه سبحانه قد تعهد، لا بتنزيل القرآن من عنده فحسب، بل تعهد بصيانة القرآن وحفظه من كل خلل على مر الأعصار، ورغم أنف جميع الخصوم والأعداء، فهو محفوظ بحفظ الله في الصدور والسطور من كل تبديل أو تغيير، وهو محفوظ بحفظ الله، من جميع العوارض التي تعرض للبشر عادة فيما يتناقلونه ويتحملونه على عهدتهم، ويتولون حفظه بأنفسهم، وإذا كان غير القرآن من الكتب المنزلة قد لحقه تغيير وتبديل، وتحريف وسوء تأويل، فإن ذلك آتٍ من أن الله تعالى قد ابتلى أهلها عندما وكل حفظها إليهم، فضيعوها ولم يحافظوا عليها، كما قال تعالى في شأنهم في سورة المائدة: ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [الآية: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾^١ يصف فيه كتاب الله جميع الكفار والمنافقين المعاندين الذين أصمُّوا آذانهم عن سماع دعوة الدين، وتلقي الحق المبين، والمراد هنا أن هذا الصنف من الخلق لو رأوا بأعينهم أعظم خارق للعادة، وعُرج بهم إلى السماء، والتحقوا بالملأ الأعلى، لأنكروا أمره، وادَّعوا أنه مجرد سحر أو تخييل، على غرار ما قاله فرعون وملاؤه لموسى الكليم.

وقوله ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي يصعدون، وقوله حكاية عنهم: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ إما من السُّكْر ضد الصحو، فيكون معنى: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾: كنا في غيبوبة، ورأينا الأمر على غير حقيقته، أو من السُّكْر بمعنى السد، فيكون معنى: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾. حُجِست أبصارنا ومنعت من النظر، وهذا تصوير لادعائهم الكاذب، ولتهربهم بجميع الوسائل من الاعتراف بالحق.

وانتقل كتاب الله إلى التذكير بآيات الله في السماوات والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، عسى أن يتدبروها، ويدركوا ما فيها من حِكْم عامة لجميع المخلوقات، ومصالح خاصة للإنسان وغيره من الحيوان، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ، وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ، وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا

خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١٠﴾. والمراد بالبروج ما يشمل منازل الشمس والقمر، والكواكب والشهب، والمذنبات والمجرات، وكل ما هو سابح في الفضاء من عوالم السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ إشارة إلى حكمة الله الدقيقة في أنواع النبات والثمرات، مما يتجدد خلقه دون انقطاع، حسب نواميس ثابتة لا تتخلف، وموازين دقيقة لا تختل ولا تضطرب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ فيه إشارة إلى خزائن الله الواسعة التي بثها ووزعها في العالم العلوي والعالم السفلي، والتي خزن فيها كل ما يتوقف عليه الإنسان، في مختلف العصور والأزمان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذه الخزائن لا يُطلع الله عليها الإنسان جملة واحدة، ولا يضعها تحت تصرفه دفعة واحدة، وإنما يتم ذلك «بقدر معلوم»، أي بمقدار محدود، طبقاً لحكمة الله العليا، المسيرة لهذا الكون، والسارية في جميع أجزائه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ إشارة إلى المياه التي يكرم الله بها عباده للشرب والسقي والنبات، وأنه سبحانه قادر على أن يذهبها ويغورها فلا يبقى منها عين ولا أثر، لكنه رحمة بعباده، يدخر منها لصالحهم في جوف الأرض، ما يرتفقون به من

العيون والآبار، ويدخر منها على سطح الأرض ما تجري به الوديان والأنهار، وهكذا يتولى الله خزنها رحمة منه بالإنسان، إذ قيام الإنسان بخزنها كلها والمحافظة عليها ليس في الإمكان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء، أزلاً وأبداً، من الأوائل والأواخر، ثم أكد كتاب الله أنه سيجمعهم وسيحشرهم جميعاً في اليوم الموعود ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، والتعبير بقوله ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للتنبيه على أن جمعهم جميعاً وحشرهم في صعيد واحد، - رغماً عن كثرتهم وتفرقهم وتطاول أعصارهم - هو وحده القادر عليه، وليس على الله بعزيز.

وانتقل كتاب الله من الحديث عن خلق السماوات والأرض إلى الحديث عن قصة خلق الإنسان، وما جاهر به ابليس آدم وبنيه من العداوة والبغضاء والحسد، مبيناً أن مشيئة الله اقتضت أن يخلق الإنسان ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وأن حكمته اقتضت أن يأمر ملائكته بالسجود لآدم بعد أن يسويه وينفخ فيه روح الحياة، تكريماً لما خصه به سبحانه من الخصائص والمزايا التي لم يمنحها لسواه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

ومعنى قوله: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ من الوجهة اللغوية: «من طين يابس غير مطبوخ»، ومعنى قوله:

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ : أنعمت عليه بنعمتي الایجاد والامداد، وليس هناك نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل وتصوير لما أمر به الحق سبحانه وتعالى من تجهيز الإنسان وتزويده بالأجهزة الضرورية لحياته فوق سطح الأرض ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

وقوله تعالى في نهاية هذه القصة، خطاباً لإبليس اللعين: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ هو الذي سيضطر إلى الاعتراف به إبليس اللعين، عندما يفتضح أمره يوم الدين، قائلاً لأتباعه الغاوين، فيما حكاه كتاب الله في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلُوْمُوا أُنْفُسِكُمْ ﴾ [الآية: ٢٢]، فما نفاه الحق سبحانه عن إبليس في البداية ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ هو الذي أقر به إبليس في النهاية ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ ﴾، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ ﴾ [الانعام: ١١٥] .

وختِم هذا الربع بالحديث عما ينتظر المومنين المتقين في جنات النعيم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ - آمِنِينَ ﴾ أي يقال لهم: سلام عليكم ادخلوها سالمين ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ، إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أي اخواناً في الآخرة كما كانوا اخوة في الدنيا - إنما المومنون اخوة - ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
 هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٢﴾ وَنَدَّبَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٣﴾
 إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٤﴾
 قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٥﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي
 عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا أَبَشْرْنَا بِالْحَقِّ
 فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ
 إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٩﴾
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا
 لَمُجْرِبُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦١﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
 الْغَابِرِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ إِنَّكُمْ
 قَوْمٌ مُّتَكَبِّرُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا بَلْ جُنَّتْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٥﴾

وَأَنبَأَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ
 اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ
 تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ
 مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾
 قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾
 قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
 يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبَاةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا
 سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيدٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّلَّذَوَّابِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَاننقمنا
 مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾
 وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا - آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّبَاةُ
 مُّصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَاتٌ

فَاصْفَحْ الصَّغْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾
 وَلَقَدْ - اتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾
 لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ
 عَلَيْهِمْ ۚ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي
 أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
 الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
 عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
 يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
 أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
 مِنَ السَّجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

في بداية هذا الربع قرر كتاب الله مبدأً أساسياً في العقيدة الإسلامية، عليه يقوم الثواب والعقاب، وبه يرتبط الخوف والرجاء، فقال تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فمن أراد رحمة الله سعى لها سعيها، ومن أراد غير ذلك نال الجزاء الذي يستحقه، ولا يظلمون فتيلاً.

وتناول كتاب الله بالذكر في هذا الربع قصة لوط وقومه، التي مر ذكرها في سورة هود، فقد كان العمل الذي ابتدعه قوم لوط في حد ذاته من أنكر المنكرات وأفحش الفواحش، مما أثار غضب الله عليهم، وأوجب ضرب المثل بخطيئتهم وبعقوبتهم،

واحتقار الناس لهم ولمن سلك مسلكهم عبر الأجيال والقرون .

وبمناسبة ذكر قصة لوط وقومه أشار كتاب الله إلى جنوده من الملائكة الذين أرسلهم إلى قوم لوط وعرجوا في طريقهم على إبراهيم الخليل، واستضافوه فأكرم ضيافتهم، وبشروه بسلام عليم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَبَشَّرْنَا إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ﴾ أي قال إبراهيم إنا منكم خائفون ﴿ قَالُوا لَا تَوَجَلْ إِي لَّا تَخَفْ: ﴾ إنا نبشرك بغلام عليم ﴿ وهذا الغلام هو إسحاق الذي ولد لإبراهيم بعد أخيه إسماعيل ﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿ أي ابشروني بالولد، مع أنني قد كبر سني ﴾ قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴿ أي باليقين الثابت ﴾ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ، قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿، وهذا دليل على تحريم القنوط من رحمة الله ﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿ أي ما شأنكم وبأي شيء جئتم ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿ والمراد هنا قوم لوط، وُصِفُوا بِالْإِجْرَامِ، لِإِقْبَالِهِمْ عَلَى الشَّدُوذِ الْجِنْسِيِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْآثَامِ: ﴿ إِلَّا عَالَ لُوطٍ ﴾ أي فإنهم مستثنون من القوم المجرمين، وقد استثنى الله من آل لوط أنفسهم امرأته التي بقيت على ملة قومها ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي أن الله تعهد بنجاة آل لوط، ما عدا امرأته، فإنها من الهالكين ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي قال لهم لوط إنني أجهلكم ولا أعرفكم ﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ

يَمْتَرُونَ ﴿ أَي جئنا لإخبارك بعذاب قومك، ذلك العذاب الذي
 أُنذرتهم به وكانوا يشكّون في وقوعه، ويستهزئون بك من أجله
 ﴿ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ، فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴿
 أَي اخرج يا لوط من هذه الأرض الظالم أهلها برفقة أهلك، بعد
 مُضيّ جزء من الليل ﴿ وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ ﴿ أَي اجعل أهلك أمامك
 وسر خلفهم من ورائهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴿ أَي إذا سمعتم
 وقع الصيحة بالقوم المجرمين فلا تلتفتوا إليهم، واتركوهم فيما
 حلّ بهم من العذاب ﴿ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿ أَي واصلوا السير
 إلى المكان الذي أمركم الله أن تسيروا إليه، ويفهم من هذه الآية
 أنه كان معهم من يدهم على مقرهم الجديد ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ
 الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿ أَي أن الله قضى أن
 يقطع دابر قوم لوط عند الصباح ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴿
 [هود: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿ أَي جاء قوم لوط
 المتساكنون بمدينتهم، مظهرين الفرح بضيوف لوط ناوين بهم
 سوءاً، دون أن يعرفوا أن هؤلاء الضيوف إنما هم في الحقيقة
 جنود الله وملائكته الموكلون بعذابهم على فاحشتهم الكبرى،
 لكن الله أراد أن يقيم الحجة عليهم وهم شبه متلبسين بالجريمة،
 لأنهم عزموا عليها، فبادرهم نبيهم لوط: ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي
 فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ، قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ
 الْعَالَمِينَ ﴿ أَي أما نهيناك أن تُضيّف أحداً عندك، وذلك حتى
 يتمكنوا من ضيوفهم ويعتدوا على كرامتهم ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ

كُتِّمَ فَعَلِينِ ﴿ المراد إرشادهم إلى وجوب الإقتصار على الزواج بالإناث من قومه، وتذكيرهم بأن الله تعالى إنما خلق الذكر والانثى ليزواج بينهما من أجل عمران العالم واستمرار النوع البشري عن طريق التناسل جيلاً بعد جيل، في حدود الشريعة والفضيلة، وأنه لا يرضى عن الشذوذ الجنسي الذي هو أكبر رذيلة (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿ أي عند شروق الشمس، والمراد «بالصيحة» العذاب الذي رافقة صوت مزعج كصوت الرعد القاصف ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ﴿ أي قلبنا مدينتهم رأساً على عقب قلباً مادياً ومعنوياً، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿ .

ثم عقب كتاب الله على قصتهم بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿ أي أن في عذاب قوم لوط وانتقام الله منهم آيات قاطعة، وبراهين ساطعة، يعتبر بها كل من عنده فراسة وبصيرة من المومنين، حتى لا يقع فيما وقعوا فيه ﴿ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿ أي أن مدينة قوم لوط التي قلبها الله عليهم انتقاماً منهم واقعة على طريق مطروق يمر به الناس حتى اليوم، ليعتبروا ويتذكروا ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ ﴿ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وتأكيداً لنفس العبرة المقصودة من قصتهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ أي إن في ذلك لعبرة لمن آمن بالله وقدرته، حتى لا يعمل عمل قوم لوط المستهجن، ولا يسلك مسلكهم المرذول، وحتى لا يتعرض في ذاته لنوع من المسخ والقلب، إن لم يكن مسخاً وقلباً مادياً كان على الأقل قلباً ومسخاً معنوياً.

وقوله تعالى ضمن قصة لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الظاهر أنه خطاب للوط عليه السلام، وتنديد بقومه الذين أصروا على الغواية والضلال. وذهب بعض المفسرين إلى أنه جملة معترضة، ووجه الخطاب فيها إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير: «أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشریف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض». وعن ابن عباس أنه قال: «ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره». قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال ابن جزي: «(لعمرك) قسم. والعمر الحياة، ففي ذلك كرامة للنبي ﷺ، لأن الله أقسم بحياته».

ثم أشار كتاب الله هنا بغاية الإيجاز إلى قصة شعيب وقومه، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والمراد «بالايكة» الغيضة من الشجر الملتف، وقد أضرمها الله عليهم ناراً لما ظلموا وتمردوا، قال ابن كثير: «وقد كانوا قريباً من قوم لوط في الزمان، ومسامتين لهم في المكان»، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي أن مقر قوم لوط، ومقر قوم شعيب واقعان على طريق واضح يراه الناس ويمرون عليه باستمرار، للذكرى والاعتبار.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة أصحاب الحجر، وبها سميت هذه السورة «سورة الحجر»، والمراد بهم ثمود، وهم

قوم صالح عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَاقَبْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا - آمِنِينَ، فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. والحِجْر هنا اسم للمكان الذي كان قوم صالح نازلين به مستقرين فيه، وهو واقع بين المدينة والشام، وكانت بيوت ثمود ومنازلهم منقورة بالمعاول في الجبال، وقد بلغ تحديدهم لنبيهم صالح منتهاه عندما عَقَرُوا ناقة الله، التي طالما أمرهم صالح بعدم المساس بها، والتي طالما دعاهم إلى تركها تَأْكُل من أرض الله وتشرب من مائه، فعاقبهم الله على جرائمهم كلها عند عَقْرهم لها، وكان عقابهم بالصيحة صباحاً، فهلكوا وبادوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى لم يخلق خلقه عبثاً، وإنما خلقهم لحِكم دقيقة، بعضها معلوم، وبعضها استأثر الله بعلمه، ويشبهه قوله تعالى في آية ثانية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ تنبيه من الله لرسوله إلى وجوب الصبر على معاملة المشركين وتحمل أذاهم، في سبيل الدعوة إلى الله. و«الصفح الجميل» هو الذي ليس معه أدنى مؤاخذة ولا عتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ - آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ فيه إشارة إلى أم القرآن الكريم، وهي فاتحة الكتاب. و«المثاني» جمع مثنى، مشتق من التثنية وهي الإعادة والتكرير، لأن الفاتحة تتكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، وعطف القرآن على السبع المثاني من عطف العام على الخاص. وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»، قال ابن كثير: «فهذا نص في أن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن ذلك لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً». قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيًّا﴾ [الزُّمَرُ: ٢٣]، فهو «مثنائي» من وجه، و«متشابه» أي متماثل، من وجه آخر، وهو القرآن العظيم.

والمراد «بالسبع الطوال» عند من فسّر بها «السبع المثاني» في هذه الآية: سور البقرة، وعال عمران، والنساء، والمائدة، والانعام، والاعراف، ويونس. وقد ذهب إلى هذا التفسير ابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك. وسميت السبع الطوال «مثنائي» لأن الحدود والفرائض والأمثال ثنيت فيها حسبما روي عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بعد امتنان الله على رسوله بالسبع المثاني والقرآن العظيم مباشرة، هذا تنبيه من الله لرسوله إلى أن ما أنعم به عليه من نعمة الوحي والإيمان، ومعجزة القرآن، يفوق كل نعمة أخرى أنعم بها على بني الإنسان، فكل النعم سواها

تضاءل دونها، ولا تبلغ درجتها، وما عند أصناف الكفار من متاع الدنيا على اختلاف أنواعه لا قيمة له بالنسبة لنعمة الوحي والرسالة.

قال أبو حيان: «هذا النهي وإن كان خطاباً للرسول ﷺ فالمعنى نهى أمته عن ذلك، لأن من أوتي القرآن شغله النظر فيه، وامثال تكاليفه، وفهم معانيه عن الاشتغال بزهرة الدنيا، و«مد العين» للشيء إنما هو لاستحسانه وإيثاره».

وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية». وهذه الآية تشبه قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١]. والمراد «بالأزواج» في كلتا الآيتين أصناف الكفار وطبقات المترفين، المتعددة الأنواع والأشكال.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنبيه من الله لرسوله على مواصلة الإحسان في معاملة المؤمنين، تأليفاً لقلوبهم، وتركيزاً للإيمان في نفوسهم. و«خفض الجناح» استعارة للين الجانب والتواضع. على أن الأمر بخفض الجناح للمؤمنين ورد مقيداً في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: ٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ تنديد بالذين

يومنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض من السابقين واللاحقين، وهم أولئك الذين يقولون في الوحي المنزل من عند الله أقوالاً متناقضة، ويقفون من أحكامه وتعاليمه مواقف متعارضة، فيُحَقُّون ما وافقته آراؤهم، ويُبطلون ما خالفته أهواؤهم، ومن ذوي السوابق في هذا الباب، «أهل الكتاب» الذين حَرَّفوا الكتب المنزلة عليهم وجزَّأوها أجزاءً، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وكلمة «عِضِينَ» جمع عِضَّة بمعنى القطعة. يقال عَضَا الشاة «يعضونها إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساماً، وكلمة «المقتسمين» جمع «مقتسم» وهذا اللفظ له وجهان من الاشتقاق كلاهما وارد وصحيح:

- الوجه الأول اعتبار لفظ «المقتسم» مأخوذاً من القَسَم وهو الحَيْف واليمين، ويصدق بهذا المعنى على أولئك الذين تحالفوا وتعاهدوا فيما بينهم على الطعن في كتاب الله، وصدَّ الناس عن سبيل الله، فعبأوا جميع طاقاتهم لإعلان الحرب عليه وجهاً لوجه دون هوادة ولا تختل. ويندرج في هذا الصنف كل الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم في القديم والحديث. ومن السلف الطالح في هذا الباب الرهط الذين تقاسموا على اغتيال صالح وأهله ليلاً، وإنكار العلم باغتياله نهاراً، وإليهم يشير قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الآيتان: ٤٨، ٤٩].

- والوجه الثاني اعتبار لفظ «المقتسيم» مأخوذاً من القِسْمَة والتجزئة، ويصدق بهذا المعنى على أولئك الذين اختاروا للطعن في كتاب الله، وصد الناس عن سبيل الله، طرقاً ملتوية، مطبوعة بطابع الدس والمخاتلة والخداع، فوزعوا فيما بينهم أدوار الهدم والتخريب، وتصدّى كل فريق منهم لجانب من الجوانب التي يُحسِن فيها التمويه والتضليل والتدجيل، وذلك في نفس الوقت الذي يتظاهرون فيه بالاهتمام بالإسلام، ويعربون عن اعجابهم ببعض جوانبه، وهكذا نجد البعض منهم يخصص وقته للطعن في عقيدة الإسلام، والبعض الآخر يكرّس جهوده لإبطال شريعة الإسلام، ونجد أحدهم يأخذ على عاتقه تشويه تاريخ الإسلام، والآخر ينكر وجود أية حضارة للإسلام، ومن هؤلاء فريق غير قليل من المستشرقين، وكثير من المستغربين. ومن السلف الطالح في هذا الباب ما سجله التاريخ عن بضعة عشر نفرًا من مشركي قريش اجتمعوا تحت رياسة كبيرهم الوليد بن المغيرة قبل حلول موسم الحج، وقرروا أن يقتسموا مداخل مكة عندما يحضر الموسم، ففعدوا عند حلول موسم الحج في كل مدخل، متفرّقين في طرقها وجبالها وفجاجها، لِيُنْفِرُوا الوافدين عليها من الإتصال برسول الله ﷺ ومن الإيمان به. يقول أحدهم: لا تغتروا به فإنه ساحر، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه كذاب، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه شاعر، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه كاهن، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه من الغاوين، وليُجمِعُوا أمرهم نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَمًا عند باب البيت الحرام، ليزكيهم ويُصدّق مقالاتهم كلما سأله أحد الوافدين على البيت عن صدق

ما قالوه، إلى آخر السلسلة الطويلة من البهتان وقول الزور، الذي حمل كل واحد منهم وزره، فلم يلبثوا أن أخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقوله تعالى ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ عقب قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنبيه إلى أن أمر الله لرسوله بخفض جناحه للمؤمنين لا يعني إخراجهم من عهدة النذارة الملازمة لهم إلى يوم الدين، فهو نذير لهم وللناس أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ عقب قوله: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ نظير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] وهو إشارة إلى أن القول في النذارة للمؤمنين كالقول فيها لغيرهم من «المقتسمين»، فنذارة الرسول عليه السلام شاملة وعامة للجميع على السواء، دون تمييز ولا استثناء.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قَسَمَ من الله بذاته وربوبيته، مضاف إلى رسوله على جهة التشریف والتكريم، والضمير في «لنساءلنهم» يعود على الجميع من كافر ومومن، فالسؤال عن العمل عام للخلق دون فرق، يُسألون لماذا عملتم كذا ولم تعملوا كذا؟ على وجه الحساب، للثواب والعقاب، ولا يُسألون هل عملتم كذا وكذا؟ لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك. وهذا السؤال على وجه الاستفهام المحض هو المنفي في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الآية: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر من الله لرسوله بإعلان الدعوة إلى الله، والجهربالحق، رغباً عن معارضة المشركين القوية، وأذاهم البالغ. قال عبد الله بن مسعود: «ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه».

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ مواساة من الله لرسوله، وحض له على مواجهة أذى المشركين بسعة الصدر، والتجمل بالصبر، كما أن فيه حضا له على التسليح بسلاح العبادة والذكر، ولذلك كان ﷺ يصلي كلما حزبه أمر، واستمر على ذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في أعلى عليين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾
 يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنعَمَ
 خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
 وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْبِحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ ﴿٦﴾ وَتَجَلَّىٰ
 أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ
 إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
 لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ

السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَاءَهُمْ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ
الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ
شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُبَيِّنُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
أَلْوَنَهُ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَاكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِدٍ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالْجَمْرِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْوَاتٌ
 غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ
 وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
 مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٧﴾ لَاجِرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَسِرُّونَ وَمَا
 يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ لِيَجْهَلُوا أَوْزَارَهُمْ
 كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
 مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْبَأَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣١﴾
 ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَّنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ
 وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ نَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
 أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ
 اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
 خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣٤﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة النحل المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا، فَلَيْسَ مَثْوٰى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بفضل الله سورة الحجر المكية، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير سورة النحل المكية أيضاً، وقد سميت هذه السورة «سورة النحل» أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿وَأَوْحٰى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى في بداية هذه السورة: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ إخباراً عن قرب قيام الساعة رغماً عما يظهر من بعدها، فكل آتٍ قريب، على غرار قوله تعالى في آية ثانية:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، ووضِعَ الفعل الماضي في الآية موضع المستقبل، لتحقق وقوع «أمر الله» وهو يوم القيامة، إذ هو أمر واقع، ما له من دافع.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يُشَبِّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ المراد «بالروح» هنا النبوة والوحي، ويشبهه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥]، ويصدق هذا على «الذكر الحكيم» فهو بمنزلة الروح التي يحيا بها المومن، إذ يكيف حياته في الدنيا فيجعلها حياة طيبة، ويُعِدُّه للحياة الدائمة في الدار الآخرة، فيفوز بالخلود في جنات النعيم.

وبخصوص التعبير «بالروح» عن القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نُّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالقرآن روح حقيقية ومعنوية، أحيا الله بها الإنسانية ديناً ودنيا، وقد كان نزوله نقطة تحوُّل في تاريخ النوع

البشري، ومرحلة حاسمة في تطور العقائد والشعائر والشرائع، ونقطة انطلاق في حياة الأمم والشعوب والسلالات، مما أدى إلى تغيير خريطة العالم في أكثر البلدان والأقاليم والقارات، فعالم ما بعد القرآن غير عالم ما قبل القرآن، بشهادة الأصدقاء والأعداء.

وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ إشارة إلى بداية الإنسان المتواضعة، وإلى نهايته المستكبرة، التي يبرز فيها الكبر والعناد، والتمرد على أوامر الله وتوجيهاته للعباد.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى تعداد النعم التي أنعم الله بها على الإنسان متاعاً وانتفاعاً، رحمة منه وإحساناً، وبيّنت جملة من أنواع الدواب التي سخرها لخدمته ومنفعته، مما يرتفق به في مرافقه الضرورية، أو يتغذى منه بأطيب الأغذية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. وأشارت الآيات الكريمة إلى المنظر الجميل الذي تكون عليه الأنعام عند عرضها حين سرحها وذهابها إلى المراعي، وحين رجوعها ورواحها منها: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾. قال أبو القاسم ابن جزي: «وإنما قدّم (تريحون) على (تسرحون) لأن جمال الانعام بالعشي أكثر، حيث إنها ترجع من المراعي وبطنها ملأى، وضروعها حافلة».

وقوله تعالى في نهاية هذه الآية: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى ما تبرزه القدرة الإلهية جيلاً بعد جيل، من وسائل جديدة للنقل أو المواصلات، وأصناف جديدة من الأغذية والمأكولات، وما وراء ذلك مما لا يحيط بعلمه إلا بديع الأرض والسموات.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾: «في هذا دليل على لباس الصوف، فهو أول ذلك وأولاه، فإنه شعار المتقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وهو يُلبَسُ لِينًا وَخَشِنًا، وجيداً ومقارباً ورديثاً، وإليه نُسبُ جماعة من الناس (الصوفية)، لأنه لباسهم في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث».

وقال (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾: «والجمال يكون في الصورة وتركيب الخَلْقَة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال».

«فأما جمال الخَلْقَة فهو أمر يدركه البصر، فيلقه إلى القلب متلائماً، فتعلق به النفس، من غير معرفة بوجه ذلك ولا بسببه لأحد من البشر».

«وأما جمال الأخلاق فبكونها على الصفات المحمودة، من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل واحد».

«وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمةً لصالح الخلق، وقاضيةً بجلب المنافع إليهم، وصرف الشر عنهم.

«وجمال الانعام والدواب من جمال الخَلْقَة محسوب، وهو مرئي بالأبصار، موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتها»، إلى أن قال رحمه الله: «وليس في الحمير زينة، ولكن المنفعة بها مضمونة.

«وهذا الجمال والترزين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله فيه لعباده، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: الإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة، والخيول في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

«وإنما جمع الله العز في الإبل، لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو، وإن نقصها الكرّ والفِرّ، وجعل البركة في الغنم، لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الولادة، فإنها تَلِدُ في العام ثلاث مرات، إلى ما يتبعها من السكينة، وتحملُ عليه صاحبها من خَفُض الجناح ولين الجانب... وقرن ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر، لما فيها من الغنيمة، الاستفادة للكسب والمعاش، وما تُوصَلُ إليه من قهر الأعداء، وغلبة الكفار، وإعلاء كلمة الله».

ونبه القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ على ما أمر به رسول الله ﷺ من الرِّفْقِ بالدواب، وإيراحتها، ومراعاة التفقد لعَلْفِها وسقيها. وفي الموطأ قال مالك عن أبي عبيد عن خالد بن معدان: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويرضى به،

ويعين عليه ما لا يعين على العُنف، فإذا ركبتهم هذه الدواب العُجمَ فأنزلوها منازلها» إلى آخر الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يُشَبِّه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الانعام: ١٥٣]. والمراد بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كما قال مجاهد: «طريق الحق المؤدية إلى الله»، قال ابن كثير بعد ذكره أقوالاً أخرى في تفسير هذه الآية: «وقول مجاهد أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طُرُقًا تُسَلِّكُ إِلَيْهِ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها من الطرق مسدودة، والأعمال فيها مردودة». وقال ابن جُزَيٍّ: «معنى القصد في قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: القاصد المُوَصِّلُ، وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف، فكأنه قال: وعلى الله بيانُ السبيل القاصد الموصول إليه».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ الضمير يعود على «السبيل» المراد به هنا الجنس، ومعنى «الجائر» الحائد والمائل عن الحق، والخارج عن الصواب.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] لكنه خلق الإنسان حراً مختاراً، فلم

يُكرهه على الإيمان، ولم يُلجئه إلى الإذعان، فكان منه مومن وكافر، وشقي وسعيد.

ثم انتقل كتاب الله إلى عرض جملة من النعم الأخرى في معرض امتنانه على الإنسان، وتذكيره بالحقوق التي عليه لربه، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي هذا السياق بين كتاب الله العبرة المقصودة من عرض النعم التي أنعم بها على الإنسان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فمن له عقل وفكر استيقظ وتذكر، ونظر واعتبر، وفكر وقدر، وشكر وما كفر.

ثم تصدى كتاب الله للرد على عبدة الأصنام والأوثان، وسجل عليهم جملة من الادعاءات الباطلة القائمة على مجرد الزور والبهتان، وجدد دعوته لهم إلى الإيمان والإذعان، ببالغ الحجة وساطع البرهان، وذكرهم بسوء المنقلب الذي آل إليه أمر الكافرين والماكرين قبلهم منذ قديم الزمان، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ،

فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، لَا جَرَمَ ﴿٤٠﴾ أَي لَا بَدَ وَلَا شَكَّ ﴿٤١﴾ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ، قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ، فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَآتَيْتُهُمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿٤٠﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٤١﴾ اللام فيه للأمر، وبمعنى هذه الآية ورد الحديث النبوي الشريف (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)، وقوله عليه السلام: «من سنَّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنةً سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» أو كما قال عليه السلام.

وقوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقُوا السَّلَمَ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إخباراً من الله تعالى عن حال المشركين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر، ولم يقدرُوا الله حق

قَدْرَهُ، فَكَانَ شَرُّهُمْ بِاللَّهِ ظُلْمًا عَظِيمًا، وَوَصَفَ لَهُمْ كَيْفَ يَكُونُونَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ وَمَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْخَبِيثَةَ، حَيْثُ يُظْهِرُونَ، وَقَتْنُذَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَيَتَبَرَّأُونَ مِمَّا عَمَلُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَيُكذِّبُ الْمَلَائِكَةُ دَعْوَاهُمْ، بِشَهَادَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا مَرَدَّ لَهَا، وَيَخْبِرُونَهُمْ عَنْ مَصِيرِهِمُ الْمَفْجَعِ، قَائِلِينَ: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

وَقِيلَ لِلَّذِينَ

اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَبُونَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِيهِ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ
تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمْ
اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٠﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾
 وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
 الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
 الضَّلَالَةُ فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
 أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ
 حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ
 الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
 كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ
 كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا
 لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَلِ الْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الذِّكْرَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
 أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
 فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
 رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ
 ظِلُّهُ وَعَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾
 وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ
 وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ
 مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

بعدما بين كتاب الله في الربع الماضي كيف يستقبل خصوم النبوات والرسالات الوحي الإلهي فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بين كتاب الله في بداية هذا الربع كيف يستقبل الوحي أنصار الرسل وأتباعهم الذين اتقوا وآمنوا، فقال تعالى في وصفهم: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ، قَالُوا خَيْرًا ﴾ وذلك اعتراف منهم بما يحتوي عليه الوحي الإلهي من خير عظيم لهم ولأسرهم ولأممهم وللإنسانية جمعاء، خير يشمل الدين والدنيا والآخرة، خير يعم الفرد والمجتمع والدولة في آن واحد، فهو رحمة للعالمين وهدى للضالين .

ثم انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة واقعية بالنسبة للمؤمنين الصادقين، ألا وهي أن الله تعالى يكرمهم بحياة طيبة في الدنيا وحياة أطيب منها في الآخرة، فالإيمان الصادق والعمل الصالح يسري مفعولهما، ويظهر أثرهما في الحياة اليومية الأولى، قبل أن يسري مفعولهما ويظهر أثرهما في الحياة الأخرى، وليس الأمر كما يظن الشاكون والمترددون أن ثمرة الإيمان لا يُقَطَفُ جَنَاهَا فِي الدنْيَا، وَيُخْشَى أَنْ لَا يُقَطَفَ جَنَاهَا فِي الْآخِرَةِ، وَإِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْإِيمَانِيَةِ الْوَاقِعِيَّةِ يَشِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وكما وصف كتاب الله في الربع الماضي حال المشركين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم، وكيف يكونون عند الاحتضار، وكيف ينتزع الملائكة أرواحهم الخبيثة، وكيف يستقبلهم خزنة جهنم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقُوا السَّلَامَ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ، بَلَىٰ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَيْسَ مَشْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، تناول كتاب الله بالوصف والبيان في هذا الربع حال المؤمنين الصادقين، وبين أيضاً كيف تتوفاهم الملائكة عند لقاء الله، وكيف تستقبلهم في دار الخلد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية لمزاعم المشركين ومن لف لفهم، ووصف لاعتقادهم الفاسد: أن القضاء والقدر هما المانعان اللذان يحولان بينهم وبين الطاعة والإيمان، بينما الواقع يبطل ادعاءهم، ويهدم اعتقادهم، فقد مكّن الله الإنسان من جميع الأجهزة والملكات التي يميّز بها الخير من الشر، والحق من الباطل، ولم يقتصر على ما منحه من الأجهزة والملكات الصالحة والكافية للتمييز، بل أكرمه علاوة على ذلك ببعث الأنبياء وإرسال الرسل جيلاً بعد جيل، مبشرين ومنذرين، ومبينين طريق الحق والهدى للناس أجمعين، وأتبع ذلك كله بدرس عملي، يبين الأثر الطيب لعقيدة التوحيد، ودرس عملي آخر، يبين الأثر السيء للإصرار على الشرك والضلال. وبذلك سقطت حجة كل من ادعى الجهل أو الغفلة، أو اتهم بكفره وضلاله القضاء والقدر، ولم يبقَ عذر لمن اختار طريق الضلال على طريق الهدى، وأصبح كلُّ إنسان مسؤولاً عن نفسه، محاسباً على اختياره، مجازى عليه بالخير إن كان اختياره خيراً، وبالشر إن كان اختياره شراً، وبين كتاب الله أن موقف المشركين من رسالة الإسلام وخاتم الرسل ليس أمراً مفاجئاً ولا جديداً، بل هو أمر متعارف عن المشركين منذ عهد قديم، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ

إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ، وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴿١﴾، أَي بَاتَّبَاعِ الرِّسْلِ
﴿٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٣﴾، أَي بِمُخَالَفَتِهِمُ وَالْخُرُوجِ
عَلَيْهِمْ، ﴿٤﴾ فَسَيَرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥﴾.

ثم وَجَّهَ كتابَ الله الخُطابَ إلى الرِّسولِ الأعظمِ مواسياً إياه،
فقد كان ﷺ شديدَ الإهتمامِ بهدايةِ الناسِ إلى الحقِّ، قويَّ
الحرصِ على نجاتِهِم، عميقَ الحزنِ كثيرَ الأسى على انحرافِهِم،
وإلى هذا المعنى يُلَمِّحُ قولُهُ تعالى هنا: ﴿إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى
هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، على
غرارِ قولِهِ تعالى في آيةِ ثانية: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعُ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِهِ تعالى في آيةِ ثالثة: ﴿وَمَنْ
يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقولِهِ
تعالى في آيةِ رابعة: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾
[الرعد: ٤٠].

ومعنى قولِهِ تعالى هنا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾
بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول، طبقاً لقراءة ورش عن
نافع: «لا يهدي غير الله من يضلله الله» والضمير في قوله: ﴿وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعود على الضالين، فقد حكم الله عليهم
بالخذلانِ دُنياً وأخرياً، جزاءً وفاقاً.

ثم حكى كتابَ الله قولَ منكري البعثِ، اوزيفَ قولِهِم،
وأكد أن البعثَ وعدٌ حقٌ وصدقٌ من الله عز وجل، ولن يخلف الله

وعده، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي أقسموا بأغلظ الأيمان ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ كأن الله الذي أنشأ النشأة الأولى لا يقدر أن ينشئ النشأة الثانية، وهذا الفهم العاطل والوهم الباطل مناقض للمنطق السليم، مخالف للقياس الصحيح، فمن أنشأ النشأة الأولى يكون في منطق العقل البشري قادراً على النشأة الثانية من باب أولى وأحرى، ولذلك ردّ كتاب الله على منكري البعث قائلاً: ﴿بَلَى﴾ أي بل سيكون البعث لا محالة ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ إشارة إلى إحدى الحكم الإلهية التي تتحقق عن طريق البعث والنشور، ألا وهي تحقيق العدل الكامل بين الناس في دار الجزاء، والفصل بين المختلفين في حقوق الدنيا وحقات الدين، وتمييز المحقّين من المبطلين، والناجين من الهالكين، وتعريف المكذّبين بكذبهم والضالين بضلالهم، وتبعاً لذلك يُجَازَى كل فريق على عمله بمقتضى العدل المطلق، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم عقب كتاب الله على شك منكري البعث في البعث، مذكراً عباده بأن قدرة الله مطلقة حرة لا يحدّها أي قيد من القيود، ولا يعجزها أي شيء كبر شأنه أو صغر في الوجود، وأن مشيئة الله متى تعلقت بأمر من الأمور، برز ذلك الأمر في الحين إلى عالم الظهور، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ﴾، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا

بِعُثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَحِدَةً ﴿ [لقمان : ٢٨] .

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن المهاجرين في سبيل الله، الذين آثروا سلامة عقيدتهم على كل شيء، وضحوا من أجلها بجميع المصالح والأغراض، ففارقوا الأهل والعشيرة والمتاع، وتعرضوا لضيق العيش وغربة الدار، وبين كتاب الله مكانة المهاجرين عند الله في الدنيا والآخرة، منوهاً بخصالهم ومزاياهم، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . روي أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: «خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وتناول كتاب الله الرد على المشركين الذين كانوا لجهلهم بسُنن الله في خلقه، وجهلهم بتاريخ النبوات والرسالات السابقة، يستبعدون أن يُرسل الله إليهم من أنفسهم رسولاً، وخاطبهم داعياً إياهم إلى سؤال أهل الذكر من أهل الكتب المنزلة الماضية - إن لم يكتبوا ويحرفوا - هل كان رُسُلهم بشراً أم غير بشر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحىٰ إِلَيْهِمْ، فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحىٰ إِلَيْهِمْ، فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية : ٧] .

وقوله تعالى هنا: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ متعلق بقوله قبل ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ أي وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً يوحي إليهم، على قاعدة التقديم والتأخير في الكلام، المتعارفة في لسان العرب، والمراد «بالبينات» هنا الحجج والبراهين، والمراد «بالزُّبُرِ» الكتب، جمع زُبُور أي كتاب.

وقوله تعالى خطاباً لرسوله الأعظم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى الذكر الحكيم والقرآن العظيم بالخصوص، وإنما أطلق على القرآن اسم «الذكر» لما فيه من تذكير الناس وتنبيه الغافل، وهذه الآية تتضمن بيان اختصاص الرسول، وتكليفه بتبليغ الوحي المنزل عليه من عند الله، وبتبيين حكمه ومقاصده وأهدافه للناس أجمعين، كما تتضمن بيان الحكمة في تنزيل القرآن الكريم، وأن الحكمة منه هداية الناس إلى صلاحهم، وإشارة الخير في نفوسهم، فلخيرهم نزل على الرسول القرآن، ولهدايتهم وجب على الرسول البيان: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم أنذر كتاب الله المشركين والكافرين بعقابه الصارم، وحذَّره من أن يصيبهم ما أصاب الأقوام التي هلكت من قبلهم، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي ارتكبوا المعاصي بمكر وخبث، ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي في أسفارهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي يأخذهم

بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى يهلكوا على فترات .
وأخيراً لَفَتَ كتاب الله أنظار الشاكين والمترددين من الخلق
إلى جلال الله وعظمته، وذكرهم بأنه القاهر فوق عباده، والمهيمن
على خلقه، فالكل لسلطانه خاضع، والكل أمام جلاله خاشع:
السماء والأرض، والبشر والملائكة، والإنسان والحيوان، وجميع
العوالم والأكوان، لا يفلت من قبضته مخلوق، ولا ملجأ منه إلا
إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ
يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الِئْمِينِ وَالشَّمَائِلِ، سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي
صاغرون ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
يُؤْمَرُونَ ﴾ .

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا هُوَ
 إِلَهٌ وَاحِدٌ فَايْتَى فَاذْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُ مِنْ نِعْمَةٍ
 فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا
 كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَاقُكُمْ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
 لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
 لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ
 نَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾
 وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٥٨﴾
 يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبَرَّةً أَيْسَّرَهُ ۖ عَلَيَّ هُوْنٍ
 أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۗ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾
 وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
 يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ
 سَاعَةً ۗ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٧﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ
 أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ
 النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٨﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكَ
 فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٩﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
 الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٠﴾
 وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نَسْقِيكُمْ مِنْهَا
 فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٧٢﴾
 وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا
 ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ
 أَنْ ابْتَخِرْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ
 كُلِّ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۖ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۗ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا

شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى
أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتاب الله الحقيقة الدينية الأولى، التي نادى بها جميع الكتب المنزلة، كتاباً بعد كتاب، والتي بشر بها كافة الأنبياء والرسل، نبياً بعد نبي ورسولاً اثر رسول، ألا وهي انفراد الحق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية عن كل ما سواه، وضرورة التوجه إليه وحده بالخوف والرجاء دون ما عداه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ، فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ﴾. وكيف لا يُفرد الخلق خالقهم بالعبادة والطاعة والتوجه إليه في السراء والضراء، وهو سبحانه وتعالى بديع السماوات والأرض، وهو الذي شرع لهم الدين الحق وهداهم إليه منذ البداية، ومنه وحده ينتظرون الجزاء في النهاية:

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾. وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ يماثل في معناه قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الآية: ٣]، وينظر إليه قوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الآية: ١٤].

ثم يتجه كتاب الله بخطابه إلى الناس كافة، مذكراً إياهم بأن كل ما يتقبلون فيه من النعم على اختلافها إنما هو هبة إلهية وهبها لهم بمحض إرادته، وأن من تفضل بالعتاء يمكن أن يعاقب بالسلب ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

ووصف كتاب الله في هذا السياق حالة من الحالات اليومية التي تعرض لكثير من الناس عندما يمسهم الضر، وينزل بساحتهم الأذى، فتتكشف عن أعينهم جميع الغشاوات والحجب، وتبدو لهم أنفسهم عارية على حقيقتها من الضعف والعجز والاحتياج، ولا يستطيعون لدفع الضر عن ساحتهم حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فلا يجدون مفتوحاً أمامهم إلا باباً وحيداً هو باب الرحمن الرحيم، يلجأون إليه مضطرين صاغرين، ويطرُقون بابه بالشكوى صارخين مبتهلين، فيجيب بفضله دعاءهم، ويكشف برحمته ضرهم، الأمر الذي كان كافياً ليوظ في نفوسهم على الدوام حاسة الإيمان، ويحملهم باستمرار على الشكر والطاعة والإذعان، لكنهم على العكس من ذلك بمجرد ما يكشف الحق سبحانه عنهم الضر، ويدفع عنهم الأذى، ينسَوْنَ فضل الله، ويتنكرون لنعم الله، وينتكسون مرة أخرى فيعودون إلى ما كانوا عليه من

المعتقدات الباطلة والتصرفات الفاسدة، وهكذا تتحرك فيهم فِطْرَةٌ الخير موقتاً تحت ضغط الضعف والمرض والأذى، لكن بمجرد ما يستعيدون القوة والصحة والسلامة تطغى عليهم من جديد نزغات الشر والعصيان، ويتصدّون لنعم الله وحقوقه بالجحود والكفران، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ﴾.

ويعقب كتاب الله على اتجاه هذا الفريق المنحرف من الناس المنكر للجميل، الذي لم يستخلص العبرة من لطف الله به ورعايته إياه، فيخاطب أفراداً مهتدداً ومتوعداً قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وإذن فهم يُعتبرون في حالة إهمال، لا إهمال، ومآل تمتعهم مهما طال فهو إلى زوال.

واستعرض كتاب الله صوراً من معتقدات المشركين وآرائهم السخيفة في معرض النقض والإبطال، وفي طليعة هذه المعتقدات الباطلة ما كان المشركون يخصصونه للأصنام والأوثان من أنعام لا يركبونها ولا يذوقون لحومها، ومن عطايا ونذور لا يقتطعون منها شيئاً، وما كانوا ينسبونه لمقام الألوهية من اختيار البنات، وهي الملائكة في نظرهم.

واستنكر كتاب الله سخافة عقولهم، وسماجة عوائدهم، التي كانت تقضي باحتقار الانثى والتشاؤم بها، مستغرباً كيف أنهم تجرأوا على أن يختاروا الله في زعمهم ما يكرهونه لأنفسهم، وذلك

ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي للأصنام والأوثان التي لا سند لها من العلم والدين، وإنما جرهم إلى عبادتها الجهل والوهم والتقليد ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ، تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ظل وجهه كئيماً من الهم وهو ساكت من شدة الحزن، يكظم غيظه وهمه ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي يختفي حتى لا يراه الناس، وذلك: ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، وهذه إشارة إلى ما كان يُقدم عليه بعض المشركين من واد البنات وهن أحياء، وما كان يقوم به البعض الآخر من إبقائهن أحياء، لكن في حالة من الضعة والهوان، وفي هذا الموضوع نفسه ورد في مكان آخر من هذا الربع قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾، وقوله تعالى تنزيهاً للحق سبحانه عن كل ذلك: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم عقب كتاب الله مندداً بهذه النظرة الجاهلية السخيفة، هادماً لها من الأساس، مُعيداً بذلك للأنثى كرامتها الأصيلة، معترفاً لها بنحقها الثابت في الحياة العزيزة الكريمة مثل شقيقتها الذكر، فقال تعالى ناقضاً لحكم الجاهلية في شأن الأنثى، ومندداً بموقف المشركين منها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن (الإيمان بالآخرة) المنبثق عن

الإيمان بالله، والذي هو له كالنتيجة بالنسبة للمقدمة، هو مصدر جميع أنواع الكمال عند المومن، لأن الإيمان بالآخرة وتوابعها يستلزم مراقبة الله في جميع الأحوال، وَمَنْ رَاقِبَ اللَّهَ قَوْلًا وَعَمَلًا، ظاهراً وباطناً، كان أقرب إلى الكمال وأبعد عن النقص، بخلاف من لم يؤمن بالآخرة وأصرَّ على إنكارها فإنه يظل غريقاً في أحوال المساوىء والنقائص، بحيث لا يُتصوَّر في حقه أي كمال، ولا غرابة في ذلك، فهو سيء العقيدة في الله وفي الناس، وهو سيء السلوك نحو الله ونحو الناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي النقص قائم بهم، ومنسوب إليهم ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي له الكمال المطلق من كل وجه.

ونبه كتاب الله إلى ما تواطأ عليه البشر في مختلف العصور من تظالم فيما بينهم بالبغي والعدوان، رغماً عما أمرهم الله به من التزام العدل، وما تواطأوا عليه من ظلم يرتكبونه في حق خالقهم ورازقهم بالشرك وعبادة الأوثان، رغماً عما هداهم إليه من عقيدة التوحيد، وبين أن رحمة الله وحكمته اقتضتا أن تستمر عمارة الأرض إلى اليوم الموعود، فأخر لذلك مؤاخذتهم على ظلمهم، وتركهم يتقلبون في نعمه إلى حلول أجلهم، حتى إذا ما حلَّ الأجل أخذهم الله أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي لأباد من الأرض الحياة والاحياء ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وواضح أن «المؤاخذة» التي يؤخرها الله عن الظالمين هي المؤاخذة الكلية التي لا تُبقي ولا تذر، أما مؤاخذتهم الجزئية بالخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وتسليط الكوارث والأزمات، وقيام الفتن والحروب، فهي ملازمة لهم، مستمرة معهم إلى يوم الدين، على حد قوله تعالى: ﴿ فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ثم عقب كتاب الله على ظاهرة الجحود والعناد، والتواطؤ على الضلال والفساد، التي لازمت البشر قروناً طويلاً، فلم يستفيدوا من رسالات الرسل الفائزة المرجوة، ملوحاً إلى أن عناد مشركي العرب للرسالة المحمدية إنما هو عود على بدء، وليس هو الأول والآخر، فقال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وتناول كتاب الله تحديد جملة من الأهداف التي توخَّتها الحكمة الإلهية، من الرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات، وهذه الأهداف المشار إليها هنا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وضع حد للخلاف والنزاع القائم بين أتباع الأديان السالفة، وإلقاء الأضواء على ما دخل تلك الأديان من تزيف وتحريف وسوء تأويل، وتعريف الناس كافة بالحقيقة الدينية

الأصيلة على وجهها الكامل الصحيح، خالصةً من الشوائب، صافيةً من الأكدار.

الأمر الثاني: هداية الإنسانية إلى الصراط المستقيم الذي ينظم سلوكها، ويقود خطواتها، وينقذها من مهاوي الضلال والفساد، ويعرّج بها إلى معارج الصلاح والرشاد.

الأمر الثالث: إشاعة الرحمة والإحسان في مجتمعات بني الإنسان، على اختلاف الأجناس والألوان.

وإلى هذه الأهداف الثلاثة يشير قوله تعالى هنا في إعجاز وإيجاز: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، ويؤكد هذه المعاني قوله تعالى في الربع القادم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تعداد جملة من النعم الإلهية الكبرى امتن بها على عباده حتى يطيب لهم العيش، ويستمتعوا بالحياة، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾، و«الوحي» في هذا المقام بمعنى الإلهام ﴿ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا، يَخْرُجُ مِنْ؟ بَطُونَهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ
الْوَنُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴿٤﴾ .

وواضح من سياق هذه الآيات أنها واردة في معرض امتنان الله على عباده، والإمتنان لا يقع إلاً بمحلل لا بمحرّم، فالماء واللبن والعسل كلها حلال، و«السَّكْر» الوارد معها في نفس السياق لا يصح أن يفهم منه معنى المسكر الحرام، وإنما معناه ما يُستخرج من الثمرات والفواكه الناضجة ذات المواد السُّكَّرية بشكل عادي، كعصير الرُّطَب والعنب، وبذلك يظل سياق الآيات كلّهُ منسجماً ومتلائماً في الامتنان بما هو حلال.

ويؤكد هذا الفهم قول أبي عبيد: «السَّكْر نقيع التمر الذي لم تمسه النار» نقله عنه ابن منظور في (لسان العرب)، ويزيد هذا الفهم تأكيداً ورود قوله تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عقب قوله ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ مباشرة ودون فاصل، فالعقل الذي يتمكن من التدبر العميق والتفكير السليم في آيات الله ونعمه هو العقل الذي لم تفسده المسكرات والمخدرات، بل بقي مصوناً من كل ما يفسده، سليماً من كل ما يلوّثه.

ولا شك أن النفع العميم الذي يناله الخلق بواسطة هذه النعم الإلهية يتطلب منهم مقابلتها والاستزادة منها بالحمد والشكر، كما أن الحكمة الربانية البارزة في إيجادها من العدم، وإمداد الخلق بها دون انقطاع، تتطلب منهم الإيمان بمبدعها، والتوجه بالطاعة إلى ممدّهم بها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين
في المصحف الكريم

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا
بِرَآءَةِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ
أَفْبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَمْجُدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ
الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهَا
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
أَلَمْ يَدْرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ
إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمتَعًا إِلَى
حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَفِيكُمُ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَامُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

الْمُبِينُ ﴿٨٧﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ
 الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ
 لَا يُؤَدِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٩﴾
 وَإِذَارَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
 وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٩٠﴾ وَإِذَارَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُمْ
 قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ
 فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩١﴾ وَالْقَوَا إِلَى
 اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٩٢﴾
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
 فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٩٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي
 كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
 عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٤﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

في بداية هذا الربع يقرر كتاب الله حقيقة واقعية بالمشاهدة والعيان، لا سبيل إلى إنكارها من أي إنسان، ألا وهي ظاهرة تفاوت الأرزاق فيما بين الناس، فهناك الموسر والمعسر، وهناك الغني والمتوسط والفقير، وهذا التفاوت الحاصل في الأرزاق، لا يخص الأرزاق المادية وحدها، بل يشملها ويشمل الأرزاق المعنوية نفسها، فالموهب العقلية، والاستعدادات الفكرية، هي أيضاً تفاوت من شخص إلى آخر، وتفاوت حتى فيما بين أعضاء الأسرة الواحدة، بين الوالد والولد، وبين الإخوة الأشقاء.

وإذا كنا لا ندرك السر في تفضيل بعض الناس على البعض الآخر، لحكمة إلهية خفيت عنا في ذلك، فإننا نستطيع أن نتبين

أسباب هذا التفاضل ونعلله، بالنسبة لكثير من الحالات الأخرى، التي يكون اختلاف المواهب والاستعدادات فيها من أهم العوامل الظاهرة، المؤدية إلى التفاضل في الأرزاق، ولا سيما الأرزاق المادية.

و«المساواة» التي يهدف إليها الإسلام هي عبارة عن المساواة بين الناس في سدِّ حاجياتهم الحيوية، حتى لا يسقط أحد منهم ضحية العوز والحاجة، أما المساواة في الرزق الذي يكتسبه كل إنسان، بمعنى أن يكسب جميع الناس كسباً واحداً وبمقدار مماثل لا يزيد ولا ينقص بالنسبة لأي فرد، بالرغم من اختلاف مواهبهم، واختلاف كفاءاتهم، واختلاف مهامهم، فهي مجرد حُلْم من الأحلام، لا تقره طبيعة الأشياء ولا يقره الإسلام، وعلى فرض أننا ساوينا في العطاء والكسب بين شخصين أو أكثر، فإن أحدهما لا يلبث أن يتصرف بمحض إرادته في رزقه تصرفاً سليماً، فيستثمر ويوفّر ويدخر، بينما الآخر يتصرف بمحض إرادته في رزقه تصرفاً سقيماً، فيُسرف ويبذّر، وبذلك تعود كفة أحدهما إلى الرجحان على كفة الآخر، ويعود التفاوت بينهما ثانياً إلى ما كان عليه أولاً، وإلى وصف هذه الحقيقة الواقعية يشير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾. غير أن التفاوت في الرزق وعدم المساواة فيه وإن كان أمراً مسلماً لا يعني احتكاره والافتقار به، وإهمال الآخرين، بل إن سد حاجات المحتاجين من ملبس ومطعم ومسكن حق ثابت لهم، وهم فيه مع غيرهم سواء، وبتمكينهم من نصيبهم في الرزق يتم شكر نعمة الله. وهذا

المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَآدِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ، أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

على أن التفاوت بين الناس ليس منحصراً في الأرزاق وحدها، بل هو موجود حتى في أعمارهم وآجالهم، وما يصاحب ذلك من أعراض الشيخوخة والهرم، ففي نهاية الربع الماضي، وقبل الحديث عن التفاوت في الأرزاق في بداية هذا الربع، سبق قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. فهذه الآية تشير إلى واقع محسوس: أفراد يطول عمرهم حتى يدركهم الهرم، وآخرون يموتون في شُرْح الشباب، وأفراد - رغماً عن طول عمرهم وَهرمهم - يتمتعون بملكاتهم الذهنية إلى آخر رمق، وآخرون يُرَدُّون إلى «أردل العمر» فيفقدون جميع ملكاتهم أو أكثرها قبل حلول الأجل بزمن طويل، وكما أنه لا سبيل إلى المساواة بين الناس في أعمارهم وآجالهم فإنه لا سبيل إلى المساواة بينهم في أرزاقهم ومواهبهم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وفي هذا السياق ندد كتاب الله بسخافة المشركين وعباد الأصنام والأوثان، فإنهم بدلاً من أن يعبدوا خالقهم ورزقهم ويفردوه بالعبادة والطاعة دون سواه يتوجهون إلى من لا يملك لهم رزقاً، ولا يستطيع لهم ضرراً ولا نفعاً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٩٤﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا، هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ .

والمراد «بالعبد» هنا الصنم واللوثن الذي يعبده المشرك، وقد أطلق كتاب الله على الأصنام كلمة (عباد) في آية أخرى إذ قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ [الاعراف: ١٩٤] ، قال مجاهد: «هذا المثل «أي ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء إلى آخر الآية» مضروب للوثن وللحق سبحانه وتعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟». وقال ابن كثير: «لما كان الفرق بينهما ظاهراً بيناً لا يجهله إلا غبي جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نهي لعباده أن يتقولوا عليه، ويضربوا له الأمثال من عند أنفسهم ووحى خيالهم، إذ ليس لله في الحقيقة مثال، كَيْفَمَا كَانَ تَصُورُ الْخِيَالِ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . نعم إذا وجدنا في كتاب الله مثلاً مضروباً من الذات العلية وقفنا عند حده، ولم نتجاوزه إلى غيره، كما لا نصفه سبحانه وتعالى ولا نسميه إلا بالصفات والأسماء الواردة في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا

وَجَهْرًا ﴿ تنبيهه إلى أن «الرزق الحسن» عند الله هو الذي يؤدي العبد حقه دون منٍّ ولا أذى، فينفق منه في سبل الخير ووجوه البرِّ، الظاهر منها والخفي، معتمداً على وعد الله تعالى في قوله الحق: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]، وما عدا ذلك فهو رزق، لكنه «رزق سيء»، إذ لا نفع من ورائه للغير، ولا أثر له في إشاعة البر والخير.

ونظراً لكون الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي والمساهمة الفعلية في إصلاح المجتمع، فإن كتاب الله يستنكر موقف الشخص الكسول العاجز، المتكل على غيره، الذي لا ينفع نفسه ولا غيره، وينوّه بموقف الشخص الشجاع الصريح، الذي ينهى عن الظلم ويأمر بالعدل، والذي يعطي المثل من نفسه لبقية الناس في الهداية وحسن السلوك، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ وهذه كناية عن عجزه وسليته ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أي عبء ثقيل على غيره ﴿ أَيْنَمَا يُوجَّهْ لآيَاتٍ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وعرض كتاب الله نماذج متنوعة توقظ الانسان الغافل، وتلفت نظره إلى علم الله المحيط بكل شيء، وقدرته الواسعة، وحكمته الباهرة، وإبداعه الفريد في الأنفس والآفاق، مما لا مثيل له ولا نظير، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ

لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ .

وخصَّ كتاب الله بالذكر والامتنان نعمة «الأسرة» التي يطمح إليها كل إنسان عاقل، حتى إنه ليكافح في سبيل الاستمتاع بها والحصول عليها بجميع الوسائل، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ فامتن على الرجال بأن جعل زوجاتهم بشراً من جنسهم، إذ خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة، إن اختلفا في وظائفهما العملية والاجتماعية، فإنهما لا يختلفان في خصائصهما النوعية والإنسانية. والحكمة الإلهية في ذلك أن يعاشر الرجل امرأة من جنسه، وأن تعاشر المرأة رجلاً من جنسها تتجاوب معه، فتحس نفس الإحساس، وتشعر بنفس الشعور، وتتكلم نفس اللغة، ثم امتن سبحانه على الآباء والأمهات بما يرزقهم من البنين والحفدة، إذ الذرية الصالحة هي أطيب الثمرات لشجرة الزواج المباركة، وهي إحدى حسنات الإنسان التي لا تنقطع بعد الموت.

ونبّه كتاب الله إلى أن الوظيفة الأساسية التي يرمي إليها الإسلام من تأسيس البيوت لإقامة الأسر والعائلات هي الحصول على نوع خاص من الحياة يتميز عن كل ما عداه بالسكينة والهدوء والطمأنينة وراحة البال، ولن يؤدي البيت هذه الوظيفة الحيوية إلا إذا كان مستوفياً لشرائط الراحة والانسجام، مادياً وروحياً، وإلا إذا كان أعضاؤه المتساكنون فيه على غاية الوفاق والوثام، وفي

مأمن من عوامل الشقاق والخصام، وإلى هذا المعنى الدقيق الرقيق يشير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتحليلاً قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمَنْ - آيَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الآية: ٢١].

وفي سياق امتنان الله على عباده بما آتاهم من أسر وبيوت، وبنين وحفدة، عرض كتاب الله جملة من النعم التي هي شرط أساسي لحياة الأسرة وسعادة البيت، مما يتوقف عليه كل إنسان في الحرّ والقرّ، في الطّعن والإقامة، في السلم والحرب، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَى حِينٍ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي ظلالاً تقيكم حر الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي حصوناً تأوون إليها وتعتصمون بها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي كساكم من عُرى بملابس وأغطية تدفع عنكم الحر والقر ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ أي دروع الحرب والجهاد، التي يُحتاج إليها في ساحات المعارك وما ناسبها من عُدة وعتاد، ثم عقب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ بمعنى أن من فُكّر في مجموع هذه النعم الإلهية، وقدرها حق قدرها، وتأمّل في كرم المنعم بها وفضله، واستحضر في ذهنه ما ينشأ عن فقدها واختلالها أو الحرمان منها، من اختلال في حياة الإنسان،

ونزول إلى الدَّرَكِ الأسفل من دركات الحيوان، لا يسعه إلا الإِعتِرافُ بِجَمِيلِ مَولاهِ والإِذعانِ والإيمانِ، لكن المعاندين والجاحدين مصرون على عنادهم وجحودهم رغماً عن تمتعهم بنعم الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا، وَأَكْثَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ .

وتناول القسم الأخير من هذا الربع بالوصف والتحليل حالة المشركين والكافرين عندما يضع الله الموازين القسطَ ليوم القيامة، وما يكونون عليه من وجوم ودهشة وارتباك وتردد لهول المفاجأة، وما يُرَدِّدُونَهُ من اعتراف وإقرار، وما يحاولونه من تراجع واعتذار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ، وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكٰذِبُونَ﴾ أي فكذبهم شركاؤهم ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي واستسلم الذين أشركوا يومئذ لله مدعين خاشعين، لكن بعد فوات الوقت ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمُ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

وقوله تعالى هنا: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ يشبه قوله تعالى فيما سبق من سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٤١] . وقد كان عبد الله بن مسعود يقرأ، ورسول الله يسمع، فلما وصل إلى هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «حسبك»، فالتفت عبد الله بن مسعود إلى

رسول الله، فإذا عيناه تَدْرِفَانِ، أي وجد عينيه الكريمتين تَدَمَّعَانِ،
تأثراً من استحضار هذا المشهد الرهيب من مشاهد يوم القيامة،
نسأل الله أن يستر هذه الأمة بستره الجميل.

الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين
في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾
 وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
 تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
 تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَرْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
 أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ
 هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾
 وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا

وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ
 يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ
 بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ
 أَوْ أَنْبِئِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
 أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ
 سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾
 إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
 مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
 لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
 وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ
 الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

مُبِينٌ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
 اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ
 الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٦٥﴾
 مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ
 مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا
 فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
 لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
 وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٠﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا قُتِلُوا، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنَّا بَعْدَهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

اعتنى كتاب الله في القسم الأول من هذا الربع ببيان الدعائم الأساسية التي يقوم عليها السلوك الإسلامي، فردياً كان أو جماعياً، وهذه الدعائم لا تقوم للمسلمين قائمة بدون مراعاتها والتزامها، فدعا إلى التزام العدل وممارسة الإحسان، وتجنب الظلم وتفادي الطغيان، ودعا إلى الوفاء بالعهد واحترام الأيمان، ونهى عن إشاعة الفواحش وإقرار المنكرات، كما نهى عن رواج سوق المكاييد والمساومات بين الأفراد والجماعات.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾. و«العدل» هو الإنصاف قولاً وفعلاً، والتسوية بين

أصحاب الحقوق بإعطاء كل ذي حق حقه دون تحيُّز ولا هوى. ومن مشمولات العدل: العدل بين الإنسان وربه، بإيثار حق الله على حظ نفسه، والعدل بين الإنسان ونفسه، بمنعها عن كل ما فيه ضررها وهلاكها، وبمنحها كل ما فيه نفعها وصلاحها، والعدل بين الإنسان وأخيه من بقية الناس، بإنصافهم من نفسه، وعدم الإساءة إليهم بقول أو فعل، لا في السر ولا في العلن.

و «الاحسان» في هذا المقام، هو التفضل والانععام، وحسن المعاملة بين الأنام، ومن مشمولاته: صلة الرحم، المعبر عنها هنا (بإيتاء ذي القربى)، قال أبو بكر (ابن العربي): «وإنما خصَّ ذوي القربى، لأن حقوقهم أوكد، وصلَّتهم أوجب، لتأكيد حق الرِّحم، التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته».

ثم قال تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. و«الفحشاء» كل قبيح من قول أو فعل أو خلق أو اعتقاد، ومن ذلك أن العرب تسمي البخيل «فاحشاً». و«المنكر» ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وما تستنكره فطرة الإنسان وتأباه، من تصرفات ومعتقدات، و«البغي» هو تجاوز الحد، والتطاول على الغير بالظلم والتعدي.

وقوله تعالى: ﴿يَعْظُمُ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تنبيهٌ إلى أن الحكمة المتوخاة من أوامر الله ونواهيه هي إرشادنا إلى وجوه الخير حتى نمارسها، لصالح أنفسنا وصالح الناس، وتحذيرنا من ضروب الشر حتى نتجنبها، وقايةً لأنفسنا وللناس. قال عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه: «هذه أجمعُ آية في القرآن لخير يُمثل،
وشر يُجتنب».

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴾. و«العهد» يطلق في كتاب الله إطلاقات متنوعة،
والمراد بعهد الله هنا ما يعطيه المومنون من العهود والمواثيق
لبعضهم أو لغيرهم، وما يصحب عهودهم من الأيمان المؤكدة
لها، الضامنة لالتزامها ونفاذها، و«توكيد» الأيمان هو حلف
الإنسان في الشيء الواحد يميناً بعد يمين.

ونهى كتاب الله أن يسلك المومنون في عهودهم المؤكدة
بالأيمان مسلك الخداع والتغريب، ضارباً لهم المثل بالمرأة التي
تعبت وقضت وقتاً طويلاً وهي منهمكة في الغزل، ثم نقضت
غزلها بعد أن أبرمته وفتلتها فتلاً شديداً، فضاع مجهودها سدى،
محدراً إياهم من اتخاذ هذا المثل اسوة لهم فيما يعقدونه من
المواثيق، إذا نقضوها بعدما أبرموها، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا
كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَنْكُثًا، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾
معناه: لا تكونوا ناكثين للعهود ناقضين لها، متخذين من عهودكم
المؤكدة بالأيمان مجرد ستار للخداع والغدر، بحيث تعقدونها
وأنتم مبيتون النية مصممون على نقضها وفسخها، لأول ما يرجح
ميزان القوة عندكم على غيركم، وهذا معنى قوله تعالى في نهاية
هذه الآية: ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾.

وأكد كتاب الله هذا المبدأ الإسلامي الأصيل، مبدأ الوفاء بالعهد ما دام العهد قائماً، مبيّناً هذه المرة العواقب الوخيمة التي تنشأ عن خيانة العهود ونقض المواثيق، فقال تعالى في نفس هذا الربع: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تتخذوها خديعة ومكراً ﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، إذ إن الغدر والخديعة يؤديان إلى فقد الثقة وإثارة الفتنة فيما بين الأفراد والأمم، ويؤديان إلى أن يتربص المخدوعون بمن خدعوهم الدوائر، فينصرم حبل التعاون فيما بين الطرفين «ولا يُلَدِّغِ المومن من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ».

وزاد كتاب الله نفس المبدأ توكيداً وتشديداً، منبهاً إلى أن المنافع الزائلة والمصالح العابرة، لا ينبغي أن تُغري المومنين بنقض عهودهم ومواثيقهم، لأن منافع الوفاء المتبادل، والثقة المتبادلة، أديم وأبقى، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ، وَلَيَجْزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم حض كتاب الله على ممارسة الخير والعمل الصالح، و«العمل الصالح» هو العمل المشروع الملائم للتوجيهات الإلهية، والمحقق لمقاصد الشريعة وأهدافها، مبشراً كل من سلك في حياته هذا المسلك من ذكر وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، وهذه

الصيغة تتضمن وعداً قاطعاً من الله تعالى، وتفيد أنه وعد «نافذ» في نفس هذه الحياة لا مردّ له، مما يدل أقوى دلالة على أن آثار الأعمال الصالحة تظهر على أصحابها في دنياهم قبل آخرتهم. وفيما يخص الشق الثاني قال تعالى في نفس السياق وبنفس التأكيد: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

و «الحياة الطيبة» التي وعد الله بها من التزم العمل الصالح تشمل جميع وجوه الطمأنينة التي يطمح إليها الإنسان في حياته، وجمعها ابن عباس في كلمة واحدة فقال: «الحياة الطيبة هي السعادة».

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الذي توسّط هذه الآية بين العمل الصالح والجزاء عليه، إشارة إلى أن «الإيمان» أمر أساسي بالنسبة للجزاء الكامل على العمل الصالح، لأنه هو الذي يعطي للعمل الصالح طابعه الخاص، وهو الذي يحمل عامله على أن يجعل هدفه الوحيد من عمله ابتغاء مرضاة الله دون سواه، وبدون الإيمان بالله لا يتمحض هذا الغرض، ولا يكون العمل الصالح مظهراً من مظاهر الطاعة والعبادة. وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المومن حسنةً، يُعطى بها في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنةً يُعطى بها خيراً». والقسم الأخير من هذا الحديث الشريف ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وتناولت الآيات الكريمة بعد ذلك الحديث عن القرآن العظيم: عن تنزيله، وعن لسانه، وعن رسالته، وعن آداب تلاوته.

فمن حكمة تنزيله قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ﴾ [الآية: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. وعن لسان وحيه قال تعالى: ﴿لِسَانَ الَّذِي يُلْجِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. وعن مضمون رسالته قال تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وعن آداب تلاوته قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، قال أبو بكر الجصاص: «معناه إذا أردت القراءة فاستعد، إذ ثبت عن النبي ﷺ وعن السلف الاستعاذة قبل القراءة، والاستعاذة ليست بفرض». وبنفس هذا الإستعمال ورد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وقال ابن كثير: «هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب لا وجوب»، حكى الاجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة.

والحكمة في تقديم الاستعاذة قبل قراءة القرآن هي التحصن بالله من وساوس الشيطان ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٠﴾ وذلك حتى لا يُفسد الشيطانُ على القارئ قراءته، وحتى يستجمع القارئ لبَّه وقلبه على التأمل والتدبر، وهما غاية الغايات من تلاوة كتاب الله .

وتعرَّض كتاب الله لحالة استثنائية طالما عرضت للمستضعفين في بداية عهد الإسلام، ممن لم تكن لهم عشيرة تحميهم، ولا عصبية تدافع عنهم، حيث كان المشركون يعذبونهم ويكرهونهم على العودة إلى الشرك، ونَبَّه كتاب الله إلى صورتين اثنتين في هذا المقام:

- الصورة الأولى: صورة من ضُعب عن احتمال التعذيب، فكفر بالله من بعد إيمانه وعاد إلى الكفر، وهذا له عذاب عظيم، وعليه غضب من الله شديد، وفي شأنه وشأن أمثاله قال تعالى هنا: ﴿وَلَكِنَّ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وفي أمثاله ورد حديث البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه».

- والصورة الثانية: صورة من أكره على الكفر بعد إيمانه، واستمرَّ قلبه مطمئناً بالإيمان، فهذا لا يؤاخذهُ الله بما نطق به اللسان، مخالفاً لما في الضمير والجنان، من التعريض الذي هو في حكم الهديان، بل هو معذور في الدنيا، مغفور له في الأخرى، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَن أكرهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنَّا بَعْدَهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين
في المصحف الكريم

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ﴿١١٣﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٥﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالدَّمَ وَاللَّحْمَ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا
تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى
 الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا
 ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
 ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ
 ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِنًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
 شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ إِجْتَبِيَهُ وَهَدِيَهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
 وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾
 ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
 فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ اذْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
 الْحَسَنَةِ وَجَدِ لَهُم بِالتَّيِّبَةِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
 بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
 وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَٰئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

أول آية في هذا الربع تؤكد عدل الله تعالى المطلق، بالنسبة لجزاء الأبرار والفجار، والأخيار والأشرار، وتنبه إلى أن كل نفس ستكون مسؤولة أمام الله عن عملها، مطالبة بالدفاع عن موقفها، إذ لا تقبل نيابة أحد عن أحد في عَرَصات يوم القيامة: ﴿كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، حتى إذا انتهى كل واحد من الدفاع عن نفسه نال جزاءه العادل، لا يُنقص شيء من ثوابه إن كان خيراً، ولا يُزاد شيء في عقابه إن كان شراً، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي توفى جزاء ما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وتحدث كتاب الله عما يصيب البشر من ابتلاء وعقاب في

الحياة الدنيا قبل الآخرة، جزاء كفرهم بنعمة الوافرة، فكم من مدن وقرى أنعم الله على أهلها بالأمن والطمأنينة ورغد العيش، وسهولة الحصول على الضروريات والحاجيات من كل مكان، فلم يقدروا نعمه حق التقدير، ولم يُصدِّقوا بشارة أي بشير، ولا نذارة أي نذير، فمثل هؤلاء القوم يعاقبهم الله بالسلب بعد العطاء، ويسلِّط عليهم الخوف والجوع وما يرافقهما من أنواع البلاء، جزاء كفرهم، وعدم شكرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ - أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

والقرية المشار إليها في هذه الآية على سبيل المثال يظهر أن المراد بها مكة في عهد سيطرة الشرك والمشركين عليها، فقد أصرَّ مشركو قريش في بداية عهد الإسلام على مقاومة الرسالة المحمدية، وبالغوا في إيذاء الرسول عليه السلام وإيذاء المومنين، إلى أن اضطر للدعاء عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة واحدة أذهبت لهم كل شيء، وكانت كافية في ردعهم عن طغيانهم نوعاً ما، ولم يسعهم بعدما رأوا العذاب، ولمسوا أثر استجابة الله دعاء رسوله، إلا أن يلتجئوا إليه قاصدين بابه، سائلين منه الدعاء لهم باللطف والرفق، فما كان منه عليه السلام إلا أن رُقَّ لحالهم، ودعا الله فاستجاب الله دعاءه، وكان ذلك الموقف النبوي الكريم من أهم العوامل التي زعزعت ثقتهم بالشرك

والوثنية، وشرحت صدر كثير منهم للإيمان بالرسالة الإلهية.

ثم وجه كتاب الله دعوة كريمة إلى الناس كافة - ولا سيما المومنين - فقد دعاهم جميعاً إلى الإقبال على مائدة الله التي أنزلها لهم للتمتع بها، والتناول منها، كما دعاهم إلى الاستزادة من خيراتها بالشكر عليها، وذلك رحمة بهم، لإقامة أودهم، واستمرار النوع الإنساني المستخلف في الأرض، وحفظه من الهلاك والبوار، وهذه المائدة الإلهية التي دعاهم إليها كتاب الله تنحصر أنواعها في (الحلال الطيب)، ففي أنواع الحلال ما يكفيهم عن كل حرام، وفي أنواع الطيبات ما يغنيهم عن كل خبيث، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا، وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

وبمناسبة هذه الدعوة الكريمة نبه كتاب الله إلى جملة من المحرمات والخبائث التي لا يسوغ للإنسان تناولها، لما فيها من ضرر محقق، وأذى بالغ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. وقد سبق نفس هذا الموضوع مفسراً في مثل هذه الآية من سورة البقرة.

وما دام الحديث جارياً عن الحلال والحرام، والطيب والخبيث، فقد بين كتاب الله أن السلطة الإلهية العليا هي وحدها التي لها صلاحية الحكم بتحليل ما هو حلال وتحريم ما هو حرام، وأن القول الأول والأخير في هذا الشأن، مرجعه إلى الله

لَا إِلَى هَوَى الْإِنْسَانِ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الاعراف: ٥٤]
فليس للناس أن يُحَلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ، ولا أن يُحَرِّمُوا ما أَحَلَّ اللهُ،
تبعاً لمجرد أهوائهم وشهواتهم.

وحذَّرَ كتابُ اللهُ من الحكم على الأشياء بالتحليل والتحريم
دون سَنَدٍ شرعي، واعتبر المغامرِين بذلك من عند أنفسهم
متطاولين على الشرع ومفترين على اللهُ، وذلك ما يشير إليه قوله
تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا
حَرَامٌ لَنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

ونظراً إلى أن الشهوة الغالبة، والمتعة الزائفة، هما أهم سبب
فيما يُقدم عليه بعض الناس من تحليل الحرام جاء التعقيب على
ذلك بما يُنْفَرُ من تلك الشهوة وتلك المتعة، فقال تعالى: ﴿ مَتَّعْ
قَلِيلًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وما دام الحق سبحانه وتعالى يعلم ضعف الإنسان، وما
توحي إليه به نفسه الأمارة بالسوء، وأنه عرضة للتورط في المعصية
والإثم، فقد فتح اللهُ سبحانه لعباده باب التوبة على مصراعيه،
حتى يمكنهم أن يستأنفوا الطاعة بعد المعصية، والاستقامة بعد
الانحراف، وحتى يمارسوا من جديد عمل الحسنات، تكفيراً عما
ارتكبوه من السيئات، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ﴾ يتضمن

إشارة لطيفة إلى أن مرتكب المعصية عندما يهجم على ارتكابها يكون في حالة شبيهة بحالة الإغماء والجنون، بحيث يفقد - تحت ضغط الشهوة - وعيه الديني تقريباً، فينسى حكم الدين، وينسى يوم الدين، حتى إذا ما استرجع وعيه ندم على ما فرط منه، وأخذ يتلمس الأسباب، ويطرق الأبواب، ليريح ضميره من العذاب، فيفتح الحق سبحانه وتعالى في وجهه باب التوبة، وما أوسع من باب، وبذلك يعود المومن العاصي إلى أحضان الرشد والصواب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ونظراً إلى المقام الكريم الذي يحتله في تاريخ الخليقة خليل الرحمن ونبيه إبراهيم، وادعاء الكثير من أتباع الملل والنحل أنهم معتمدون عليه، وأن مللهم ونحلهم منه وإليه - ومن بين المدعين لهذه الدعوى مشركو العرب وبنو إسرائيل - فقد تصدى كتاب الله لإبطال دعواهم، مبيِّناً هنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين، بل كان قانتاً لله حنيفاً، كما بيّن كتاب الله في موضع آخر أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وبهذه المناسبة أثنى كتاب الله على خليله إبراهيم، ونوّه بفضائله ومزاياه في الدنيا والآخرة، ودعا خاتم الأنبياء والمرسلين إلى رفع رايته، وأتباع ملّته، وإلى هذه المعاني المتعددة يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ، اجْتَبَيْهُ وَهَدَيْهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَعَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ . وبمقتضى هذا الأمر الإلهي المطاع أخذ رسول الله ﷺ يتعبد بكل ما أوحى إليه من ملة إبراهيم، وورد قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٦١].

وقوله تعالى في وصف إبراهيم: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ قال ابن مسعود: «الأمّة هو الذي يعلم الناس الخير، والقانت هو المطيع». ويطلق لفظ الأمّة أيضاً ويراد به الإمام الذي يقتدى به، وقد كان إبراهيم عليه السلام في آن واحد: مطيعاً لربه، ومعلماً للخير، وإماماً لأتباع ملة التوحيد على العموم، و(الحنيف) في هذه الآية وما مثلها معناه المخلص، والمنحرف عن الشرك قصداً إلى التوحيد. قال أبو بكر (ابن العربي): «فعلى كل عبد أن يطيع الله ويُعلم الأمّة، فيكون في دين إبراهيم على الملة».

وبعدما أمر الحق سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين باتباع ملة إبراهيم خاطبه موجّهاً ومرشداً، مبيناً له نوع الدعوة الموكولة إليه، وأحسن الطرق التي يلزمه سلوكها لتبليغ تلك الدعوة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، والدعوة إلى سبيل الله هي جوهر الدعوة وصميمها، ثم قال تعالى: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَدِلْهُمْ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وهذه هي الشروط الأساسية لكل دعوة يكتب لها الانتشار والانتصار، إذ متى كانت الدعوة - من أي نوع - يقود خطواتها داعية غير حكيم ولا متبصر، أو داعية غير مهذب القول ولا مهذب الطبع، أو داعية

حريص على الجدل مولع بالشَّغْب، إلا وباءت دعوته بالتقهقر السريع، والفشل الذريع.

وواضح أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وإن كان موجهاً في البداية إلى الرسول ﷺ، فهو موجه في النهاية إلى جميع أفراد أمته، ومن بينهم العلماء والحكام، والمعلمون والمعلمات، والآباء والأمهات، فكلهم مطالب بالدعوة إلى ما دعا إليه الرسول بنفس الروح التي دعا بها، وحضَّ كتاب الله عليها، وقد تجدد هذا المعنى في كتاب الله عدة مرات، ومن ذلك قوله تعالى يأمر موسى وهارون عندما بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ هذه معية خاصة، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الانفال: ١٢]، وكقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] إشارة إلى حديث النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق وهما في الغار.

وأما المعية العامة بمعنى علم الله المطلق الشامل لما ظهر وما بطن، في السر والعلن، فكقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، قال ابن كثير:

«ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي تركوا المحرمات
وفعلوا الطاعات، فهؤلاء يكون الله معهم بتأييده ونصره، ومعاونته
وهديه»، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنبَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ① وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِلَابًا ② ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ أُولَئِكَ مَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥
إِنَّ أَحْسَنَكُمْ وَأَحْسَنُكُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا

فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ لِيَسْتَوُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتَبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ
وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَوَّأًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا
آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ
أَلَمْنَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ إِفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾
مَنْ إِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ
عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ

مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾
 مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ
 ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ
 أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
 كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ
 عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ
 فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلَّآخِرَةِ الْكِبْرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
 تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا - آخِرَ فَنَقَعْدَ مَذْمُومًا
 نَخْذُ وَلَا ﴿٢٢﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا - آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

هذه السورة الكريمة التي نفتح بها حديث اليوم سورة مكية، وهي من سور القرآن «العنق الأول» كما وصفها عبد الله بن مسعود أحد كبار كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ حسبما روى ذلك البخاري في الصحيح، وسميت «سورة الاسراء» أخذاً من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الآية: ١]، وأول جزء منها يتحدث بإيجاز عن انتقال الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بواسطة البُرَاق، وهو ما عبّر عنه كتاب الله «بالاسراء»، ثم عن الانتقال من المسجد الأقصى في بيت المقدس إلى السماوات العلى حتى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وهو «العروج» الذي تم بواسطة «المعراج».

قال القاضي عبد الجبار في كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن»: (ربما قيل كيف يصح قطع هذه المسافة في هذه الأوقات القصيرة؟ وجوابنا أن ذلك من معجزاته ﷺ، كما جعل الله تعالى معجزة سليمان «الريح» بقوله تعالى: ﴿وَلَسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوًّا شَهْرًا وَرَوْاحَهَا شَهْرًا﴾ [سبأ: ١٢]. وقد وردت في شأن الاسراء والمعراج عدة أحاديث تشتمل على تفاصيل دقيقة لم يتعرض لها كتاب الله، ومن أحسن من جمعها بطرقها المتعددة على اختلاف درجاتها الحافظ ابن كثير، وعندما أورد نصوصها في عشرين صفحة من تفسيره الشهير أتى بخلاصة وافية نقتطف منها العناصر الأساسية في الموضوع، وفيما يلي خلاصة الخلاصة لما قاله ابن كثير، قال رحمه الله: «وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث - صحيحها وحسنها وضعيفها - يحصل مضمون ما اتفقت عليه، من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه وقع مرة واحدة، والحق أنه عليه السلام أُسِرَ به يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق، وهو دابة بيضاء برّاقة لها لمعان. فلما انتهى إلى المسجد الأقصى دخله، فصلّى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج، وهو كالسلم، ذو درج يُرْقَى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاها من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى انتهى إلى مستوى يسمُّع فيه صريف الأقلام - أي أقلام القَدَر - بما هو كائن، ورأى سِدْرَةَ المُنْتَهَى، ورأى البيت المعمور والجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى

خمس، رحمةً منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لماً حانت الصلاة، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البُرَاق وعاد إلى مكة بغلَس، وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة». ثم قال ابن كثير: «والأكثر من العلماء على أنه أُسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى الاسراء قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». انتهى ما اقتطفناه من كلام ابن كثير، وعلى القول بأن النبي ﷺ رأى الاسراء رؤيا منام، ثم رآه رؤية يقظة يكون الأمر فيه مشابهاً لبدأ نزول الوحي من قبل، فقد كان المَلَكُ جاءه في المنام أولاً، ثم جاءه بعد ذلك في اليقظة، وشرح القاضي أبو بكر (ابن العربي) الحكمة في هذا التدرج فقال: «وكانت الحكمة في ذلك أن أراه الله في المنام ما أراه، توطيداً وتثبيتاً لنفسه، حتى لا يأتيه الحال فجأة، فتقاسي نفسه الكريمة من ذلك شدة، لعجز القوى الأدمية عن مباشرة الهيئة الملكية».

واقصر كتاب الله من قصة الاسراء على بيان وقته، وبيان المكان الذي أُسرى منه، والمكان الذي أُسرى إليه، وبيان الحكمة المقصودة من الاسراء فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ - أَيْتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ عَلمٌ للتسبيح، ومعناه براءة الله

من السوء، وتزيه مقامه عنه. قال ابن كثير: «والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان الاسراء مناماً - لا يقظة - لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً»، إذ «لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم»، كما قال النسفي، ولما بادر كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، مما يشير إليه قوله تعالى في مكان آخر من هذه السورة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ أي رؤيا عين كما قال ابن عباس ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [الآية: ٦٠].

ومما يستلقت النظر أن هذا التسبيح الوارد في مطلع السورة يتكرر أثناءها عدة مرات، فمرة يأتي تعقيباً على ما قال به المشركون في حق الله جلّ وعلا، وذلك قوله تعالى: ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، ومرة أخرى يأتي التسبيح تعقيباً على التحديات التي وجهها المشركون إلى رسول الله ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحٰنَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رُّسُوْلًا ﴾، ومرة ثالثة يأتي التسبيح في سياق الحديث عن الذين آمنوا بالله ورسوله ودخلوا في الإسلام من أهل الكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ أُوتُوْا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلٰى عَلَيْهِمْ يَخِرُّوْنَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُوْنَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُوْلًا ﴾.

ومن لطائف التفسير التي يحسن نقلها في هذا المقام ما ذكره جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

عند تحليله لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ﴾ إذ قال: «لَمَّا رفعه إلى حضرته السَّنيَّة، وأرقاه فوق الكواكب العُلوية، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للألوهية»، وذلك حتى لا يلتبس أحد المقامين بالآخر، كما التبسا في المعتقدات المسيحية.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ - أَيَّتِنَا﴾ بيان لحكمة الله في اسرائه بخاتم أنبيائه ورسله، وقد أعاد كتاب الله الحديث عن هذه الحكمة في سورة النجم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ - آيَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [الآية: ١٨] وكم في السماوات وحدها من عجائب وآيات. قال زميلنا المرحوم المفسر الشهيد: «والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى، من لُدُن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الأخير، لمقدَّسات الرسل قبله، والإشارة إلى اشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، فهي ترمز إلى أبعَد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تنكشف عنها للنظرة الأولى».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن موسى وعن بني إسرائيل. والحديث عن رسالة موسى عليه السلام، وعمَّا تقلَّب فيه بنو إسرائيل من النِّعم والنِّقم - بعد ذكر المسجد الأقصى - مناسب لهذا المقام كل المناسبة، فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠﴾ أَي هَادِيًا وَمَبِينًا ﴿١١﴾ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ﴿١٢﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿١٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفِيسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١٤﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿١٥﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴿١٦﴾ أَي وَعْدَ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ ﴿١٧﴾ لِيَسْتَأْذِنُوا وَجُوهَكُمْ ﴿١٨﴾ أَي لِيَجْعَلُوا آثَارَ الْمَسَاءَةِ وَالْكَآبَةِ بَادِيَةً عَلَى وَجُوهِكُمْ ﴿١٩﴾ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٢٠﴾ أَي لِيُبِيدُوا - مَدَّةَ عُلُوِّهِمْ وَاسْتِيلَاتِهِمْ - كُلَّ مَا اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿٢١﴾ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٢٢﴾ أَي سَجَنًا يَحَاصِرُونَ فِيهِ. وَهَكَذَا أَشَارَ كِتَابُ اللَّهِ فِي إِيْجَازٍ وَإِعْجَازٍ إِلَى جَوْهَرِ الرِّسَالَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَحَرَّفُوهَا وَتَنَكَّرُوا لَهَا، وَكَانَ مِنْ آثَارِ تَمَرْدِهِمْ عَلَيْهَا مَا تَوَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّشْتِيتِ وَالتَّفْتِيتِ، وَأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ وَالجَلَاءِ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا.

ثُمَّ نَبَّهَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَلَّمَا عَادُوا إِلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَالاسْتِعْلَاءِ عَلَى الْخَلْقِ عَادَتْ إِلَيْهِمُ النِّقْمُ تَتْرَى، وَأَوْسَعَهُمُ اللَّهُ هَزِيمَةً وَقَهْرًا، وَآتَى أَعْدَاءَهُمْ غَلْبَةً وَنَصْرًا.

وَوَاضِحٌ أَنَّ الْخَطَابَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿٢٣﴾ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴿٢٤﴾ مَوْجَّهٌ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ أَرَادَ لَهُمْ بِسُوءِ الْعَاقِبَةِ وَقَبْحِ الْمَصِيرِ، كَمَا وَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْخَطَابَ مِنْ قَبْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿٢٥﴾ لُتْفِيسِدُنَّ فِي

الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية. فهذا هو ما يقتضيه سياق الآيات المتلاحقة، ويقضي به نظامها العام، وارتباطها التام، قال ابن كثير: «وفيما قصَّ الله علينا في كتابه غنية عما في سواه من بقية الكتب قبله، وقد أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم كلما طغوا وبغوا سلَّط الله عليهم عدوَّهم فاستباح بيضتهم، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الميزة الخاصة التي امتاز بها القرآن الكريم، وأنه اشتمل على لب الدين الصحيح وجوهره الكامل، وعلى شريعة الله الفاضلة في أسمى أطوارها، وأنه بعد نزوله لم تبَقْ هناك طريقة أقوم من طريقته، ولا شريعة أفضل من شريعته، فهو الحَرِيُّ والأحق بالاتباع، من جميع الشيع والأتباع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي يهدي للعقيدة التي هي أقوم، والشريعة التي هي أقوم، والحياة التي هي أقوم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ معناه ألزمتنا كل إنسان جزاء عمله، وما يستحقه، بحيث يصبح عملُ الأختيار لازماً لهم لزوم القِلادة للعنق، وعمل الأشرار لازماً لهم لزوم العُلِّ للعنق، وواضح أن العنق عضو لا نظير له في جسد الإنسان، فمن ألزم فيه بشيء لم يُفكَّ عنه بحال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَدِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا، وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَمَّرْنَهَا تَدْمِيرًا ﴿١﴾ إشارةً إلى سنَّةِ الله التي لا تتخلف، من إرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وقيامهم بتبليغ أوامر الله ونواهيهِ إلى كافة الخلق، ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فإذا امثلوا أوامر الله كيفما كان موضوع تلك الأوامر - وفي طليعتها أمره بالعدل والاحسان وأداء الأمانات إلى أهلها - أفاض الله عليهم وعلى بلدانهم أصناف النعم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وإذا «فسقوا» وعصوا أوامر الله ولم يجتنبوا نواهيهِ، وانحرفوا عن الجادة، سلَّط عليهم وعلى بلدانهم ضروب النقم، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَدْمِيرًا﴾، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين
في المصحف الكريم

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
 إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا
 تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَنْهَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٧٣﴾ وَخَفِضْ
 لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي
 صَغِيرًا ﴿٧٤﴾ رَبُّكُمْ يَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ وَإِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ
 فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٧٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٧٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ
 كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٧٧﴾
 وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ
 قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٧٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
 كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٧٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا
 تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ
 قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً
 وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْنُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ
 قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَيْهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ
 إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
 حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾
 وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ
 خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
 وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ
 فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ
 طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾
 ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
 فَتُتْبِعَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفِيكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ
 وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا
 فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

في الربع الماضي تولى الحق سبحانه وتعالى التنويه بكتابه الحكيم، وأنه الكتاب الوحيد الذي يهدي إلى أقوم العقائد والملل، وأقوم الشرائع والشعائر، والذي يفصل للإنسان كل شيء، فيعرفه طريق الخير ليسلكها، وطريق الشر ليتجنبها، وذلك قوله تعالى فيما سبق: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

وكنموذج لما يهدي إليه الذكر الحكيم من الطرق القويمه، والتوجيهات السليمه، ولما يفصله بين جناته لفلاح الإنسان ونجاته، تولى الحق سبحانه وتعالى في هذا الربع بيان عدد مهم من الأوامر والنواهي، مما تتوقف عليه سعادة الفرد المسلم وسعادة

المجتمع الإسلامي، فوجه خطابه إلى المكلفين، واحداً واحداً، بالنسبة لما يتعلق بذمهم كأفراد، من الأوامر والنواهي، ووجه خطابه إلى المكلفين، جماعة جماعة، بالنسبة لما يتعلق بهم كجماعات، من الأوامر والنواهي، إذ أن الشريعة تحتوي على تكاليف فردية وتكاليف جماعية، كل منها يكمل الآخر، ويساند الآخر: مثال النوع الأول قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ - ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾. ومثال النوع الثاني قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

وأول ما يستلقت النظر في هذا الربع قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الذي أتبعه في الحين ودون أي فاصل بقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الآية: ٢٣]، الأمر الذي يوضح أهمية البرور بالوالدين عند الحق سبحانه وتعالى، حتى وصى به وجعله مقارناً لتوحيده وعبادته، والاعتراف بربوبيته، بحيث إذا كان الإيمان بالله يعتبر في الدرجة الأولى، فإن الإحسان إلى الوالدين يعتبر في الدرجة التي تليه مباشرة، على غرار قوله تعالى في آية أخرى تؤكد نفس المعنى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] حيث ربط شكر الإنسان لوالديه بشكره لربه. وهكذا يوجه الإسلام معتنقيه إلى

وجوب الارتباط الدائم بالله أولاً، ثم الارتباط الوثيق بالأسرة ثانياً، إذ الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع، والأمة الإسلامية يجب أن تتألف من مجموعة أسر تتبادل العون والعطف، وتتعاون على البر والتقوى.

ثم تكفل كتاب الله بالإرشاد إلى وجوه الإحسان والبرور التي يجب على الأولاد أن يقدموها إلى الوالدين في جميع الظروف، ولا سيما عند كبرهما، وضعفهما، فنهى عن التضجر منهما والتبرم بهما، ودعا إلى حسن الأدب معهما والتواضع لهما، ورعايتهما حق الرعاية بقية حياتهما، كما دعا إلى الترحم عليهما والوفاء لذكراهما بعد انتقالهما إلى رحمة الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ تصوير للحالة الاستثنائية التي يحتاج فيها الوالدان أكثر فأكثر، إلى برور الأولاد، وهي حالة الكبر والهرم، التي يرافقها الضعف والعجز، ففي هذا الطور من العمر الذي يصل إليه الأب، أو تصل إليه الأم، أو يصلان إليه معاً، يحتاج الوالدان حاجة ملحة إلى برور أولادهم، ويتطلعان بلهفة وشوق إلى مزيد رعايتهم، إذ تكون الأم ويكون الأب قد استفد كل منهما طاقات شبابه، وأفنى كل منهما زهرة حياته في تنشئة الأولاد وتربيتهم، وبذل كل منهما النفس والنفيس في سبيل اسعادهم، دون أدنى

تحفظ ولا أدنى حساب، وبذلك يردُّ الأولاد لوالديهم وهم كبار، بعض ما أسداه إليهم والدوهم وهم صغار.

هذا وينبغي لكل ولد ولد أن لا يغفل عن الخطاب الإلهي الموجّه إليه من الحق سبحانه وتعالى هنا بشكل مباشر إذ يقول: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ فكلمة (عندك) هنا إنما جاءت لتشير إلى أن الوالدين في حالة شيخوختهما يصبحان غالباً في كنف أولادهما، ويقضيان أيامهما الأخيرة في رعايتهم وعلى مسؤوليتهم، فعلى الأولاد أن يقوموا بحقوق الأبوة على الوجه الأكمل، كما قام الآباء بحقوق البنوة على الوجه الأفضل. وتذكيراً بتضحيات الوالدين في سبيل أولادهما عندما كانوا أفقر خلق الله إليهما، طالب الحق سبحانه وتعالى الأولاد بسؤال الرحمة لهما جزاءً وفاقاً، فقال تعالى مرشداً ومعلماً صيغة الدعاء المناسب لهذا المقام: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾.

ولم يهمل كتابُ الله الإشارة إلى ما قد يلحق بعض الأولاد من ضَجْرٍ أو مَلَلٍ أو فتور في القيام بحقوق الوالدين، مما قد تشيره بعض تصرفاتهما في حالة الهرم والكبر، فنبه الحق سبحانه وتعالى إلى أنه مطّلع على سرائر النفوس لا يخفى عليه منها شيء، وأنه إذا فرط من الأولاد شيء من التقصير في حق الوالدين، في حالة غضب أو ضيق صدر، وكانت نيتهم نحو الوالدين لا تزال نية صالحة بريئة من السعي في الأذى والميل إلى العقوق، فإن الله يغفر للأولاد ما فرط منهم إذا ما بادروا للتوبة من تقصيرهم، وتداركوا القيام بحقوق الوالدين، وأنه يعفو عما سلف منهم ولا

يؤاخذهم عليه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا مخاطباً الأبناء التائبين من تقصيرهم في حق الآباء: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفُسِكُمْ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾.

وبعدما استوفى كتاب الله الحديث عن حقوق الوالدين في البر والاحسان دعا كل فرد من المسلمين إلى أن يعمّ برّه وإحسانه بعد والديه عشيرته الأقربين، ثم كل محتاج ومسكين، فحق الأخوة العامة في الله بين المسلم وأخيه المسلم لا يقل عن حق القرابة في الدم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

ونظراً لأن الرزق لا يستمر على وتيرة واحدة، بل يتسع أحياناً فيسقط صاحبه يده للبدل والسخاء، ويضيق أحياناً فيقبض صاحبه يده عن العطاء، نبه الحق سبحانه وتعالى عباده إلى الأدب الواجب عليهم في مثل هذا الظرف الدقيق، وأنه ينبغي لهم أن يتجنبوا كل ما يلحق الأذى بشعور إخوانهم، أو يحط من كرامتهم، وبدلاً من أن يعرضوا عنهم متسترين ينبغي لهم أن يعدوهم وعداً جميلاً بالعون إذا ما أيسروا، ويقولوا لهم قولاً معروفاً إذا أقبلوا أو أدبروا، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى مخاطباً كل فرد من أفراد المسلمين: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُوراً﴾.

وإزالة لكل التباس يمكن أن يقع فيه الناس اهتم كتاب الله بتوضيح أن الأمر بالبر والإحسان لا يقتضي حتماً انفاق كل ما يملكونه في هذا السبيل، فضلاً عن غيره من السبل، تاركين

أنفسهم وأهلهم عالة يتكفون الناس، فالإسلام ملة وسط، وأمته أمة وسط، وتكليفه تكليف وسط، وهو يكره الإفراط والتفريط في جميع المجالات، ولذلك ندد بالتبذير، كما ندد بالتقتير، ودعا إلى التزام التوسط بين بسط اليد وقبضها، لأن بسط اليد بالمرة يُعرض الإنسان للوم الغير، ممن لهم عليه حقوق أصبحت ضائعة كالأهل والأولاد، ويعرضه للحسرة والندامة والهَمُّ المقيم، فيما بينه وبين نفسه، والإسلام كما يريد أن يُقوي حاسة البر، ويُشيع عاطفة الإحسان في المجتمع العام، لا يرضى بإشاعة البؤس والشقاء في المجتمع الخاص، وإنما يحرص كل الحرص على إقامة مجتمع سعيد متكافل ومتوازن من جميع جوانبه، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ - ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

ونبه كتاب الله في سياق أوامره ونواهيهِ الموجهة إلى كل فرد من أفراد المسلمين، إلى أن لا يدعي أحد منهم علم ما لم يعلم، كأن يقول: رأيتُ، وما رأيتُ، وسمعتُ، ولم يسمع، وكأن يشهد شهادة الزور، ويحكم بغير دليل ولا مستند في بعض الأمور، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

ونهى كتاب الله كل مسلم عن التكبر والتجبر والتبختر، ودعاه إلى أن يُخفف وطأه في المشي على الأرض، إذ مهما تمايل الإنسان وتناول لن يغيّر من طبيعته وقدرته شيئاً كبيراً،

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

وكما اتجه كتاب الله بجملة من الأوامر والنواهي إلى مختلف الأفراد فخطبهم بها فرداً فرداً، اتجه أيضاً بجملة من الأوامر والنواهي ذات الصبغة الجماعية إلى الأمة الإسلامية في مجموعها، وهذه الأوامر والنواهي تتعلق «بالكليات الضرورية» التي تتوقف حياة المجتمع الإسلامي عليها كل التوقف، وبدونها يتعذر العمران، ويفشو الانحلال، ويضيع الأمن ويفسد النظام، فقال تعالى داعياً إلى «حفظ النسل» والإبقاء عليه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ العرض» وصيانة النسب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ النفس» وصيانة الأرواح: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ المال» وتنميته، والابتعاد في كسبه عن كل غش أو تدليس: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ الدين» والتزام ميثاق التوحيد الذي واثق الله به عباده وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ - ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ - ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وبعدما عَرَضَ كِتَابُ اللَّهِ جَمَلَةً مِنَ النِّوَاهِي الَّتِي يُؤَدِّي
 ارْتِكَابُهَا إِلَى الشَّقَاءِ الْعَاجِلِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الشَّقَاءِ الْآجِلِ فِي
 الْآخِرَةِ، عَقَّبَ عَلَيْهَا تَنْفِيرًا مِنْهَا وَتَذْكَيرًا بِعَوَاقِبِهَا، فَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، بَيْنَمَا عَقَّبَ كِتَابَ اللَّهِ
 عَلَى الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ وَالْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي فِيهَا صِلَاحُ الْبَشَرِيَّةِ
 أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، بِمَا يَتَضَمَّنُ التَّنْوِيهَ بِقَدْرِهَا، وَالْإِعْلَاءَ مِنْ شَأْنِهَا،
 فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾،
 مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
 عَظِيمًا﴾ [الآية: ١١٣].

الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين
في المصحف الكريم

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ
فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَقْرَدٌ لَّيْسَ لَآلِهَتِهِمْ شَيْءٌ يُعِيدُهُمْ
إِلَيْكَ رَبُّهُمْ وَسَهْمٌ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٢﴾
يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٣﴾
وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٤﴾ رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٥﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ
زَبُورًا ﴿٥٦﴾ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۗ وَإِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾
وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ
مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾
وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلَاؤُ
ۗ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۗ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا
الرُّءْيَا آيَةً ۗ أَرَأَيْتَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ ۗ وَنُحُوفُهُمْ ۗ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ
ءَاَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ
عَلَيَّ لَنْ أَخِرَّ ۗ نِينَ ۗ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْنَنِكَ ۗ ذُرِّيَّتَهُ ۗ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ
جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِرُ مِنْ إِسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ
بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
 بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ
 فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ وَكَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
 وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا آيَاةَ فَلَمَّا
 بَجَيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾
 أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
 حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ
 فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا
 كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى، فَرُسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

في نهاية الربع الماضي حكى كتاب الله عن منكري البعث ما يخامرهم من شك وريب في النشأة الآخرة، وكيف يستغربون عودة الحياة إليهم بعد البلى والفناء، وفي بداية هذا الربع رد الله على منكري البعث رداً مفحماً قاطعاً، مؤكداً إمكان البعث ووقوعه بأمر الله الذي فطر السماوات والأرض، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم فيما سبق: ﴿وَقَالُوا أ.ذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، وقوله تعالى هنا رداً عليهم: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والآية الكريمة تشير إلى أنه حتى على

فرض أن الإنسان مكوّن تكوين الجمادات كالحديد والحجارة، لا تكوين الأحياء الذين تبقى منهم بعد الموت بقايا العظام والرفات، فإن قدرة الله لا تعجز عن نفخ الحياة فيه بعد الموت، كما نفّخت فيه الحياة وأوجدته من العدم عند نشأته الأولى، فالقدرة الإلهية متى اتجهت إلى تكوين أي شيء كان حتماً ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ ﴾ .

ونبه كتاب الله إلى أن الإنسان مهما تلكأ وتشكك وطال به الأمد فإنه سيبعث من مرّقه لا محالة، وأنه لا مناص له من تلبية النداء الإلهي والاستجابة إليه يوم البعث والجمع للحساب، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقوله تعالى (بحمده) بعد قوله (فتستجيبون) إشارة إلى أن أشد الناس إنكاراً للبعث والحاداً فيه لا يسعهم إلا أن يستجيبوا لدعوة الله عندما تدق الساعة، راضين غير ساخطين، مطيعين غير متمردين، على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من شك في البعث، وإنكار للحساب.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن وصية إلهية أخرى تدرج في جملة ما أوحاه الله إلى نبيه من «الحكمة»، فقال تعالى مخاطباً رسوله ليبلغ خطابه إلى المومنين: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، وهذا نداء موجه من الحق سبحانه وتعالى إلى كل من يعترف بالعبودية لله ويتمسك بطاعته، (وقل لعبادي) أن يختاروا الكلمة التي هي أحسن على الكلمة التي هي دونها حسناً، في جميع مخاطباتهم وعلاقاتهم مع الناس، ولو كان المخاطبون

مشركين أو كتابيين، فما بالك بإخوانهم المومنين. وَعَرَضَ كتاب الله في هذا السياق مثلاً من أمثلة الكلمة التي هي أحسن، لتكون نموذجاً للاسوة والافتداء، وهذا المثال هو قوله تعالى على لسان عباده المومنين لمخالفهم في العقيدة والدين: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبِكُمْ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّا أَوْ أِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعَ بَيْنَهُمْ﴾ آية معترضة بين قوله «التي هي أحسن» وقوله «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ» جيء بها مبالغة في تحذير المومنين من فلتات اللسان، التي تُعَدُّ من أخطر مصاديد الشيطان، لأنها تُوغِر صدر الإنسان على أخيه الإنسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يُشَبِّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ، فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الآية: ٢٥٣]، والمفاضلة بين الأنبياء والرسول لا تمس جوهر النبوة في حقيقتها، ولا طبيعة الرسالة في حد ذاتها، وإنما تتعلق بجوانب زائدة على ذلك، كالأزمة التي يظهرون فيها، والأمكنة التي يُبعثون بها، والأقوام الذين يُبعثون إليهم، ونوع الدعوة المطالب كلُّ منهم بتبليغها، وأسلوب الدعوة المستعمل فيها، ومبلغ النجاح الذي يصادف تلك الدعوة، وعدد الأتباع الذين يؤمنون بها ويكيّفون حياتهم بموجبها. وذكر الزبور في قوله تعالى هنا: ﴿وَأَتَيْنَادُ أَوْوَدَ زَبُورًا﴾ تلميح إلى ما تضمنه

«الزبور» من التبشير بخاتم الأنبياء والمرسلين، والتبشير بأتمته التي هي في عداد الصالحين، مما أشار إليه كتاب الله في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الانبياء: ١٠٥].

وانتقل كتاب الله إلى تسفيه رأي كل من يلجأ إلى غير الله، أو يتعلق بغيره في جلب نفع أو دفع ضرر، ناسياً أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ولا يُجيب من اعتمد عليه، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

ثم مضى كتاب الله يبين أن أهل المقامات العلية الذين تُعقد عليهم الآمال، وتناط بهم الآمال، عند عامة الناس، هم أنفسهم واقفون بباب الله، يتسابقون فيما بينهم إلى طاعة الله، ويلاحق كل منهم الآخر في ابتغاء رضاه، ليكون أقرب إلى مولاه، وقلوبهم جميعاً معلقة بين جناحي الخوف والرجاء، في حالي السراء والضراء، وذلك معنى قوله تعالى هنا في هذا السياق: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي أولئك الذين يتوجه إليهم الناس بالدعاء هم أنفسهم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، و«الوسيلة» هنا هي «القربة» كما قال قتادة واختاره ابن جرير الطبري ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾. وإذا كان هذا حال المقربين إلى الله فالأولى والأضمن لغيرهم من بقية الناس أن يتجهوا رأساً إلى الله تعالى لكشف غمهم، وقضاء حاجتهم، إذ لا حجاب بين الله وبين خلقه ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ

لَكُمْ ﴿ [غافر: ٦٠] - ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الاسراء: ٢٠] .

ووصف كتاب الله في هذا الربع صورة من صور الخلق عندما يركبون البحر ابتغاء التجارة والربح، عن طريق نقل بضائعهم ومحاصيلهم على ظهر الفلك، وما يلحقهم من الجزع ويصيبهم من الفزع عند تغير أحواله، ومفاجأة أهواله، فلا يجدون ملجئاً إلا الله، وينسون كل ما سواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي يسيرها ويجرها ﴿ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا، فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ أي بدلاً من أن يشكر الإنسان نعمة الله عليه، إذ استجاب دعاءه، ولبى نداءه، يكفر حيناً بنعمة الله الذي نجاه، وينسى العون الذي قدمه له مولاه، وكان الأولى به والأوفق له أن يقف ببابه، ملازماً لأعبابه، في البر والبحر، في الشدة والرخاء، إذ لا مانع يمنع القدرة الإلهية من تسليط العذاب عليه مرة أخرى، براً أو بحراً، ما دام الإنسان قد أمعن في ضلاله وازداد جهلاً وكفراً ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي ريحاً ترميكم بالحصباء من فوق رؤوسكم ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً، أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾ أي أن ترجعوا وتركبوا البحر الذي نجاكم منه أولاً ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أي لا تجدوا علينا أدنى حجة ولا متابعة، فمن كان مصراً على

الكفر بالنعمة أصبح أهلاً لكل نقمة.

وأعاد كتاب الله في هذا الربع الحديث عن قصة آدم وإبليس، ووصف أنواع المغريات التي يُغري بها إبليس أتباعه من الناس، تحذيراً للمؤمنين من إبليس، ومغرياته، وتعريفاً لهم بعداوته ومؤامراته، حتى لا يقعوا في شباك إبليس، ولا يستسلموا إلى ما يهبطونه من وسائل التزييف والتدليس، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً، قَالَ ﴿ أَيُّ إِبْلِيسَ مَخَاطَباً الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أَي لَأَسْتَوْلِينَ عَلَيْهِمْ وَأَلْغَوْا فِيهِمْ، إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ .

وقوله هنا: ﴿ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ يؤكد معرفة إبليس بتفضيل الله لآدم وذريته، ويوضح السر في حقه عليه وعداوته، لكنه بالرغم من ذلك سيحاول إيقاع الإنسان في شبكته، وسيحاول الاستيلاء عليه عن طريق شهوته، ولذلك أعلن كتاب الله حكمه القاطع البرادع لمن رضي لنفسه أن يكون من أتباع إبليس

﴿ قَالَ ﴾ أَي الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴾ .

وكشف كتاب الله الستار عن بعض الوسائل التي يتوسل بها إبليس إلى إغواء الخلق، فقال تعالى في صيغة الزجر والتهديد:

﴿ وَاسْتَفْرِزْ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾، ويصدق هذا على

الأغاني المثيرة والمزامير المهيجّة، التي تَصْبُحُ بها أندية الليل وأوكر الفساد، كما يصدق على الخطب والتصريحات، التي تثير الفتن بين الأفراد والجماعات، ثم قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، ويصدق هذا على الحروب العدوانية، والفتن الداخلية، ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، قال الزجاج: «كل معصية في مال وولد فإبليس شريكهم فيها». ويصدق هذا على الأموال والمكاسب المحرمة، والمعاملات الفاسدة، والأموال التي تُنفق في اللهو والمجون، والفسوق والفجور، كما يصدق في «الأولاد» على الأولاد الذين يقع إنجابهم بالسبب الحرام، أو يطلب أبائهم الحصول عليهم عن طريق النذر الحرام، أو يقع استعمالهم في العمل الحرام، ويندرج تحت هذه الآية «أولاد الغير» الذين يقع تبنيهم وإدماجهم في سِجِلِّ «الحالة المدنية»، فتختلط بسبب تبنيهم الباطل الأنساب والأرحام. وهذه إنما هي أمثلة لبعض ما تصدق عليه الآية الكريمة من فنون الاغواء والإغراء التي يتعرض لها أتباع إبليس، من عشاق الشهوات، وأسراء اللذات.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَعِدُّهُمْ، وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يفسره ويؤكده قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. نعم إن الله عبداً «مخلصين» تعهد الحق سبحانه وتعالى بحمايتهم من أغواء إبليس، وبحفظهم من إغرائه، وواضح أنهم لم يستحقوا أن

يضافوا إلى اسمه الأعلى وجنابه الأقدس، إلا بعد أن جاوزوا القنطرة، وفاقوا منطقة الخطر، فقال تعالى في شأنهم وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين
في المصحف الكريم

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي
 آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٥﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ
 أَنَسٍ بِإِمَّتِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينَهُ فَأُوْثِيَ لِكَ يَقْرَأُ وَن
 كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٦﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى
 فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَادُوا
 لَيَفْسُقُونَكَ عَنِ الذِّمَّةِ أَوْحِينَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
 وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٨﴾ وَلَوْ لَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ
 كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ
 الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾
 وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
 وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨١﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا

قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقْرِمِ الصَّلَاةَ
 لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ
 الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِرَبِّهِ نَافِلَةً لَكَ
 عَبِيَّ أَنْ يَتَّبِعَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي
 مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
 سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ
 كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ
 لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى
 الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّابِجَانِيهِءَ وَإِذَا مَسَّهُ الشُّرْكَانَ يَتُوسَّأُ ﴿٨٣﴾
 قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِءَ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
 سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا
 أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي
 أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
 إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيِّنَ
 اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ
 لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِءَ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى
 أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنزِلَ
 لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
 فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
 زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِأَلِهٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ
 لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
 حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ وَقُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ
 إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا
 عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٍ رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
 بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَإِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾
 وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ وَمَنْ يَضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكَمَا
 وَصَّمَا مَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ
 بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ وَقَالُوا أَذَاكُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا إِنَّا
 لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، ونهايته قوله تعالى في شأن منكري البعث والحساب: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَأَظَنَّا أَنْ نُحْيِيَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَذُنَّ غَوَّاهٍ مُبِينٍ﴾. ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَأَظَنَّا أَنْ نُحْيِيَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَذُنَّ غَوَّاهٍ مُبِينٍ﴾.

في الربع الماضي أشار كتاب الله إلى ما لإبليس من حقد دفين على الإنسان، وعقدة نفسية تجاه ما أكرمه الله به من المزايا والخصائص، وحكى عن إبليس قوله مخاطباً الذات العلية، وهو يتحرق غيظاً وكمداً من أجل تكريم الله للإنسان: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الآية: ٦٢]. وفي بداية هذا الربع تولى كتاب الله الإعلان عن حقيقة «تكريم الإنسان» بأصرح وأفصح وأقوى بيان، فكان هذا الإعلان الإلهي تحدياً صارخاً لإبليس وحزبه من طغاة بني الإنسان، الذين استبدوا به واستعبدوه قروناً طويلاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرَ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٤٠٧﴾ .

وتكريم الله للإنسان يتجلى في الهيئة الحسنة التي خلقه عليها، وفي الاستعدادات والملكات التي جهّزه بها، وفي النوايس الطبيعية والقوى الكونية التي مكّنه من استخدامها، وفي المشتهيات واللذائذ التي وضعها على مائدته ليتناول منها، كما يتجلى تكريم الله للإنسان في امداده بالرسالات الإلهية المتوالية، للاهتمام بها إلى سعادته الدنيوية والأخروية، إذ أن تكريم الله للإنسان يضاعف مسؤوليته أمام الله، ويفرض عليه الاستجابة لدعوة الله، وإسلام وجهه إلى الله، وابتغاءه في حركاته وسكناته مرضاة الله، وبذلك يقيم الإنسان الدليل على أنه أهل للتكريم، وجدير بما أدخره له الحق سبحانه وتعالى من النعيم المقيم، أما إذا لم يستعمل الإنسان ما أكرمه الله به من الملكات والاستعدادات الاستعمال اللائق، فلم يميّز الخير من الشر، ولا الهدى من الضلال، ولا الحق من الباطل، فإنه لا يستحق تكريماً ولا تفضيلاً، وبعد أن كان في أحسن تقويم يُصبح أسفل سافلين مهاناً ذليلاً، وهذا هو السر في التعقيب على آية التكريم للإنسان بما يفيد اطلاقها، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْمِهِمْ، فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

قال القاضي عبد الجبار في كتابه - تنزيه القرآن عن المطاعن - «ومن ذهل عن تمييز الخير والشر في الدنيا فهو بأن يذهل عن

ذلك في الآخرة أولى، وليس المراد اثبات «العمى» في الحقيقة، بل هو ترغيب في التمسك بالطاعة.

والمراد «بالإمام» هنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْنِهِمْ﴾ إما كتاب أعمالهم، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وبه قال ابن عباس ورجحه ابن كثير، وإما كتابهم الذي أنزل على نبيهم، وبه قال ابن زيد واختاره ابن جرير، ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. والمراد (بالفتيل) هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الخيط المستطيل في شق النواة من التمر، مبالغة في معاملتهم بالعدل إلى أقصى الحدود، بحيث لا ينقص من ثوابهم ولو أقل القليل.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن عصمة الله. لرسوله، والألطف التي حفه بها رغماً عن مساومات المشركين، وتثيته له على الوقوف في وجه كل المحاولات التي حاولوها لتشيته عن النهوض بالدعوة وتبليغ الرسالة، وفي هذا السياق نفسه أشار كتاب الله إلى العقاب الإلهي الصارم الذي يعاقب به كل من تخلى عن الله، وركن إلى أعداء الله، تحذيراً للدعاة إلى الله في هذه الأمة المحمدية من التنازل عن دعوتهم والتفريط فيها، عملاً بآراء فائلة، أو مقابل مصالح زائلة، فقال تعالى مخاطباً لنبيه، وعن طريقه خاطب كل وارث من ورثته من بعده: ﴿وَإِنْ كَادُوا

لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا، وَوَلَا أَنْ تُبَيِّنَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٣٨﴾، والمراد «بضعف الحياة» العذاب المعجل في الدنيا، و«بضعف الممات» العذاب المؤخر إلى الآخرة، أي لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، و«الضعف» بمعنى المضاعف، ومنه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَأْتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الاعراف: ٣٨].

ثم أشار كتاب الله إلى تبرُّم المشركين في مكة بمُقام رسول الله بين أظهرهم، ولا سيما بعد أن أُسقط في أيديهم وفشلوا فشلاً ذريعاً في استدراجه إلى مهادنتهم، الأمر الذي جعلهم يفكرون جدِّياً في اتخاذ قرار بنفيه من مسقط رأسه، لكن الله تعالى عصم رسوله منهم فأوحى إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة، وحالت الهجرة دون أن يخرج مشرعوهم من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ، والحكمة في ذلك والله أعلم أن الله تعالى كان قد قدَّر في سابق علمه وأزله أنهم مهما طال عليهم الأمد فهم لا بُدَّ من الشُّرك خارجون، وفي دين الله داخلون فصرَّفهم الحق سبحانه وتعالى عن إخراج الرسول من أرضه، حفاظاً عليهم إلى اليوم الموعود، يوم فتح مكة المشهود، إذ لو أخرجوه فعلاً لعاقبهم الله على جريمتهم الشنعاء، بالإبادة والفناء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةً مِّن

قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿١٠﴾.

وفي هذا الخِصْم من الصراع بين الحق والباطل وجه الحق سبحانه وتعالى إلى نبيه عدة وصايا وتوجيهات، حتى يمضي في طريقه قُدماً إلى الأمام، دون أدنى تردد ولا إحجام، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا، وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا، وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ، إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وفي هذا الخطاب دعوة من الله لنبيه أن يستعين بإقامة الصلاة على تبليغ الرسالة، وأن يستعين بالدعاء الصالح على أداء الأمانة، ملتزماً الصدق في الدعوة إلى الله حيثما حل وارتحل، سائلاً من الله النصره والتأييد، لدينه الحق الذي هو دين التوحيد. قال قتادة في تفسير قوله تعالى هنا: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: «إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل قوتهم ضعيفهم». وجاء في الأثر - أن الله لَيَزْعُ بالسلطان ما مالا يَزْعُ بالقرآن - أي يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع عنه كثير من الناس، بمجرد موعظة القرآن.

وذهب الإمام مالك إلى أن هذه الآية الكريمة: ﴿أَقِمِ

الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴿ تتضمن الإشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس زيادة على ما ثبت في شأنها من السنة النبوية المتواترة، الفعلية والقولية، وبناء على هذا التفسير يكون قوله تعالى: ﴿ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ متناولاً لصلاتي الظهر والعصر، بناء على أن «دلوك الشمس» هو ميلها، وله أول وهو الزوال، وآخر وهو الغروب، ويكون قوله تعالى: ﴿ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ متناولاً لصلاتي المغرب والعشاء، بناء على أن «غسق الليل» هو ظلمته (ولها ابتداء وانتهاء)، فابتدؤها عند دخول الليل، وانتهائها عند غيوبة الشفق، ويكون قوله تعالى: ﴿ قُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ متناولاً لصلاة الصبح. (والفجر) يعني سيلان الضوء وجريان النور في الأفق، من فجر الماء وفجره إذا أنبطه وفتح له طريقاً للسيلان والجريان. واكتفى بعض المفسرين في تحديد مواقيت الصلاة بما تواتر في شأنها من السنة، من فعل النبي ﷺ وقوله، وقصر هذه الآية من أولها إلى آخرها على موضوع واحد هو «قيام الليل» الذي فرضه الله على رسوله دون أمته، فكان ﷺ يقوم الليل حتى ترم قدماه، وكان ذلك من جملة خصائصه، وفسر «دلوك الشمس» بغروبها فقط، تبعاً لعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وعلي بن أبي طالب، وطبقاً لهذا التفسير تكون الآية متعلقة بالتهجد النبوي لا غير. ومعنى «التهجد» ترك الهجود وهو النوم، للقيام بمناجاة الله والخلوة بذكره في هدوء الليل ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن الكريم ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي زيادة لك خاصة بك دون بقية الناس ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أي افعل ما أمرك به ربك ليقيمك يوم القيامة مقاماً

محموداً تحمدك فيه الخلائق، «فعسى» في هذا السياق تستوجب وقوع ما بعدها، ولا تحتمل الشك مطلقاً.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الذكر الحكيم، فبيّن أنه هو محور الرسالة وعليه المدار، وتحدى بمعجزته الخالدة جميع المتشككين من ملاحدة ومشركين وكفار:

ووضح أولاً أن القرآن الكريم «شفاء» لمن استشفى به من الشاكين، والقلقين المحترارين، و«رحمة» لمن احتفى بحماه من المظلومين، والبؤساء المحرومين، وأنه يحدّ من طغيان الظالمين، ويُعرضهم في الدنيا قبل الآخرة للخسران المبين، إذ قال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وأكد ثانياً أن الإنسان إذا لم تخالط قلبه بشاشة الإيمان، ولم يشف نفسه دواء القرآن، فإن مقاييسه تكون معتلة، وموازينه مختلة، بحيث إذا مسه الخير أصابه الكبر والطغيان، وإذا مسه الشر أصابه اليأس والهوان، إذ قال تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾. ثم عقب على الحالتين الناشئتين عن سلوك هاتين الطريقتين المختلفتين، فقال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي كل واحد يعمل حسب الطريقة التي تُشاكل عقيدته، وتلائم نفسيته، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

وكشف كتاب الله الستار - ثالثاً - عن طبيعة القرآن، المميّزة له عن كل كلام سواه، وأنه رُوح من أمر الله، أوحاه إلى رسوله

ليحيي الناس ويزكيهم، وليعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي أن القرآن من وحي الله وكلامه، لا من كلام البشر ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ .

وتفسير «الروح» في هذه الآية بالقرآن كما أوردناه وارد عن الحسن البصري رضي الله عنه، ويشهد له قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. على أن التفسير الشائع عند الجمهور أن المراد بالروح هنا الروح السارية في الأحياء، وأنها مما استأثر الله بعلمه، قال أبو بكر (ابن العربي): «الروح خلق من خلق الله تعالى إذا أراد العبد إنكارها لم يقدر، لظهور آثارها، وإذا أراد معرفتها وهي بين جنبه لم يستطع، لأنه قصر عنها، وقصر به دونها»، وقال النسفي: «والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، ليُدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز» .

وتحدى كتاب الله - رابعاً - جميع المتشككين في معجزة القرآن، على تعاقب الأزمان، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ - ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ .

الربع الأول من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
 أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ
 تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ
 وَكَانَ إِلَّا نَسْنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ
 بَيِّنَاتٍ فَنَسَىٰ فَسْئَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
 يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ
 وَمَنْ مَعَهُ وَجَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا
 الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾
 وَيَا حَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

وَقُرْءَا أَنَا فَرَقْنَاهُ لِنَتَقَرَّأَهُ، عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦٦﴾
 قُلْ - اٰمِنُوۤا بِهِۦٓ اَوْ لَا تُؤْمِنُوۤا اِنَّ الَّذِيۡنَ اٰوْتُوۡا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٖٓ اِذَا يُتْلٰى
 عَلَيْهِمْ يَخِرُّوۡنَ لِلاَّذْقَانِ سُبْحٰنًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُوۡلُوۡنَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا اِنْ كَانَ
 وَعَدُّ رَبِّنَا لِمَفْعُوۡلًا ﴿١٦٨﴾ وَيَخِرُّوۡنَ لِلاَّذْقَانِ يَبْكُوۡنَ وَيَزِيۡدُهُمُ
 خُشُوۡعًا ﴿١٦٩﴾ هٗ قُلْ اَدْعُوۡا اللّٰهَ اَوْ اَدْعُوۡا الرَّحْمٰنَ اَيُّمَا مَا تَدْعُوۡا فَلَهُ
 الْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلٰتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
 بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيۡلًا ﴿١٧٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيۡ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
 لَهٗ شَرِيۡكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ وِلىُّۢمِّنْ اَدۡلٍ وَّكَبِيۡرُهٗ تَكْبِيۡرًا ﴿١٧١﴾

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيۡمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيۡ اَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهٖ الْكِتٰبَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهٗ وِعَاجًا ﴿١﴾
 قِيۡمًا لِّيُنذِرَۤا بِاَسَاۡ شَدِيۡدٍ اَمِّنۡ لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِيۡنَ الَّذِيۡنَ يَعْمَلُوۡنَ
 الصّٰلِحٰتِ اَنَّ لَهُمُ وَاۡجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّا كُنۡتِ فِيۡهِ اَبَدًا ﴿٣﴾
 وَيُنذِرَ الَّذِيۡنَ قَالُوۡا اٰتٰنَا اللّٰهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمۡ بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ
 وَلَا اِلٰۤا بِاَبۡهِيۡمٍ كَبُرَتۡ كَلِمَةٌ تَخْرُجُۢمِنۡ اَفْوَاهِهِمْ وَاِنۡ يَقُوۡلُوۡنَ
 اِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌۢ نَّفْسَكَ عَلٰىۤ اٰثَرِهِمْ وَاِنۡ لَّمۡ يُؤْمِنُوۡا
 بِهٰذَا الْحَدِيۡثِ اَسْفًا ﴿٦﴾ اِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلٰى الْاَرْضِ زِيۡنَةً لِّهَا

لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
مُجْرَزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا
مِنَ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا
ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا
عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ
أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ مَخْنُوعَةً لِّعَلَّكَ نَبَّأَهُم
بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِي نَفْسِكَ نَبَّأَهُم
وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ أَشْطَطَّا ﴿١٤﴾
هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَٰلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ
بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ابْتَلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِذْ قَالَا اتَّخَذْتُمَا آلِهَةً مَعِيَ
وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ يَا أَبَتِ إِنَّكَ أَعْتَبْتَنِي إِلهًا مِّمَّنْ عٰبَدْتَ أَنتَ لَمَّا كَانَتِ
سَاعَةً أَمْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾

الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الاسراء المكية: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الكهف المكية أيضاً: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الكرة على منكري البعث، ليقيم عليهم حجة أخرى لا تدع لعنادهم سبيلاً، فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ إذ ما هي نسبة الإنسان إلى بقية الأكوان؟

وبديهي أن من قدر على خلق «ما هو أكبر» لا يعجز عن خلق «ما هو أصغر»، ومن أنشأ «النشأة الأولى» لا يعجز عن أن ينشئ «النشأة الثانية»، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله

تعالى في آية ثانية: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ خَلْقُهُمْ إِنَّمَا بَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿أَو لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وانتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة كونية، والكشف عن حكمة إلهية، في شأن ما احتفظ به من خزائن الأرزاق، وما وضعه بين أيدي الناس من وسائل الإنفاق، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ، خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾. ثم تحدث كتاب الله عن ميل الإنسان إلى التقتير على أخيه الإنسان، فقال: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾، ومثل هذا المعنى وارد في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] وحتى لا يستبد إنسان بإنسان، فيصبح ضحية البؤس والحرمان، أبقى الحق سبحانه وتعالى خزائن رحمته بيده، ولم ييخل منها على أي إنسان بمدده ﴿كُلًّا نُمِدُّ، هَهُنَا وَهَهُنَا وَمِنْ هُنَا لَمِنَ الْوَعْدِ، وَمَا كَانَ عِطَاءَ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

وبين كتاب الله في ثنايا هذه الآية نفسها أن ما طُبِعَ عليه الإنسان من الهلع والجزع، والخوف من سوء العاقبة وهول المصير، هو الذي يدفعه إلى الإمساك وعدم الإنفاق والشح والتقتير، وأحسن ما يفسر قوله تعالى هنا في وصف الإنسان بوجه عام: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ قوله تعالى في آيات أخرى: ﴿إِنَّ

الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مُنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿
[المعارج: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣] فهؤلاء بفضل التربية
الدينية التي هدّبت نفوسهم، ووصلت بالله أرواحهم، يوجودون
بالنفس والمال، ولا يتأخرون عن وجوه الربّ أي حال.

وتحدث كتاب الله مرة أخرى في سورة الاسراء هذه
- والاسراء كما هو معلوم كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد
الأقصى بالقدس - عن قصة موسى وفرعون، وعلاقة بني إسرائيل
بتلك القصة، وأشار إلى «الآيات التسع» وهي المعجزات والنُّدُر
التي شاهدها فرعون وقومه، فضاقوا بها ذرعاً، دون أن يُدْعِنُوا لها
فيعترفوا بنبوة موسى ويستجيبوا لدعوته، وإلى ذلك يشير قوله
تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ - آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، وهذه
الآيات التسع الواردة هنا جاءت الإشارة إليها مرة ثانية في قوله
تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ
غَيْرِ سَوَاءٍ، فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾ [الآية: ١٢]، وفصلها كتاب الله في سورة الأعراف،
فذكر الأولى والثانية منها في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾
[الآيتان: ١٠٧، ١٠٨]، وذكر الثالثة والرابعة منها في قوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الآية: ١٣٠]، وذكر الخمس الباقية لتمام
الآيات التسع في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقَمَلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَّ ءَايَتٍ مُّفَصَّلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿ [الآية : ١٣٣] .

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي قلنا لموسى: اطلب من فرعون أن يرسل معك بني إسرائيل ﴿ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أي قلنا له ذلك حين جاءهم ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ - ﴿ قَالَ ﴾ أي قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ ﴾ يشير إلى الآيات التسع ﴿ الْأَرْبَعُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ ﴾ أي أنزلها حججاً دالة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ أي هالكاً، وكان موسى أراد أن يقول لفرعون: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مسحوراً ﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي فرعون ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ [الآية : ١٠٣] .

وقوله تعالى هنا في هذا السياق خطاباً لبني إسرائيل: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ يظهر أن له ارتباطاً وثيقاً وشبهاً كبيراً بما سبق في أول هذه السورة نفسها، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾، ثم فسر كتاب الله في نفس السياق المرة الأولى بقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا ﴾ [الآية : ٥]، وفسر المرة الثانية بعدها في نفس السياق بقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُؤُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [الآية : ٧] . وهكذا يكون لفظ (الآخرة) في الموضعين معاً هنا وهناك بمعنى المرة الثانية، ويكون معنى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي المرة

الثانية، لا بمعنى القيامة والدار الآخرة كما فسرها البعض هنا بالخصوص. وكلمة (لَيفِيًّا) الواردة في قوله تعالى هنا: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَيفِيًّا﴾ يراد بها في اللغة الجماعات المتممة إلى أصول مختلفة، والأخلاق من الناس، وهذا المعنى أصبح لاصقاً باليهود منذ حلَّ بهم عهد الجلاء، وتفرقوا في البلاد للابتلاء.

وانتقلت الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن معجزة القرآن، فتحدثت أولاً عن طابع القرآن وفحواه، ثم بيّنت الحكمة في نزوله منجماً على دفعات، لا دفعة واحدة، وأخيراً وصفت ودعه في نفوس المومنين، الذين اطلعوا على البشارة به في كتبهم قبل نزوله، فلما أدركوا نزوله تحققوا بوعد الله، وآمنوا به إيماناً لا يرقى إليه أدنى شك:

فإلى المعنى الأول يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي أنزلناه متضمناً للحق، إنشاءً وأخباراً، أمراً ونهياً، بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ فهو خالص من الشوائب، معصوم من التبديل والتغيير، والزيادة والنقص، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [الآيتان: ٤١، ٤٢].

وإلى المعنى الثاني يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، ولفظ (فرقناه) قرىء بتخفيف الراء، فيكون معناه: فرقنا فيه الحق من الباطل، وميَّزنا أحدهما عن الآخر، حتى لا يختلط على أحد الهدى

بالضلال، وقرىء بتشديد الراء، فيكون معناه: أنزلناه متفرقاً آية آية، ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على تُوْدَة ومَهْل، وقد استمر نزوله مدة ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لطريقة التدرج، بالنسبة لعملية التحول والتطور التي يتوخاها الإسلام، حتى يتمكن الرسول والمؤمنون شيئاً فشيئاً من حفظ مبانيه، واستيعاب معانيه، وحتى يَكَيَّفُوا حياتهم الخاصة والعامة مرحلة فمرحلة، بمقتضى أوامره ونواهيه، وبمرور الأيام يتعمقون في فهم جزئياته ووكلياته، ويلمُّون بأسباب نزوله وملايساته، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الآية: ٣٢].

وإلى المعنى الثالث يشير قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، وهذه الآية تصف فئة صالحة من أتباع المسيحية واليهودية عاشت إلى أن أدركت الإسلام، فسارعت إلى الدخول في دين الله، اعتماداً على ما تناقلته من البشارة برسول الله، وحسن إسلامها، فكانت تَخِرُّ على وجهها خاشعة باكية كلما تلي عليها القرآن، وتسبح لله الذي صدقها وعده، وأنعم عليها بنعمة الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ خطابٌ من الله تعالى للرسول والمؤمنين يتضمن وصف الكيفية المستحسنة للقراءة أثناء الصلاة، عندما يكون المصلي في حالة جهر. جاء عن محمد بن سيرين أنه قال: «نُبِّتُ

أن أبا بكر كان إذا صلى فقراً يَخْفِضُ صوته، وأن عمر كان إذا صلى فقراً يرفعُ صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أناجي ربي عز وجل، وقد علم حاجتي، وأنا أسمع من أناجي. وقيل لعمر: لِمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أطرُدُ الشيطان، وأوقظ الوَسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقيل لعمر: اخفض قليلاً. وعلى هذا التفسير يكون لفظ (الصلاة) هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ مقصوداً به القراءة فيها، كما أُطلق لفظ (القرآن) وقُصِدَ به نفسُ الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

وكما ازدانت فاتحة سورة الاسراء بتسبيح الله وتمجيده، تُوِّجَتْ خاتمتها بحمد الله وتوحيده، فقال تعالى في ختامها خطاباً لنبيه وتلقيناً للمومنين: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا، وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾، قال النَّسْفِيُّ في تفسيره: «كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية، وكان يسميها (آية العز)».

والآن فلنتقل بعون الله إلى سورة الكهف المكية أيضاً، وإنما عرفت هذه السورة باسم «سورة الكهف» أخذاً من كلمة (الكهف) الواردة في الآيات التالية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ - ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ - ﴿فَأُورُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ - ﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ - ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾

[الآيات : ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥] .

وأصحاب الكهف الذين وردت قصتهم في مطلع هذه السورة هم مجموعة من الشباب الصالح اعتنقوا الإيمان بالله ديناً، والاستقامة سلوكاً، والثبات طريقاً، وفارقوا الأهل والعشيرة في سبيل الحفاظ على عقيدتهم التي كانت عندهم أعز من كل عزيز، وأحسن وصف ورد في شأنهم هو قول الله تعالى في هذه السورة عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ - آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَئِنَّا لَدَّخَلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ [الآيتان : ١٣ ، ١٤] .

وفي بداية هذه السورة امتنان من الله على عباده المومنين، بنزول الكتاب المبين، وتلقين لهم كيف يُثنون عليه ويحمدونه، شكراً له على نعمة إنزال القرآن، الذي هو دستور الإسلام وميثاق الإيمان، فقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قِيَمًا ﴾ . وقوله ﴿ قِيَمًا ﴾ أي مستقيماً، راجع إلى الكتاب، فهو في المعنى مقدم، وإن كان في اللفظ مؤخرًا، والمعنى المقصود من الآية: - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قِيَمًا، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا - وتأخير المقدم وتقديم المؤخر في الذكر أحياناً أمر متعارف في اللسان العربي، والمراد «بنفي العوج» عن القرآن في هذه الآية نفي الاختلاف والتناقض والتعارض عن مبانيه ومعانيه، وإثبات الاستقامة والحكمة والصواب لجميع أحكامه ومراميه .

ويجوز أن يكون قوله تعالى هنا: ﴿ قِيَمًا ﴾ بمعنى أنه

مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة، ومهيمن عليها، على حد قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [الآية: ٤٨]، وطبقاً لهذا التفسير يكون لفظ (قِيَمًا) مشتقاً من (قام) للأمر إذا تولاه، أو (قام) على أهله إذا تولى أمرهم، ومنه (القيِّم) على المحجور، أي الذي يتولى أمره، و(قيِّم القوم) أي الذي يقوم بشأنهم ويسوس أمرهم، ولا شك أن كتاب الله قيِّم على غيره من الكتب السابقة واللاحقة.

وتحدث كتاب الله عن رسالة القرآن، وأنها بشارة وندارة لعموم الإنسان، كما تحدث عن «زينة الأرض» التي هي اختبار لميوله وامتحان، فقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهِ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الآية: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فمن أحسن العمل كانت له الحُسنى وزيادة، ومن أساء الاستعمال كان من أهل الشقاوة لا من أهل السعادة.

الربع الثاني من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمُهْتَدٍ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ
تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسِبُهُمْ وَاقِفًا وَأَهُمْ رُقُودٌ
وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ
ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا
لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ
فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ
أَيُّهَا أَرْبَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ

وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۖ ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
 أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۖ ﴿١٧﴾
 وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
 السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا
 ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ أُعْلِمْتُمْ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا
 عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ
 رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
 بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ
 بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ وَلَا مِرَاءَ
 ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ
 إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا
 نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَنِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا
 رَشَدًا ۖ ﴿٢٤﴾ وَلَيْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا
 تِسْعًا ۖ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا لَهُ وَغِيبُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ قَوْلٍ
 وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ

كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ ۗ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٧
 وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
 يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا ۗ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
 أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ
 فَلْيُكْفُرْ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
 وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۗ بئسَ الشَّرَابُ
 وَسَاءَتِ مُرْتَفَقًا ۝٢٩

الربع الثاني من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ، ذَلِكَ مِنْ - آيَةِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

في هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن «الفتية» الذين اهدتوا وأمنوا واعتزلوا قومهم وما يعبدونه من دون الله، فأووا إلى أحد الكهوف الخالية، فارين بدينهم من الفتنة والأذى، وبعد أن وصف كتاب الله في الربع الماضي ما كانوا عليه من إيمان راسخ بالله، واستنكار بالغ لمعتقدات الشرك والوثنية التي كان عليها قومهم ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَنٍ بَيِّنٍ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ جاءت آيات هذا الربع توضح عناصر جديدة، من هذه القصة الفريدة:

- العنصر الأول يتعلق بنومهم في الكهف على صورة جعلتهم عبرة للمعتبرين عبر القرون والأجيال، فقد شاءت حكمة الله أن تبقى أعينهم مُفَتَّحة لا تنطبق أجفانها طيلة نومهم الطويل، وأن تتقلب جنوبهم كما يتقلب الأحياء، حتى لا تبقى جنوبهم على وضع واحد فيصيب أجسامهم البلى والتلف، ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطاً وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾. وشاءت حكمة الله أن يستقر كلبهم على مدخل الكهف، باسطاً ذراعيه، على هيئة أي كلب حي يقوم بالحراسة العادية أمام منزل صاحبه ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي بالفناء أو بالعتبة، وشاءت حكمة الله أن تمر الشمس بكهفهم مر الكرام، فلا تسلط أشعتها القوية على جثثهم الهامدة، لا عند الشروق ولا عند الغروب، وذلك حتى لا يلحقها أي تغيير ولا تلف ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي تتحنى عنه وتميل ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ أي تمر بشمال الكهف، مائلة عنهم، وشاءت حكمة الله أن يكون نومهم في مكان متسع من الكهف، حتى تبقى جثثهم معرضة للهواء الطلق ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ، ذَلِكَ مِنْ - آيَةِ اللَّهِ﴾.

- العنصر الثاني يتعلق ببعثهم من مرقدهم بعد مرور عدة قرون على اعتزالهم في الكهف ونومهم الطويل فيه، فقد شاءت حكمة الله أن يوقظهم وبعثهم ليروا بأنفسهم غلبة الحق على الباطل، وهزيمة الشرك أمام التوحيد، ولتقوم لهم الحجة على أن الحق الذي آمنوا به هو الذي ظهر وانتصر في مدينتهم وبين

قومهم، وأن العاقبة للمتقين مهما طال الأمر، وبمجرد ما بعثهم الله أخذوا يتساءلون فيما بينهم عن المدة التي قضوها في الكهف، وانقسموا في تقديرها إلى فريقين، وعندما لم يهتدوا إلى جواب حاسم في الموضوع وکلوا أمر ذلك إلى علم الله، ونظراً لإحساسهم بالجوع المفرط فقد فكروا في أن يبعثوا أحدهم بما كان قد بقي معهم من النقود إلى المدينة التي اعتزلوها من قبل، ليشتري لهم منها طعاماً طيباً يسدُّون به الرمق، لكنهم أشاروا على مبعوثهم في نفس الوقت أن يحذر ما أمكن من سكان المدينة حتى لا يشعر به أحد، ظناً منهم أن مدينتهم التي اعتزلوها من أجل الشرك لا تزال على ما فارقوها عليه، وأن أهلها لا يزالون متمسكين بعبادة الأصنام، وخوفاً من أن أهلها إذا عرفوهم قتلوهم رجماً بالحجارة، أو أكرهوهم على العودة إلى معتقداتهم الباطلة بدلاً من عقيدة التوحيد، وفي ذلك الخسران المبين، وإلى هذا العنصر الثاني يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي وكما أنماهم تلك النومة الطويلة أيقظناهم، فأخذ بعضهم يسأل بعضاً عما صنع الله بهم: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيَّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ، وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا، إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾. وسبق في الربع الماضي قوله تعالى مشيراً إلى هذا العنصر، وهو بعثهم من مرقدهم، إذ قال تعالى: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي ضربنا على آذانهم حجاباً من النوم

العميق لا يسمعون معه أي صوت ولا صدى لأقل حركة ﴿سِينِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ﴾ أي أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي ليتبين أي الفريقين أعرفُ بالمدة التي قضاها في الكهف وهم نائمون، و«التلطف» حسن التخلق، وجميل الترفق.

- العنصر الثالث يتعلق بعثور الأجيال التالية على أجسادهم محفوظةً من كل تغيير، وذلك بعد مرور مدة طويلة على بعثهم من مرقدهم، فقد شاءت حكمة الله أن يُمكن الأجيال التالية من العثور على أجسادهم، ليتأكد الذين عثروا عليهم من أن البعث الذي وعدهم الله به حق وصدق، نظراً لأن حال أهل الكهف في نومهم الطويل، ثم انتباههم منه بعد عدة قرون، شبيه كل الشبه بحال من يموت ثم يبعث. وبمناسبة العثور عليهم افترق الناس في أمرهم، واقترح فريق أن يُبنى على باب كهفهم مبنى أثري تذكاري، بينما اقترح فريق آخر أن يُبنى على مدخل كهفهم مسجد خاص لعبادة الله، وهذا الاقتراح الثاني هو الذي رجحت كفته، وإلى هذا العنصر الثالث يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطلعنا عليهم من بعدهم من الناس ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أي ليعلم الذين عثروا عليهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا، إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

- العنصر الرابع يتعلق بعدد أصحاب الكهف، ودون

الإستناد إلى سَنَدٍ صحيحٍ وُجِدَ من قال: إنهم ثلاثة، وكلبهم الحارس لهم هو الرابع، ووُجِدَ من قال: إنهم خمسة، وكلبهم هو السادس، ووُجِدَ من قال: إنهم سبعة، وكلبهم هو الثامن، وكتاب الله يَكِلُ علم عددهم الحقيقي في النهاية إلى عِلْمِ الغيوب، وإن كان لا يَنْفِي أن يُعْرَفَ بعضُ الأصفياء من خلقه بعددهم على وجه التحقيق، وبهذه المناسبة يحضُّ كتاب الله نبيه الأمين، وعن طريقه كافة المومنين، على الاكتفاء بما ورد عنهم في كتاب الله، وعدم المماراة في شأنهم، وينهاه عن استفتاء أهل الكتاب في أمرهم، وإلى هذا العنصر الرابع يشير قوله تعالى هنا:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

- العنصر الخامس يتعلق بعدد السنين التي مرَّت على أصحاب الكهف وهم رُقود قبل أن يعثهم الله من مرقدهم، ويتعرَّفوا على ما آل إليه أمر مدينتهم من الصلاح بعد الفساد، والإيمان بعد الشرك، وفي هذا الصدد نجد كتاب الله في الربع الماضي لا يحدد أيَّ عدد مخصوص، بل يقول: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عِزَابِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ، ونجد كتاب الله في هذا الربع يصف حيرة أصحاب الكهف أنفسهم بعد أن بعثهم الله من مرقدهم، وعدم اتفاقهم على مدة محدودة لبقائهم داخل الكهف، ويتحدث عن تسليمهم الأمر في تحديدها إلى علم الله فيقول:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ . ثم نجد كتاب الله في هذا الربع أيضاً يشير إلى مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولعل هذا التحديد مما كانت تتداوله بعض الألسنة ، ولا سيما بين أهل الكتاب ، لكن كتاب الله يعقّب على هذا العدد نفسه ، بعد ذكره مباشرة ، بما يفيد أن الله وحده هو الذي يعلم مدة مكثهم بالكهف على وجه التحديد ، وأنه سبحانه هو المنفرد بعلم الغيب دون سواه ، وفي هذا التعقيب إشارة واضحة إلى أن العدد الوارد من قبل ليس هو العدد الحقيقي الذي يتفق مع الواقع ، وإنما أتى به كتاب الله على سبيل الحكاية المجردة ، لا على سبيل التأكيد والتصديق والإثبات القاطع ، وكما ردّ كتاب الله العلم بعدة أصحاب الكهف أنفسهم إلى الله وحده ردّ العلم بعدة السنين التي قضوها في الكهف إلى الله وحده دون سواه ، وإلى العدد المذكور يشير قوله تعالى هنا : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ ، ثم يستدرك عليه قائلاً : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ ، مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ . ويؤيد هذا التفسير الذي اخترناه ما ذهب إليه قتادة ومطرف بن عبد الله من أن العدد المشار إليه هنا هو قول أهل الكتاب ، وأن الله تعالى رد قولهم بقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ [الآية : ٢٦] .

- العنصر السادس يتعلق بما ألقى الله على أجسادهم من المهابة والجلال ، حتى يُحوّل بينهم وبين كل متطفل يحاول أن

يُمدُّ اليد إليهم، بما لا يتفق مع حكمة الله ومراده، وحتى يبقوا بمنجاة من عبث العابثين، إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وتتحقق العبرة من قصة نومهم ويقظتهم، التي لها شبه قوي بموت الموتى وبعثهم، وإلى هذا العنصر السادس يشير قوله تعالى، مخاطباً لكل من يتخيل نفسه واقفاً أمامهم في كهفهم، فيحسبهم أيقاظاً وهم رقاد ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمَلَّتْ مِنْهُمْ رُعباً﴾.

وتخللت قصة أهل الكهف التي هي محور التدبير والاعتبار في هذا الربع جملة من الآيات الكريمة، تؤكد عدداً من مبادئ الإسلام القويمة، وتوجيهاته السليمة.

- منها أن من انتفع بالهدى الإلهي كالهدى الذي تضمنه كتاب الله دخل في زمرة المهتدين، ومن أعرض عنه ولم ينتفع به بقي في عداد الضالين، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾، ويندرج تحت هذه الآية أصحاب الكهف أنفسهم، الذين سبق أن وصفهم كتاب الله قائلاً: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ - آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنْهُمْ هُدًى﴾.

- ومنها أن من عزم على فعل أمر من الأمور لا بد أن يربط قوله ويعلق فعله على مشيئة الله، لأنه لا يستغني في أية لحظة من اللحظات عن استمداد العون والتوفيق من الله، وهذا الموقف يجعله في أمن من أن يكون كاذباً، لأن تعليق كلامه بالمشيئة يخرج عنه أن يكون خبراً قاطعاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

- ومنها أن من تعرض للخطأ والنسيان فأخطأه التوفيق والتسديد، عليه أن يتدارك ما فاته بالتماس الهداية من ربه من جديد، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ، وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، أي عسى أن يهديني لشيء آخر أنفع وأقوم من الأول.

- ومنها أن من تحمّل مسؤولية الدعوة إلى الله يجب عليه أن لا يتخلى عنها، وأن يواصلها دون انقطاع، وأن يؤثر بها من عندهم حرص كبير على تلقيها، واستعداد خاص لقبولها، وأن يسقط من حسابه في هذا المجال الاعتبارات الجانبية والمظاهر المادية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي ملجأ آخر تلجأ إليه ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنُكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وختّمت آيات هذا الربع بالدعوة إلى وجوب الثبات على الحق والتمسك به دون هواده ولا لين، في وجه الغافلين والمتنطعين، وأتباع الأهواء الظالمين، فقال تعالى خطاباً لنبيه، وعن طريقه لجميع ورثته وحملة الدعوة الإسلامية من بعده: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوِيَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي مجاوزاً للحق ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

الربع الثالث من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
 أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ يُكَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا
 خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
 نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَاصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
 جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
 بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ
 شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
 وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
 وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
 أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ

خَيْرًا مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ وَصَحْبُهُ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ، أَكْفَرْتَ
 بِالذِّمَّةِ خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَبَّوْكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
 لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
 جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ
 مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
 عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
 مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ، طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ، فَأَصْبَحَ
 يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
 يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ، فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ،
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ
 خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
 هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
 الْمَالُ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ
 عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ
 بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَىٰ

رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ
 لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكُتُبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
 فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً
 وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْتَهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ
 رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

في الربع الماضي أوصى كتاب الله رسوله وورثته من حملة الدعوة الإسلامية بأن يؤثروا بعنايتهم من عندهم حرص على تلقي الدعوة، واستعداد لقبولها، وأن لا يُعيروا أي اهتمام للاعتبارات الجانية والمظاهر المادية، إذ قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنُكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وانساقاً مع نفس المبدأ، وسيراً في نفس الاتجاه جاء في حصّة هذا اليوم قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية: ٤٥].

- أما المثل الأول الذي جاء في هذا الربع فقد تضمنت

آياته البينات محاوراة بين رجلين، أحدهما مومن بالله وباليوم الآخر، شاكراً لأنعمه، قانع بما أعطاه مولاه، وثانيهما متمرد على الله، كافرٌ بأنعمه وباليوم الآخر، لا حد لمطامعه وما يتمناه، وكل منهما ينطق لسانه في هذه المحاوراة بما يُوضِّح اتجاهه ومنحاه.

والظاهر من سياق هذه الآيات وما بين السطور أن الرجلين كان يملك كل منهما مزرعة منسقة من المزارع الفيحاء، ذات الحدائق الغناء، التي يُضرب بها المثل، في المياه الجارية، والأشجار الباسقة، والثمار الشهية، ثم اضطر أحدهما للتخلي عن مزرعته، فباعها للآخر، بُغية الوفاء بالتزامات كانت في ذمته، وهكذا آلت إحدى المزرعتين إلى الثاني، فأصبحت المزرعتان معاً «جنة واحدة» في ملكه، بينما الآخر أصبح لا يملك شيئاً ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا، وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾، غير أن الثاني الذي اتسعت دائرة ملكه زاده ذلك طغياناً وعدواناً، فأخذ يتبجح على رفيقه بسعة المال وكثرة الولد، واطمأن إلى أن مزرعته الكبرى أصبحت في مأمن من جميع الجوائح، وأعلن شكّه في قيام الساعة نفسها، ثم عقّب على شكّه بأنه حتى على فرض قيام الساعة سيكون محظوظاً في الآخرة كما هو محظوظ في الدنيا، كأنه مفروض على الله أن يُملي له باستمرار، ناسياً قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، وإلى هذا الموقف يشير

قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنْقَلَبًا ﴾، وحيث إن هذا الشخص وأمثاله من الكافرين بنعمة الله، والمكذابين بلقائه، لا يُنتظر أن يكون له نصيب في «جنة الخلد» قال كتاب الله في شأنه «ودخل جنته»، أي دخل جنته التي في دنياه، إشارة إلى أن المزرعة الكبرى التي يتبجح بها ويتكبر هي جنته الأولى والأخيرة ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

لكن صاحبه لم يلبث أن رد عليه قوله، مستنكراً ما فاه به من عبارات كلُّها كفر بالله، وتناول على الله، واعتماد كلي على المال والولد، مذكراً إياه بقدرته الله التي يسرت له أسباب الرخاء والازدهار، وبقوة الله التي بيدها تصريف مجاري الأقدار، بحيث لا يصعب عليها تحويل الموقع الخصب إلى موقع جدد، ولا تحويل مجرى الماء عن المكان الذي فيه الزرع، إلى مكان سحيق لا زرع فيه ولا نبات، فتقلب المزرعة الفيحاء إلى أرض بَلَقَع هي عبارة عن خلاء وعراء، وإلى هذا الجواب الذي يعتبر في مثل هذا الباب، هو فصل الخطاب، يشير قوله تعالى هنا: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيَكَ رَجُلًا، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقاتلتك، بل أعترف بأنه هو الله ربي ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِنَّ

تَرَنَ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُوتِينَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١﴾ أَي صَاعِقَةً أَوْ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ ﴿٢﴾ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣﴾ أَي أَرْضًا مَلْسَاءَ لَا يَنْبِت فِيهَا نَبَاتٌ، وَلَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا قَدَمٌ ﴿٤﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا ﴿٥﴾ أَي غَائِرًا وَغَائِبًا فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ ﴿٦﴾ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴿٧﴾ أَي لَنْ تَسْتَطِيعَ الْحَصُولَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى غَيْرِهِ بَدَلًا مِنْهُ، لِأَنَّ الْمَاءَ «الغائر» يَطْلُبُ أَسْفَلَ الْأَرْضِ، عَلَى عَكْسِ الْمَاءِ «الْمَعِين» الَّذِي يَطْلُبُ وَجْهَ الْأَرْضِ.

وقوله تعالى هنا ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قال أبو عبيد:
الأصل لكن أنا، فحذفت الألف، فالتقت نونان، فجاء التشديد لذلك، وفي قراءة أبي ﴿لَكِن أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾.

ومضت الآيات الكريمة في استعراض ما آل إليه أمر المزرعتين، مبيِّنةً أن ما توقعه الرجل المومن لهما، وما تنبأ به لصاحبهما عن مصيرهما - نظراً لكفره وعدم شكره، وغروره وكبره - لم يلبث أن أصبح هو الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، إذ المومن ينظر بنور الله، وحينئذٍ ندم صاحبهما على كفره دون أن ينفعه الندم، وذاق من مرارة الخيبة والإفلاس أشد الألم، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي هلك كل ما كان في مزرعته من الثمار، يقال: أحاط به العدو إذا أهلكه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهَ﴾ أي يضرب إحداهما على الأخرى ندمًا وتحسراً ﴿عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي من مال وجهد ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي

أحداً، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ أي لم يجد من يدفع عنه عذاب الله، ولم ينفعه ما كان يفتخر به على صاحبه من المال والولد ﴿١١﴾ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴿١٢﴾ .

وفي أعقاب هذه المحاورة وما تضمنته من مواقف تدعو إلى التأمل والاعتبار أكد كتاب الله أن الملجأ الوحيد الذي ينبغي الإلتجاء إليه، والركن الركين الذي ينبغي الإعتماد عليه، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والدنيا والآخرة، هو الحق سبحانه وتعالى، فهو ولي من والاه، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ ﴿١٣﴾ فعاقبة من آمن به وتوكل عليه عاقبة خير ونصر ﴿١٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٥﴾ [محمد: ١١].

و«الولاية» بالفتح النصر والتولي، وبالكسر الحكم والملك، وقال أبو عبيد: «الولاية بفتح الواو للخالق، وبكسرهما للمخلوق» وكلمة (الحق) هنا بخفض القاف نعت لله عز وجل، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيَهُمْ الْحَقِّ﴾ ﴿١٦﴾ [الانعام: ٦٢].

- وأما المثل الثاني الذي ورد في هذا الربع فهو يتضمن تشبيه حال الدنيا في نضارتها وبهجتها وما يعتورها من هلاك وفناء - بالنسبة لحياة كل فرد في حد ذاته، وبالنسبة لحياة النوع البشري على العموم - بحال النبات الذي يستمد غذاءه من الماء، فينمو ويتدعرع، ويصبح أخضر يانعاً تعلوه الأزهار، وتزيئنه الثمار، ثم يميل نجمه إلى الأفول، ويحلُّ به اليبس والذبول، وهذا

المعنى هو الذي يتضمنه قوله تعالى هنا: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي يابساً ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ أي تنسفه وتطرحة ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي مقتدرًا على الخلق والإنشاء، كما هو مقتدر على الإبادة والإفناء، والقصد من ضرب هذا المثل هو الحض على العمل الصالح الذي ينفع في الدارين معاً.

وإزالة لكل لبس فيما يخص موقف الإسلام من الاستمتاع بالطيبات، وتناول ما هو مشروع من المملكات، عقب كتاب الله على هذا المثل مباشرة، فقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [الآية: ١٤]. وبذلك أكد الإسلام قيمة المال والولد بالنسبة لحياة الأفراد، وما ينال حياتهم من كمال بوجودهما، ومن نقص بفقدتهما، منبهاً في نفس الوقت إلى أن اهتمام الأفراد يجب أن يتجه إلى الجانب الأنفع والأدوم والأبقى من الإثنين، كإيقاف الصدقة الجارية التي لا ينقطع نفعها بعد الموت، وكتربية الولد الصالح الذي يواصل سيرة والده الصالحة، فيجلب له الدعاء والثناء، بحيث لا يقتصر من آتاه الله المال والولد على الانتفاع بهما انتفاعاً أنانياً وشخصياً

محدوداً، خالياً من نفع الغير، ناسياً حقوق الله وحقوق الخلق، وقد قال عليه السلام: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». فالمذموم إذن ليس هو كسب المال ولا إنجاب الولد، وإنما هو تسخيرهما لما ليس فيه رضا الله، ولما لا منفعة فيه لعيال الله، قال القرطبي في تفسيره: «وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا».

أما ﴿الْبَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ﴾ فمن جملة ما روى في تفسيرها قول ابن عباس رضي الله عنه: «أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة»، وإلى مثل هذا القول ذهب عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إذ قال: «هي الأعمال الصالحة كلها»، واختاره ابن جرير الطبري، وقال القرطبي: «إنه هو الصحيح إن شاء الله، لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا». وهكذا تدرج في «البقيات الصالحات» وتكون جزءاً منها نفس الصلوات الخمس، والأذكار المأثور فضلها، وهي «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» مما خرجه مالك في الموطأ والنسائي والترمذي وابن ماجه في السنن. ويشهد لتفسير (البقيات الصالحات) بالمعنى العام الذي أوردناه قوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية»، فهذه الأمور الثلاثة كلها بمقتضى الحديث الشريف «صالحات باقيات»، لأنها أعمال خير تبقى ثمرتها

للإنسان، ولا تنقطع بالموت، ويصدق عليها أنها (خير ثواباً وخير أملاً) ﴿، وقد أعاد كتاب الله الحديث عن الباقيات الصالحات في سورة مريم، فقال تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّلِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ [الآية : ٧٦] .

وكما أنهى كتاب الله الربع الماضي بوصف الجزاء الذي يلقاه الكافرون في جهنم إذ قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وختمه بقوله: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ خصص بداية هذا الربع لوصف الجزاء الذي يلقاه المومنون في الجنة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وختم وصف جزائهم بقوله: ﴿نِعَمَ الثَّوَابُ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ .

وفي نهاية هذا الربع ركز كتاب الله الحديث حول قيام الساعة وما يرافقها من أهوال وأحوال، بما فيها النشر والحشر والعرض والحساب، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي قاعاً صنفصفاً وسطحاً مستويًا، فلا بنيان ولا شجر، ولا جبل ولا وادي، وإنما هو الانقلاب الشامل، ﴿وَحَشَرْنَهُمْ﴾ أي قبل تسيير الجبال، ليشاهدوا تلك الأهوال ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي يعرضون صفًا وراء صف، دون اختلاط ولا اختلال، أمة تتلوها أمة، وزمرة تتلوها زمرة، كما فسر ذلك مقاتل، فمن أعلن أنه من أهل الخير كان سروره بمعرفة الناس بحاله أعظم، لوقوف الخلائق على حقيقة أمره، ومن أعلن أنه من أهل الشر كان غمه بمعرفة الناس

بحاله أعظم، لوقوف الخلائق على جليّة سره، ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي قلنا لهم ذلك ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فرادى عرّاة حفاة لا مال معكم ولا ولد، على غرار قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الآية: ٩٤]، وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْتُهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [الآية: ٩٥]. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاةَ عِرَاةٍ غُرْلًا» أي غير مختونين.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ هذا خطاب لمنكري البعث من المشركين والملحدين ومن على شاكلتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ المراد «بالكتاب» كتاب الأعمال وسجلّ الحساب الخاص بها، والمراد «بالإشفاق» الفزع والجزع الذي يصيب المجرمين من جرّاء الجرائم المسجلة عليهم ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّاتُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي من المعاصي ﴿إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا﴾، وهذه الآية دليل على أن المرء يؤخذ بالصغائر والكبائر، الصغائر إذا أصر عليها، والكبائر إذا لم يتب منها.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي وجدوا احصاء ما عملوا وجزاءه حاضراً، على غرار قوله تعالى في سورة

ءال عمران: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا يعذب أحداً بغير جرم، ولا يؤاخذ أحداً بجرم آخر، كما أنه سبحانه لا ينقص طائعاً من ثوابه، ولا يزيد عاصياً في عقابه، وبمثل هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦] .

الربع الأخير من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ
وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ
بَدَلًا ﴿٥٦﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا
خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥٧﴾
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا ﴿٥٨﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٩﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٦٠﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ

سُتَّةُ الْوَالِينَ أَوْ بَيْنَهُمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَطْلِ لِيُذْخِرُوا بِهِ الْحَقُّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا
هُزُوءًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى
قُلْنَ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدْنَا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ
لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ
لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَبِيهِ لَا أَبْرَحُ
حَتَّىٰ أَتْلُغَ بَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنَهُمَا نِسْيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَبِيهِ إِتَيْنَاكَ غَدَاءً نَالِقَدَّ لِقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَسَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ
وَمَا أَنْسَيْتِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
 وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ
 أَنْ تُعَلِّمَنِي ۖ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
 مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
 فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾
 فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
 أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
 مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي
 عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ
 أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

الربع الأخير من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَقْتَلتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الحديث عن تتويج آدم وبنيه بتاج الخلافة عن الله في الأرض، للقيام بعمارته، وتنظيم شؤونها، طبقاً للتوجيهات الإلهية، والنواميس الأخلاقية، وأشار إلى تكبر إبليس وعناده، وتمرده على أمر الله وانتقاده، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وبذلك كشف كتاب الله النقاب عن طبيعة إبليس، وأنه على خلاف ما يتوهمه المتوهمون لا يدخل في عداد الملائكة المقربين، الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وإنما هو من فصيلة «الجن» التي يوجد فيها المومن والكافر، والبرُّ والفاجر، وكون إبليس من الجن لا من الملائكة هو الذي يوضح مغزى

المفاضلة، التي عقدها إبليس نفسه بين شخصه وبين آدم أبي البشر، إذ قال فيما حكى عنه كتاب الله في سورة الأعراف وسورة ص: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [١٢]، [٧٦].

والمعروف أن الملائكة خلقوا من نور، بينما الجن خلقوا من نار، والإنس خلقوا من طين، وبهذا البيان يتضح لجميع الأذهان أن الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر (إبليس) مستثنى من (الملائكة) إنما ورد ذكره فيها على معنى «الاستثناء المنقطع» الذي يعتبر فيه «ما بعد إلا» خارجاً عما ورد قبلها لا داخلاً فيه، وأنه لا سبيل إلى حمله على «الاستثناء المتصل» لتخالف الأصلين، وتباين الطبيعتين، قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾ [الآية: ٢٧]، وقال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الآية: ١٥].

ثم لفت كتاب الله أنظار بني آدم إلى العداوة المتأصلة بينهم وبين إبليس وذريته، وأن هذه العداوة الراسخة والدائمة التي يَكْنُهَا إبليس لآدم وذريته كافية لأن تجعلهم على حذر من موالاته ومتابعته، فكيف يعادون ربهم، ويوالون عدوهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بَيْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وقد حذر كتاب الله في غير ما سورة وغير ما آية بني الإنسان، من مطاوعة الشيطان، ومواجهة خالقهم ورازقهم بالتمرد والعصيان، بلما في ذلك من سوء العاقبة ومنتهى الخسران،

فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [الآية : ٦]، وقال تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الآية : ١٤٢] .

وأشار كتاب الله إلى عناصر السوء التي أضلت الناس عبر القرون والأجيال، وفي طليعتها إبليس وجنوده من شياطين الإنس والجن، وطواغيت الشرك والكفر، بما فيهم سدنة الأصنام، وعبدة الأوثان، وأدعياء العلم والقوة، المتطاولون على الله في مختلف العصور والأزمان، مؤكداً أن هذه العناصر كلها لا تتوفر على علم صحيح تكتنه به حقائق الأشياء، حتى ينخدع بها الأغرار، ولا على قوة ذاتية تتصرف بها في الكون، حتى ينخدع بها الأغمار، فالله تعالى قد تفرّد بخلق المخلوقات وتكوين الأكوان بفضل حكمته، وبمحض مشيئته، دون أن يُشرك معه أحداً في تصميمها وخلقها، ولا أن يستعين بأحد في تدبير أمورها وتسييرها، وبذلك انفراد سبحانه بإيجادها وإمدادها، كما انفراد سبحانه بعلم حقيقتها والإحاطة بكنهها، فهو وحده الذي بيده مقاليد التصرف في الكون، وهو وحده مصدر العلم الحق، ومنبع الحقيقة المطلقة، عن الكون والمكوّن، وعن الخلق والخالق: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وهذه المعاني المفصلة هي التي تضمنها بصفة مجملة قوله تعالى هنا: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِّلُهُمْ وَعِضُدٌ ﴾ . ووصف «المضلين» الوارد في هذه الآية، والمعبر به عن العناصر التي

تقوم بتضليل الخلق والتغريب بهم يناسبه ما حكاه كتاب الله على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

ثم وصف كتاب الله موقف المشركين الحرج يوم القيامة، ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، عندما يأمر الله أتباع أولئك الشركاء أن ينادوهم ليشفَعوا فيهم، ثم يدعونهم فعلاً فلا يستجيبون لهم، بل يتجاهلونهم بالمرّة، كأنهم لا يعرفونهم، أو كأن بينهم عداوة متأصلة من قديم ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾، قال الحسن البصري: «موبقاً أي عداوة» وقال ابن الأعرابي: «كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق».

ومضى كتاب الله يصف الخيبة التي يُمنى بها الأتباع الضالون عندما تنتهي أحلامهم، ويتبرأ منهم سادتهم الذين أضلّوهم، وكما وصفهم كتاب الله في الربع الماضي بوصف «المجرمين» إذ قال في حقهم: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ وصفهم في هذا الربع أيضاً بوصف «المجرمين» بعد أن وصفهم في الآية السابقة بوصف «المضللين»، فقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوقَفُوهَا﴾ أي أنهم بعدما رأوا النار التي كانوا في شك من وجودها أصبحوا يتوقعون دخولها، فانتقلوا من درجة الشك إلى درجة الظن، غير أن الظن، أمام الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، لم يلبث أن انقلب إلى يقين، إذ

لا سبيل لنجاتهم من النار، بعدما سبق أن وجهه إليهم الحق سبحانه وتعالى من انذار واعدار: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ .
 وبما يقرب من المعنى الوارد في هذا السياق جاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [الآية: ١٦٦]، وقوله تعالى في سورة الانعام: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية: ٩٤].

وانتقل كتاب الله إلى بيان أن الحق سبحانه وتعالى لم يترك وسيلة من وسائل إقناع الإنسان وهدايته إلى الحق والخير، ومساعدته على الاختيار المحمود، إلا وضمَّنها آيات الذكر الحكيم، وبالرغم من كل ذلك لا يزال يوجد من بين الناس من يُصرَّ على إنكار الحق والتمسك بالباطل، إما عناداً وجحوداً، وإما تقليداً وجموداً، منبهاً في نفس الوقت إلى جهل هذا الفريق من الناس بحكمة الله، وعدم شكرهم لرحمة الله، إذ لا يعجز الحق سبحانه وتعالى أن يسلط عليهم عذاباً يستأصلهم من الوجود، أو يعاقبهم بعذاب عاجل سريع، بدلاً من أن يؤجل عقابهم إلى اليوم الموعود، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي أنهم علَّقوا تصديقهم بالرسالة على برهان مادي محسوس يؤكد عقاب من لم يؤمن بها في الحين،

كان يُحَلِّ بِسَاحَتِهِمْ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ الْبَائِثَةِ، مِثْلَ عَادَ وَثَمُودَ، مِنْ إِبَادَةِ وَاسْتِئْصَالِ، أَوْ يُحَلِّ بِسَاحَتِهِمْ عَذَابَ سَرِيعٍ عَلَى وَجْهِ الاسْتَعْجَالِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَدَّ عَلَيْهِمْ تَحْدِيدَهُمُ الْمَحْمُومِ فَقَالَ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيَّ أَنَّ رِسَالَةَ الرِّسْلِ لَا تَتَجَاوَزُ الْبِشَارَةَ لِلْمُصَدِّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالنَّذَارَةَ لِلْمُكَذِّبِينَ الْكَافِرِينَ، وَلَيْسَ مِنْ اخْتِصَاصِ الرِّسْلِ أَنْ يَقْرَرُوا بِمَحْضِ إِرَادَتِهِمْ عَذَاباً مُعَيَّناً، أَوْ يَسْتَعْجِلُوا الْعَذَابَ قَبْلَ وَقْتِهِ، لَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ، فَأَمَرَ الْعِقَابَ وَالثَّوَابَ مُوَكَّوِلَ تَقْرِيرِهِ وَتَحْدِيدِ نَوْعِهِ إِلَى اللَّهِ، دُونَ سِوَاهُ.

وَتَوْضِيحاً لِحِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فِي الْإِنْفِرَادِ بِهَذَا التَّدْبِيرِ، وَمَا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، لَوْ يُوَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقاً﴾ أَيَّ لَا مَحِيصَ عَنْهُ وَلَا مَفْرَ.

ثُمَّ عَقَّبَ كِتَابَ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَفِيدُ أَنَّ أَظْلَمَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلْحَقِيقَةِ، هُمُ أَوْلَثُكَ الْمُتَعَتِّتُونَ الَّذِينَ أُتِيحَتْ لَهُمْ فُرْصَةُ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى الْحَقِّ، لَكِنْهُمْ فَضَّلُوا الْإِعْرَاضَ عَنْهَا، وَبَدَلُوا مِنْ أَنْ يَعْبُدُوا النَّظَرَ فِي أَحْوَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ وَمَعْتَقَدَاتِهِمْ عَلَى ضَوْءِ الْهَدْيِ الْإِلَهِيِّ أَصْرُوا عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَلَمْ يَغْيُرُوا مِنْ حَالِهِمْ، فَأَقْفَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ جَمِيعَ الْأَبْوَابِ، وَلَمْ يَبْقَ أَيُّ أَمَلٍ وَلَا رَجَاءٍ فِي هِدَايَتِهِمْ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِمُ الْمَنْزِلَةَ فِي الْكِتَابِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ تَدْعُهُمْ

إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٠﴾ .

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن رحلة موسى من مقر إقامته إلى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، وبرفته فتاه، للقاء عبد من عباد الله آتاه الله من لَدُنْهُ علماً لم يُوتَه موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَيْتِيهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ - ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ .

واستغرق وصف هذه القصة القسم الثاني من هذا الربع، والقسم الأول من الربع الآتي، وهذه القصة توحى بعدة أمور:

- الأمر الأول - أن الله رفع العلماء بعضهم فوق بعض درجات ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فلا ينبغي لأي عالم أن يعتقد أن عنده منتهى العلم، أو جميع أنواع العلم، وكما أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، فإنه يفيض من علمه على شخص ما لا يفيضه على آخر، ولا ينبغي لأي عالم أن يَقْنَع بما عنده من العلم دون أن يطلب المزيد دائماً: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، بل عليه أن ينتهز جميع الفرص والمناسبات، لتلقي أطيب النفعات ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ .

- الأمر الثاني - أن العالم بالرغم من كونه عالماً لا بد له من أن يلتزم منتهى الأدب مع من هو أعلم منه، وأن لا يعترض على الطريقة التي يختارها معلمه لتعليمه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي

عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١﴾ .

- الأمر الثالث - أن العالم ينبغي له أن يتخطى بنظره حدود المظاهر والظواهر، ويتطلع قبل كل شيء إلى حِكْم الأشياء وأسرارها، ويتعرف على مقاصدها وأهدافها، ويُلِمّ بظروف النوازل وملابساتها، وبذلك يتحاشى إصدار الأحكام، التي لا تناسب المقام، وإلا أدى به الحال إلى الوقوع في الغلط، وارتكاب الشطط ﴿٢﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٣﴾ .

- الأمر الرابع - أن المستزيد من العلم ينبغي له أن يتأنى ولا يستعجل من هو أعلم منه، فلا يلجّ عليه بكثرة السؤال، لأن ذلك يؤدي به إلى المضايقة والإملا، ﴿٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ مِ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأَبْتُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧﴾ . روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله موسى لَوَدِدْنَا أَنَّهُ صَبِرَ، حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا». وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أَنَّهُ عَجَلَ لِرَأْيِ الْعَجَبِ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذِمَامَةً، وَلَوْ صَبَرَ لِرَأْيِ الْعَجَبِ». و«الذِّمَامَةُ» بفتح الذال هي الحياء والإشفاق من الِذْم والِلوم، وبهذه التوجيهات والإشارات يربينا الذكر الحكيم على السلوك القويم.

محتويات الجزء الثالث
من
(التيسير في أحاديث التفسير)

تفسير الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم	
الربع	الأول من الحزب الواحد والعشرين ٥
الربع	الثاني من الحزب الواحد والعشرين ١٨
الربع	الثالث من الحزب الواحد والعشرين ٣٢
(وفيه نهاية سورة التوبة وبداية سورة يونس)	
الربع	الأخير من الحزب الواحد والعشرين ٤٣
تفسير الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم	
الربع	الأول من الحزب الثاني والعشرين ٥٣
الربع	الثاني من الحزب الثاني والعشرين ٦١
الربع	الثالث من الحزب الثاني والعشرين ٧٠
الربع	الأخير من الحزب الثاني والعشرين ٨١
(وفيه نهاية سورة يونس وبداية سورة هود).	
تفسير الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم	
الربع	الأول من الحزب الثالث والعشرين ٩٢

- الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين ١٠٥
الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين ١١٥
الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين ١٢٦

تفسير الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين ١٣٥
الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين ١٤٥
(وفيه نهاية سورة هود وبداية سورة يوسف).

- الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين ١٥٨
الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين ١٧١

تفسير الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين ١٨٢
الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين ١٩٣
الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين ٢٠٦
(وفيه نهاية سورة يوسف وبداية سورة الرعد).

- الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين ٢١٧

تفسير الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب السادس والعشرين ٢٣٠
الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين ٢٤١
(وفيه نهاية سورة الرعد وبداية سورة ابراهيم).

- الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين ٢٥٣

- الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين ٢٦٣
(وفيه نهاية سورة إبراهيم).
- تفسير الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم
- الربع الأول من الحزب السابع والعشرين ٢٧٦
(وفيه بداية سورة الحجر).
- الربع الثاني من الحديث السابع والعشرين ٢٨٨
(وفيه نهاية سورة الحجر).
- الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين ٣٠٣
(وفيه بداية سورة النحل)
- الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين ٣١٥
- تفسير الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم
- الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين ٣٢٦
- الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين ٣٣٧
- الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين ٣٤٩
- الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين ٣٥٩
(وفيه نهاية سورة النحل).
- تفسير الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم
- الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين ٣٧٠
(وفيه بداية سورة الاسراء).

- الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين ٣٨١
الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين ٣٩٢
الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين ٤٠٣

تفسير الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الثلاثين ٤١٤
(وفيه نهاية سورة الاسراء وبداية سورة الكهف).
الربع الثاني من الحزب الثلاثين ٤٢٦
الربع الثالث من الحزب الثلاثين ٤٣٧
الربع الأخير من الحزب الثلاثين ٤٥٠

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الاسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص.ب. 113-5787 بيروت - لبنان

رقم الإيداع القانوني

١٩٨٣ - ٤٢٧

الرباط

الرقم 85/4/3000/49

التنفيذ : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد - بيروت